حب محمدی ج2

www.ebibliomania.com

+201065534541
+201208868826
fb.com/Books.Bibliomania/
بيلومانيا للنشر والتوزيع
fb.com/bibliomania.eg/
Insta:books.bibliomania/
Books - بيلومانيا
fb.com/groups/Bibliomania.Books/
@BibliomaniaEg

حُبّ مُحمري

(الجزء الثاني)

رواية

رجاء فوزي

"العنقاء"

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

書誌事項

- **الكتاب: سم الياسمين**
- **المؤلف: نهاد أبس**
- **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

- **رقم الإيداع : 2461 / 2019**
- **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6607-79-8**

- تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا
- تدقيق: ببلومانيا
- الغلاف: فريق تصميمات ببلومانيا
- المدير العام: جمال سليمان
- العنوان: 27 شارع جمال الدين دويدار من عباس العقاد – مدينة نصر - القاهرة
  38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 0020226061014
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.ebibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

عن الرواية:

ولما صار الحب سلعة رخيصة ، وكل حدودها مائعة ، حتى لكادت كلمة الحب تفقد وزنها..
جاءت هذه الرواية لتعيد تنظيم المسألة تجميعا وتفكيكا ، فلا ينفك المحبان عن مجتمعهما ، ولا ينفكان عن دينهما ، حتى تتصل أرواحهما قبل أجسادهما بأسمى طرق الحب ليحققا كل معاني
"الحُبُّ المُحمَديُّ"

لذلك أهدي هذه الرواية لكل من أضجره الحب في زمن الوجبات السريعة ، والإعجاب ، والحظر ، وعالم التواصل الإجتماعي الذي حرَّف كل المعاني وسهل كل البدايات للنهايات ، لجيلنا الجديد الذي يفتقد لذة الحب ، والذي يتعجب من الحب الحقيقي الذي يعمر حتى الشيخوخة
إذ بدا ذلك مجرد كلام على ورق ، والمشاعر النقية كأنها مجرد خاطرة في عقول الكتاب والأدباء والشعراء التي لا تصلح أن تكون إلا أسطورة روائية!

-1-

لم يكن لمحمد أي عمل بالأسبوع الأول من إقامته ، لكنه بدأ بالبحث وتقديم الطلبات كانت مؤهلاته جيدة وشخصيته جدية بالعمل ، لكن بلد سارة كانت فرص العمل بها ضئيلة جدا ، مما صعب الأمر عليه ، وأرهقه جدا بالأسبوع الأول تحديدا بسبب طول الوقت وقلة مشاغله ، ولم تسعه الفرحة إذ جاء يوم الخميس ليرى سارة علّ الروح المتكئة على جسده تعود للحياة من جديد..
بدأ صباحه على ألحان أغنياته المفضلة ، كان يحب صوت المغني تامر حسني ، وحماسه ، ويشعر أنه يعيش في عالم آخر حين يسمعه رغم سماعه وحبه للطرب الأصيل الذي يميل لسماعه ليلا بالغالب ، وأخذت الأغاني تتوالى أغنية تلو الأخرى..

"ولسى اللي جاي أحلى..
أنا بحبك موت..
ضحكتها ما بتهزرش...الخ"

كان ذلك كفيل بخلق روح جديدة داخله ودب النشاط بجسده ، استحم وأفطر وخرج ليركض قليلا ، ثم عاد من مشواره الصباحي
اتصل على سارة ليؤكد على حضوره ، وأخبرها أن روحه تحلق منذ الصباح إذ سيراها اليوم وبعد أن أغلق السماعة وكالعادة بلع لسانه الخجل أرسل لها :
لو تعلمين كم من الشوووق لك بأيسري..
أحبك
ثم جهز نفسه وقد ارتدى قميصا أبيضا وبنطالا أسود ، وعطر نفسه حتى لكاد يفرغ زجاجة العطر عليه ، ثم نزل واستقل سيارة الأجرة متجهاً لبيت سارة ، فتوقف بالطريق وأخذ معه باقة أزهار لسارة ، فتذكر الخالة أم سارة واشترى لها باقة أخرى..
كان محمد يشعر بالسعادة المطلقة حين يرى الخالة أم سارة ، امرأة أربعينية رقيقة جدا وفاتنة جدا بيضاء ممشوقة القوام راقية الحديث ولا ترتدي إلا حجابا أبيض ، وكثيرا ما تهيأ له أنها ملاك متجسد بهيئة بشر..
لم تكن سارة وحدها جنته ، إنما كان النعيم يحيط به من كل جانب وهذا ما جعله يغرق بها وبعشقها ، سارة ووالدها ووالدتها وإخوانها الذكور ، أما أختها فلم يخالطها بأكثر من سلام عابر للآن ، فهي لا تشاركهم بمجالسهم أبدا..
قبل أن يصل خجل محمد أن يذهب بباقتي الورد وحدهما فتوقف عند محل الحلويات وحمل معه طبقا من الحلويات الشامية وأكمل سيره لهم..

وصل الشارع فوجد الشابان اللذان كانا يلاحقان سارة دائما واللذان يدعيان بـ "زينغو ورينغو"، فوقف وابتسم لهما بغيظ، وهما واقفان يتهامسا عليه، رفع حاجبيه بوجههما ثم نزل لشارع سارة، كان الجو في المنطقة لا بأس به، معتدلا بعض الشيء، لكن قمة إيفرست على أعتاب بيت سارة كانت مختلفة تماما والرياح قوية جدا وتعزف أصواتا غريبة، فرن محمد الجرس وانتظر حتى يفتحوا له كي لا يطير هو وما بيده وهو ينتظر على الباب، طل العم والد سارة ورحب به ترحيبا حارا واستقبله بالأحضان والقبل ثم أدخله للداخل وعاتبه على كثرة ما كان يحمل قائلا :

لما كل هذا يا بني..

أنت مقبل على زواج حاول أن توفر ما بجيبك، نحن بتنا عائلة واحدة دعك من التكليف..

فقال محمد:

والله من الحب يا عم، ولو كان بيدي لأحضرت كل نعيم الدنيا وأنا قادم..

فرد عليه:

أعزك الله وأسعدك..

لم تعتد سارة بعد على الوضع الجديد، لكنها تجد نفسها تتصرف بتلقائية، دون شعور..

لقد كانت تلك أسوأ الفترات رغم جمالها، فالشعور كان تائها لكثرة الأحداث، وكأنه مجرد خط زمني تتقاطع به الأحداث دون أن ينتظر الشعور ليصل، فتكون هنا الضجة الأكبر..

ارتدت سارة جلبابها وحجابها والشعور الأغرب الذي تمكنت من استيعابه أنها مهتمة جدا، بأن تكون جميلة هذه المرة، بالرغم من أنها لم تضع شيئا على وجهها سوى ما تضعه دائما..

لكن الشعور العجيب الذي انتابها، أنها باتت تهتم بنظرة شخص ما لها

..خرجت سارة ،كالعادة لكنها كانت فاتنة جددا بطريقة لافتة، وقد وضعت كحلا في عينيها مما زاد بياض عينيها اتقادا، وعينيها سوادا، فتلعثمت حروف محمد ووقف ليسلم عليها، فابتسمت له ومدت يدها هذه المرة، ودخلت الخالة أم سارة، مما قلل توترهما وشغل العم عنهما قليلا، لكن عيني محمد كانت تقول غزلا بليغا، سمعته دقات سارة فأظهرت إشارات خجل حمراء على وجنتيها وبريقا يتلألأ بعينيها..

اقترب محمد من باقات الزهور فقدم الأولى لعمته وقبل يدها ، فقال العم أبو محمد بعد أن رأى ابتسامة زوجته الخجولة :
-هاا ، نحن هنا.. ثم قال لمحمد: لا تكررها مرة ثانية
فضحك الجميع على والد سارة ، وقد حاول إبداء عدم اكتراثه..
ثم قدم الأخرى لسارة وقبل يدها ، فارتبكت سارة وتلعثم وجهها ، فقال لها :
-حماك الله وأدامك لي يا خير نساء الأرض
تنحنح العم وضحك ، فالتفت له محمد وقد رفع يديه :
-حلال يا عمي حلاال
فسقط قلب سارة منها وكاد أن يغشى عليها ، فحملت الباقة واستأذنتهم ، ثم انصرفت لغرفتها
فنظر العم لمحمد بعتاب وهو يبتسم وجلسا ، فاستأذنت أم سارة لترى ما حل بابنتها..
فقال والدها :
-يا بني رفقا بها ، فهاته التي بين يديك عذراء الروح ، والقلب ، والمشاعر ، والجسد فأنى لها أن تستوعب كل هذا الغزل والعشق منك..
عليك أن تدرك ذلك ، تمهل في عشقك ، لا توقد نارك دفعة واحدة بصدرها أخشى عليها أن تنصهر . فقال محمد :
-والله يا عم لا أجيد كلام العشق والغزل ، ليتني أملك حرفا يصف ما بالقلب بحق. .
ليست روح سارة وحدها العذراء ، فوالله ما قلت يوما "أحبك" لأحد بحياتي سواها ووالدتي وأختي ، هذا وإن كنت قد قلتها لهم!
فاعذرني يا عم على ما أقول ، فإني أقوله بحضرتك ولا أخفيه ، ليقيني أنه حق لي ، ولا أظنني قد تجاوزت الحدود!
فقال العم :
-أثق بك وبابنتي
إنما أطلب منكما التروي.. سيحين الوقت لتقولا كل شيء وتشعرا بكل شيء ، لكن الوقت مازال مبكرا..
أحضرت الخالة أم سارة الشاي ، وقالت :
-أغلقت على نفسها الباب وقالت إنها قادمة
فضحك الجميع..

وقفت سارة أمام المرآة وتنظر بعينيها ، وقد وقعت هي بعشقهما ، ونبضات قلبها تحتاج لقالب ثلج كبيير ليرقد فوق صدرها ليهدأ ، تضع يدها على وجهها محاولة تخفيف حمرتهن ، وقد تحولا لجمرة مشتعلة..

ثم ابتسمت وهي تحاول منع نفسها وتنفث الهواء من صدرها فتقول :

ماذا يفعل بي هذا المحمد ما عدت قادرة على التقاط أنفاسي!

اووووه

لم يفعل شيئا ، مالي أتصرف كالغبية البلهاء ، وكأني ابنة الخمس سنوات ، سأخرج كي لا يشعروا بأني خجلت

خرجت وبلت المنديل بالماء وحاولت إخماد حرارة وجهها ، ثم عادت لترى نفسها جيدا ، وعادت لغرفة الضيوف من جديد ، وأختها تجلس بغرفة الجلوس وتسألها بإلحاح: ماذا حصل ؟

فتشير لها بيدها لتكف عن ذلك ، فدخلت سارة الغرفة ، ومحمد ينظر إليها بشقاوة ويبتسم ، فقال والدها: خجلت سارة..

فوقفت وكأنها لا تكترث بما قال وقالت: لم أخجل ، ذهبت لأضع الورد بالداخل فقط..

فابتسم محمد ورفع حاجبه وهو ينظر لعمه..

جلست سارة على الكرسي المقابل لمحمد ووالدها وجلست والدتها بجوارها فدار نقاش طويل بين العم ومحمد ، مكمل لما بدأه محمد حين قال لوالدها :

-يا عم ، أيمكنني اصطحاب سارة لأحد المطاعم أو الحدائق ، خلال الأسبوع ، بوجود أحد المحارم طبعا ، أختها أو خالتي أو حتى أحد إخوتها ؟

فقال :

-اعذرني يا بني ، سارة لن تخرج معك إلا بحضوري أنا والعائلة ، المهم أن أكون أنا حاضرا ، ليس لقلة ثقتي بك أو بها ، لكنه آخر ما قد أفكر به ، طالما أنها لاتزال ببيتي هنا ، فلن أسمح بذلك. فقال :

-العفو منك يا عم ، لقد طلبت من سارة أن ترتدي اللباس الشرعي تحفظا منك وحرصا وقبلت ، ووالله لم أحاول حتى أن أطلب صورة لها بشعرها ، ولم أشعر بضيق لذلك أبدا بل على العكس تماما ، شعرت أني أحظى بأنثى وزوجة ليست كأي من الإناث ، فإن كان كل هذا الحرص مني وأنا زوجها شرعا فكيف ستكون مع غيري!

فقال: يا بني هذا عقد مدني فقط ، بالنسبة لنا الزواج حين تصبح المرأة في بيت زوجها..
فقال محمد :
-ياا عم ، أنت تعلم أنه حقي شرعيا ، وأنا أقدر شعورك وغيرتك ، فوالله لو كان لي سلطة حين تزوجت أختاي لفعلت كذلك..
فضحك العم وقال :
-والله يا بني قد وفرت علي الكثيير..
أتدري لو كان بيدي لخبأتهن بخيمة وأغلقتها عليهن فلا أدعهن يكلمن أحدا من غيرتي ، لكن الشرع هذب خلقي ، ومنحهن حقوقهن جبرا عني ، قد يكون الأمر من حقك ، لكن مادامت هنا في بيتي فهذا لن يحصل..
ولما دخلت سارة أكمل العم نقاشه مع محمد فقال:
-هذه بنيتي دعك منها ، إنها تقبل بما أقول ، وأعرف كيف أقنعها حتى الرضا.. أليس كذلك يا سارة ؟
فابتسمت سارة وقالت: بالطبع ، لكن عما تتحدثون ؟
فقال والدها :
بشكل عام..
فهمت سارة بأنه لن يخبرها ، فأتبعت بصمت ، ثم قال محمد لسارة :
كنت..أطلب منه أن يسمح لنا بالخروج سويا لو أردنا ذلك ، لكنه لم يقبل بذلك.. وإني لا أملك أمامه سوى القبول..
ثم وجه حديثه لوالدها وقال :
-والله يا عم إني لأقتنع مثلها بما تقول ، وأشهد أنك من ذوي الحكمة والرأي السديد ، إنما أخشى أن يفوتنا الوقت فلا نعيش تلك اللحظات التي يعيشها من هم بجيلنا فنندم على ذلك ونقول يا حسرتاه لو كنا نفعل ذلك ، لمجرد الذكرى لا أكثر
فقال العم منهيا الحديث :
-لا تقلق ، سأسمح بذلك بلحظة ما ، لا تتعجل شيئًا يا بني ، ست شهور وستصبح زوجتك وستعيشان كل ما تحلمان به..
دعا الحب يكبر بداخلكما على أسس حقيقية ، مبنية على الفكر ، ليكون الحب راسخا وعميقا ، لا قصرا ، مزخرفا قواعده من سراب وأحلام وأوهام ، ما أن تطأ أقدامكما عتبات هذا القصر حتى يهدم بما فيه فوقكما..

الحب مراحل، والشرع نظم ذلك بدقة: إعجاب، فخطبة، ثم زواج.. ميول، ثم تعارف وأفكار ترسخ الحب، ثم ثمار الحب الصادق ممثلة بأطفال.. فعيشا جميع مراحلكما ولا تقفزا عن إحداها فتتحسران بحق فيما بعد..

***

-2-

كان محمد مولعا بكلام عمه رغم إظهاره لرفض الأمر أمام سارة ، فقد كان صبورا منطقيا متأنيا ، يعلم أن الأمر لن يفوته ، إنما كان يخشى أن تقارن سارة بينها وبين رفيقاتها فتشعر بالحزن لأنها لا تخرج ولا تحتفل مع محمد ، وبالرغم من ذلك فقد كان يرى أن هذا الأمر سيوفر عليه الكثير من المشاعر والكلمات ، إذ أنه يبذل مجهودا عاطفيا عظيما ليتمكن من وصف مشاعره لسارة..

نشرت سارة على صفحتها مساء ذاك اليوم منشورا على الفيس بوك كتبت فيه:

"ورب نظرة خير من ألف حديث..

وسلام يعدل ألف لحظة حب وغرام..

ورب كلمة تنسيك كيف يصاغ بعدها الكلام..

وشعور بألف عام من العشق والهيام.".

فرد محمد عليها :

"ورب ابتسامة لأنثى توقعك بعشقها وتنسيك كل ما علمتك إياه السنين والأيام"

وخلال دقائق حذفت سارة تعليقه ، ثم أتبع ذلك بدقائق حذف منشورها بأكمله تعجب محمد من ذلك ، فاتصل بها حين عاد إلى البيت وبدأ حديثه بعد السلام ، بضحك وقال: لم حذفته!

قالت: لا شأن لك..

فكتم محمد ضحكته وقال مستفزا إياها: لا بد أنك سرقته من إحداهن ، أليس كذلك!

فقالت ببرود: أحسنت..

صمت محمد كانت ألف كلمة بلسانه لكنه شعر أن سارة ليست على ما يرام فبدأ بربط الأمور ، إن كان قد قال أو فعل ما يزعجها ، ثم فكر بأنها قد نشرت هذا الكلام بعدما عاد إلى المنزل ، فما المشكلة إذن..

بينما سارة كانت تنتظر أن يقول أي شيء ، إذ شعرت باختناق مفاجئ بعدما نشرت ذاك الكلام ، ورد عليها محمد فحذفت تعليقه ثم منشورها..

وتفكر بعقلها لما أفعل ذلك وأناقض نفسي! ، لمَ أتحفظ على أي مشاعر داخلي! ، لمَ لا أقولها بكل بساطة له ، بأني أحبه وأحبه جدا! ، لمَ لست بسيطة كأي أنثى أخرى تحب وتقول وتتبادل العشق!

وبعد لحظات من صمتهما قالا سويا:

سارة: محمد..

ومحمد: سارة..
ثم اتبعا بصوت واحد: ها ؟
فقال محمد: قولي أنت ثم سأقول أنا
وقالت سارة: لا لابأس ، قل أنت أولا..
فقال محمد: كنت سأسألك عن سبب صمتك ؟
أشعر أنك منزعجة لأمر ما ؟
فأجابت: لمَ قد أنزعج ؟
لا لا أبدا
ثم قال محمد: متأكدة!
فقالت متهربة: بالطبع..
فقال: دورك..
فقالت: اممم
لا شيء فقط كنت سأستأذنك ، تأخر الوقت و.. سأخلد للنوم..
فقال محمد والضيق يملؤه: أحلاما سعيدة حبيبتي
احمرت وجنتا سارة ، وصمتت لبرهة
فقال محمد: تصبحين على خير
سارة!
فقالت: نعم
قال : ما بك !
قالت وقلبها يريده أن يبقى: لا لا شيء
السلام عليكم
فقال : وعليكم السلام
أغلق محمد هاتفه بعدها ووضعه على الشاحن ، لا يدري سبب اختناقها لكن دقات قلبه اضطربت بشدة وشعر بغصة بأيسره ، ففتح نافذته بأكملها وقد كانت رياح الخريف باردة جدا
ورمى بنفسه على سريره مبحلقا بسقف الغرفة ويفكر بها ، ويتساءل عما يمنعهما ليكونا سويا ، وقد أصبح زوجها ، وبوده لو تنتهي كل المسافات بينهما فتلتصق الدار بالدار ويكون القريب الأقرب منها بكل وقت..
أما سارة فخمدت رأسها بوسادتها وأغمضت عينيها بشدة وتفكر: أأحبه حقا ، أم أن ما يحدث لي مجرد تهيؤات محضة ، لمَ أنا منطفئة لهذا الحد! ، لمَ لا يمكنني أن

أبادره مرة بشعو ، وأخجل كلما وقفت أمامه وعبثا أحاول لملمة ما يتناثر مني حين يحضر!
ثم استلقت على ظهرها وأرخت كل أطرافها : لا تتغابي يا سارة ، لقد ساقه الله لك من آخر البلاد إلى هنا ، وخلق أمامه ألف عائق واختبار فتجاوز ذلك من أجلك ، فكيف لا تحبينه..
ثم أغمضت عينيها مطمئنة وقالت : أحبك.. أحبك رغما عن أنف كبريائي وقساوتي يا محمد ، لكني لا أستطيع التكلم أبدا.. وكم أتمنى أن تدرك ذلك.. غفى محمد بعد طول تفكير ، ونسي هاتفه مغلقا ، كما سارة..لكن أرواحهما هذه المرة كانت مصرة أن تقول لكل منهما كم يعاني الآخر عشقا له ، فحلما الاثنان ببعضهما البعض..
أما حلم سارة فكان فيه محمد يعتلي سورا مرتفعا بعض الشيء ، فأشار لسارة ومد يده لها لتصعد ، فلما صعدت قال لها بأنه يرغب بإخبارها بأمر مهم ، وأن عليها اللحاق به..
فوافقت سارة ، وأخذ محمد يركض قبلها ويشير لها بيده لتلحقه ، الظلمة حالكة لا تبصر فيها سوى محمد ، وحين تكاد تصله فزعة يهرب محمد لزاوية أخرى أكثر بعدا ، وهكذاا حتى تعبت سارة وجلست بوسط الظلمة وأخذت تبكي فعاد محمد إليها سريعا وضمها بشدة وقال لها اهدئي عزيزتي سأسقيك ماء لتكوني بخير ، اهدئي ما بك ؟
فقالت له : لا أريد ماء لقد تعبت كثيرا ، فقط أريد العودة لذاك السور الذي انطلقنا منه..

-3-

استفاقت سارة والدموع تفجرت من عينيها كما الينابيع الحارة ، ولأول مرة تشرق سارة بدموعها شوقا وحبا لأحد ، كانت ذرات قلبها منهكة بالكامل ، خائفة جدا ، ومتفككة جدا ، تحتاج لصوت محمد أو حتى طيفه ليضمها ويلملمها بكلتا يديه حتى تلتصق ببعضها من جديد..

اتصلت سارة بمحمد مرة واثنتين والهاتف مغلق

زاد ذلك حزنها ، وضياعها ، ذهبت وتوضأت لتصلي ركعتين لله ، كانت بحاجة لقوى عظيمة ، لاحتضان روحي ، لأن ترمي ثقل قلبها ومشاعرها على أحد ، ولم تجد خيرا من الله مُلجِئ وملجأ ، فقد اعتادت منذ صغرها ، أن تشارك الله بكل شيء ، فإن سرها أمر سجدت لله شاكرة ، وإن أصابها شر سجدت له لاجئة ، فإن فعلت ذلك ، أرسل الله لقلبها فيضا من الراحة والسكينة والطمأنينة ، تروي قلبها ، وتسعد خاطرها ، وتريحها..

رأت والدها يقيم الليل كعادته ، فرفعت صوتها لما مرت بجواره وهو يرفع يديه للسماء وقالت: أبي ، اذكرني بدعائك..

وأكملت سيرها لغرفتها ، سجدت لله فطرح القلق والحزن من قلبها أرضا ، في موقع سجودها تماما على هيئة سيل من الدموع..

أرادت أن تنام ، فطرق والدها الباب عليها وطلب منها أن تسهر معه إن أرادت فالنوم لم يزره لهذه الليلة متحججا بأنها أيام عطلتها ، وأنها غنيمة عليه استغلالها..

نظرت سارة لهاتفها قبل أن تذهب واتصلت على محمد مرة أخرى لكنه كان لا يزال مغلقا..

تركته على الشاحن بالوضع الصامت ، وخرجت لتجالس والدها

جلسا بغرفة الجلوس وهواء الخريف البارد يرقص داخل البيت رقصات عجيبة تتسلل لداخلهما ، دار بينهما حديث مطول وقد تجرأت سارة هذه المرة لتقول لوالدها عما يحدث بداخلها بحق ، بعد أن قال لها أنه يعلم ما يحدث بجوفها الآن..

قالت : لم يسبق أن خبأت عنك أمرا يخصني ، أو اتخذت لي غيرك ووالدتي خليلا وناصحا ، فقد صحبتك منذ صغري واعتدت عليك جدا ، وما كان لفتاة قد صاحبت رجلا مثلك طوال هذا الوقت أن تقبل بصحبة رجل آخر..

وافقت على محمد ، وقد كتب الله له داخلي القبول ، وشعرت بارتياح له ، لكني سأصدقك القول أني لم أكن أدرك إن كنت أحبه أو لا ، شعرت كأنه شيء قد دخل

حياتي جبرا عني وأن لا خيار لي بقربه أو مفارقته ، وكنت أحاول أن أستوعب الأمر وأتقبله..
لكن ما اكتشفته يا والدي إني جبارة بالعواطف ، وأن عواطفي لشدة ما أقصاها قربا مني ، لا أزال أخشى أن أقربها!
محمد رجل طيب جدا ويحبني جدا ، لكنه فرح وسعيد بهذا الشعور ، ويسعى لأن يهشم صمته ، فإن نطق بكلمة خضت دمي على حين غرة وشعرت أني لا أتمكن من التوازن..
والآن لا أدري لما أشعر أني بكل يوم أتعلق به أكثر وأكثر ، بكل حرف يقوله ترسم نبشة جديدة له لا تكاد تنبض بقلبي..
ظل والدها صامتا وينظر للتلفاز بشرود ، وكأنه يريد أن يمنحها حصة إضافية للبوح ، عل ذلك يريحها..
فأتبعت :
أحيانا أشعر بفرح بتلك المشاعر الجديدة ، وأحيانا يغص قلبي بها وأتساءل ما الذي يحدث لي ، لم بت ضعيفة لهذا الحد!
فابتسم والدها وقد شعر أنها غارقة بفوضى لا حدود لها ، فقال:
يا حبيبة قلب والدك..
اعذريني إن تماديت بإشباعك بأفكار ليست لعمرك ، إن جعلت منك امرأة عاقلة متزنة وأنت بعمر صغير ، إن أورثتك شيئا من الزهد وعلمتك أن الحياة زائلة ، وأنك ستفارقين كل من تقابلينه..
لكن ما علمتك إياه لا يمنع أن تعيشي هذه الفترة من حياتك بكل ما فيها..
فقالت مقاطعة إياه: لاا أقدر ، أن أشعر بضعفي أمام أحد ، أن أبدي حاجتي لأحد
فأتبع: اسمعيني..
وكما تعلمت مني سابقا ، خذي عني ما أقولك اعقليه واعملي به..
إياك يا بنيتي أن تسلمي قلبك للحزن ، للعجز ، والزمن ، إياك أن تسمحي للفرح بأن يفر منك دون أن تشعري به ، أن تمضي زمنك دون أن تعشقي بصدق ، وتبذلي بصدق ، أن تنجبي وتربي وتعلمي وتعطي..
إياك أن تبخلي على نفسك بلحظة فرح أو جنون ، وتغرقي برزانتك وهدوئك ، أقيمي فرضك وصومي شهرك وأطيعي زوجك ، ولكن لا تبخلي على نفسك بشيء ، اقرئي ما يستهويك ، وارسمي ، واعزفي وارقصي واسعي لقادم أفضل..

إياك أن يفوتك قطار الفرح ، والعشق ، والجنون ، حتى الحزن والشوق والضعف له لذته ، فسيأتيك يوم لن تشعري به بأي شيء ، وستقولين حينها صدق والدي حين أوصاني أن أشعر..
شعورك اليوم هو ذخيرتك غدا
فاصنعي لنفسك أجمل ذكرى لتؤنسك في وحشتك..
تفتت طبقات قلبها ، وأوشكت على البكاء ، فقال لها والدها وهو يمد نفسه لينام ، أيقظيني على صلاة الفجر ، وفكري جيدا فيما قلت..
لدي عمل غدا ، يجب أن أنام..
وقفت سارة وقبلت يده ثلاثا وجبينه ، فقال لها: رضي الله عنك ، تصبحين على خير..
فقالت : وأنت من أهله..
أطفأت التلفاز ، وعادت لغرفتها ، وشواطئ فكرها ومشاعرها بين مد وجزر..
الهواء بارد جدا ، والأمطار التي تكاثفت في صدرها لا بد لها أن تمطر..
أمسكت بهاتفها فوجدت خمسة عشر مكالمة من "محمدي"
لم تفكر للحظة بما أراده محمد ، رغم أن المكالمات لم تصله فالهاتف كان مغلقا إلا أنها كانت ملهوفة لمحادثته عل قطرات المشاعر المتكاثفة على قلبها تتبخر..
كادت أن تتصل ، إلا أن اتصاله سبقها ففتحت الخط قبل أن تتم الرنة الأولى..
كانت الساعة الثانية تماما ، بعد منتصف الليل ، والأولى بتوقيت الاعتراف بالشوق..
كانت سارة محملة بالحديث كسحابة رمادية تنتظر ريحا لتهز حملها أو تتوق لقطرة واحدة لتنهمر بكل ما فيها..
أما محمد فقد كانت كلماته صيحات أرض تصحرت وجف ماؤها ، بقلب تملأ ثناياه التشققات
فقال :
-سارة..
ردت سارة وصوتها يختنق
-نعم
قال: حلمت بك يا سارة ، كنت جالسة بجواري تبكين خوفا ولا تنطقين ، حاولت تهدئتك ولم أفلح بذلك..
هذا الحلم الثاني يا سارة ، والله كنت أصلي ليلا بخشوع حتى أراك ، ولما رأيتك

هكذا انقبض قلبي..
استفقت وصليت لله راجيا إياه أن يبعد عنك كل شر ، كل شر حتى وإن كنت أنا..
لا أدري لمَ تغيرت هكذا البارحة ، ظننتك ستكونين سعيدة بحضوري ، فوالله ما من سعادة تبلغ سعادتي إذ لاحت ابتسامتك لي..
إني أنسى جميع الحضور إذ حضرت..
صدقيني لست أقلد من بالعشق قالوا قبلنا ، لكنهم قالوا ما بالقلب بحق..
كانت سارة قد كتمت صوت الهاتف كي لا يسمعها ، وتضع يدها على فمها لتمنع نفسها من البكاء ، والدموع تتالى على خدها..
أتبع محمد :
-لماذا تصرين على خلق ألف جدار بيننا ، كلما اقتربت منك أراك تبعدينني أكثر ، وكلما حاولت إسعادك تتشبثين بحزنك أكثر
ألا يستحق محمدا حبك ؟
أخبريني يا سارة بربك..
اكسري حاجز صمتك وقولي أي شيء..
أكرهك ، أبغضك ، أحب غيرك ، قولي أحبك ، أحتاجك ، أشتاق إليك
لقد أذاب العشق قلب زليخة ولست يوسف لتردي إلي صحتي ، فأعلميني بصدق إن كنت لهذه اللحظة وقد مر على أول حلم لك عام وأكثر ، إن كنت لازلت تشعرين بالغربة معي ، إن كنت لازلت ترين أني لن أتمكن من الوصول لقلبك..
قوليها وأريحيني ، أقسم بمن خلق القلب وتوج فيه عشقك على كل شعور قبله ، أني سأنسحب مسالما ، داعيا الله لك وسائلا إياه أن يرزق قلبك عشقا يلوذ له قلبك كما أفعل ، فوالله ما رأيت للكون معنى إلا حين عرفت حبك ، وحتى في لحظات وجعي هذه ، رائحة قلبي المحترق ، وحرارة أنفاسي ، وصوت نبضات قلبي ، كل شيء بحبك يختلف ، لقد شغفني الله بك وما كان بيدي إلا أن أتقيه فيك وقد فعلت..
لكني لا أدري..
تنهد وخرخشة في داخل قلبه مسموعة الصدى ، ثم أكمل:
لن تقولي شيء ، أليس كذلك!
لا يعني لك أمري شيئا..
اووووه
أعتذر على ما قلت..

لم أقصد شيئا سامحيني..
فقط..
نزلت دمعة من عينه ولحقتها الأخرى..
زم فاهه قليلا كي لا تسمع صوت أنفاسه
جلس على سريره وشد بيده الأخرى على رأسه بقوة..
ثم أبعد سماعة الهاتف عنه وأخذ شهيقا شرق به إذ اختلط بدموعه التي تقف بحلقه ، فسعل وخرجت دموعه جبرا عنه ، مسحها بيده وقال وقد تغيرت نبرة صوته :
رزقني الله بعضا من قساوة قلبك..
لا لأقسو بها عليك ، بل لأتمكن من الصمود أمامك
مع السلامة..
كانت سارة جاثية على ركبتيها تحاول دفن صوتها ، بوسادتها..
بكت كما لم تبك يوما من قبل..
صدق محمد بما قال فرائحة احتراق قلبها ودموعها كانت شهية جدا ، عميقة جدا ، وصادقة جدا ..
أقفل محمد سماعة هاتفه ورمى به جانبا ، وسرح دموعه التي تخنقه ، بكى قليلا ، ثم أمسك هاتفه وسماعته وخرج ليمشي قليلا حتى يطلع الفجر فيصلي الفجر بالمسجد ويعود للبيت..
عل قلبه يتنفس قليلا..
أرادت سارة أن تكتب له ، أن تقول له ، أن تبكي له ، لكن القسوة متربعة بها ، مسامات قلبها متشبعة بكبرياء وجحود بالمشاعر تحتاج لإحيائه عمرا يبدد عمرها من الحب..
لو كان الأمر يتعلق بها لما اكترثت ، لكن غصة محمد ونبرته واختناقه الذي كان جليا عليه ، مزق أوردتها ، فكلما هدأت قليلا ، استفرغتها قسوتها وأعادتها للدموع مجددا..
وصلتها رسالة من محمد :
انسي كل ما قلته ، لقد كنت أهلوس لم أحتمل رؤيتك ترتجفين أمامي ، وقربي لا يعني لك شيئا فقط أعلم أنك تحبيني.. وتعلمين كم أحبك
أطراف عينيها اتقدت كما الجمر ، وما عادت قادرة على البكاء أكثر ، جفت دموعها وشعرت بحالة ارتخاء وبرود..

ارتدت معطفها وصعدت لسطح المنزل ، كان الهواء باردا جدا والليل حالكا جدا ، لم تشعل الأضواء ، وقفت بالقرب من حافة السياج حيث يكون الهواء أشد سرعة وبردا ، أغمضت عينيها ورفعت رأسها للأعلى ، والهواء يتغلغل بداخلها ويزيد خصلات شعرها الكستنائي تناثرا..

أمسكت هاتفها وانتبهت لرسالة محمد ، قرأتها وحاولت أن ترد بأي شيء..

كلما كتبت رسالة حذفتها وكتبت أخرى..

شعرت بالبرد فعادت لغرفتها ، وشرعت بالنوم ، تاركة كل فوضاها يقظة..

اتصل محمد بها ، كان جسده منهكا جدا ، ركض كثيرا ، وجلس لكن الغصة لم تغادره أبدا ، كانت صورتها تتردد بمخيلته وهي تبكي كلما حاول الهرب منها تذكرها مرة أخرى..

أغمضت عينيها بإصرار ، عازمة على النوم ، فلما اتصل محمد نظرت للشاشة وفتحت الخط مباشرة بلا سبب يذكر لكنها كانت متعطشة لصوته جدا

قال محمد بصوت هادئ:

-صباح الخير عزيزتي..

أمازلت مستيقظة ؟!

قالت:

-تقريبا ، كنت على وشك النوم..

فقال:

-آسف على ما قلته منذ قليل ، كنت مستيقظا للتو ، وشعرت باختناق شديد..

لست السبب ، غياب أهلي ، وبقائي وحيدا ، وشعوري بأن كل شيء سيكون أفضل بعدما أراك..

ثم المنام ، وأطنان من الأشواق داخلي ، شعرت برغبة بسماعها ، لكن لا بأس عزيزتي

أنا أتفهم عدم رغبتك بقولها..

صمت قليلا ثم عاد مجددا وقال:

-لكني لا أريد أن أستمع لصمتك هذا ، يقتلني صوت الفراغ حين تحضرين ، أشعر وكأنني ساذج ، أو أني أجبرك على البقاء معي..

صدقيني مهما حاولت شرح شعوري لن تفهمي بما أحس فقط حاولي أن تقوليها حين تشعرين بأنك تريدين قولها ، لكن إياك والصمت ، فإنه يئد الروح التي ولدت

على يديك ، ويقتل كل شغف يسكنني..
قاطعته قائلة :
-محمد..
فقال :
-عيني محمد
تنهدت وقالت:
-لقد كان منامك حقا ، فقد كنت أبكي طوال الليل ، وحتى هذه اللحظة..
صرت على شفتيها وأغمضت عينيها لتمنع دموعا قد تشكلت من السقوط ، وأتبعت:
-لقد حدث ما كنت أخشاه ، لن تتمكن من الشعور بي دون أن أنطق ، ولن أتمكن من النطق حين أشعر..
مشكلتي أني دقيقة جدا ، وباردة جدا ، كلوح جليد وهذا الكم من المشاعر المفاجئة سيكسرني..
حاول أن تساعدني أكثر ، نعم أنا أعترف بأني..
أخذت نفسا عميقا وقالتها بصوت بارد يتخلله نفحات من الوجع:
بأني أحبك.. نعم أحبك
ولا تتظاهر بأنك لا تعرف..
لقد قلتها ألف مرة لك ، قلتها حين وافقت عليك أمام القاضي مرة ، وحين تأتيني للبيت في كل مرة ، وحين أرد على اتصالك وأسهر ليلي معك بكل مكالمة ألف مرة..
فما حاجتك لها ، وما حاجتي لأن أكابر أكثر
لكن الطبع يغلب ، فقد اعتدت على الصمت كثيرا
فإني حين أحب أصمت
وحين أشتاق أصمت
وحين أبكي أصبت
الصمت يتخللني يا محمد..
أأ..
-وأنا أحبك رغم صمتك ، أقسسسم أني أحبك .. أتدرين.. إني متناقض جدا ، كنت أتساءل منذ قليل ماذا لو كانت سارة فتاة أخرى ، سهلة وبسيطة ، تقول كل شيء يخطر ببالها ، هل كنت سأحبها حقاا..

إني غارق بك ، وأعارك نفسي داخلك ، أحبك بكل تفاصيلك
لكن من عظمة الشوق لك ، ومن عظمة خوفي أن تكوني بحاجتي ولا أفهمك ، ألوم عليك..
سامحيني عزيزتي..
تنفست سارة وظهرت نبرت البكاء بأنفاسها ، فتخثر دم محمد وقال ونبضه بالكاد يتشنج:
-سارة! .. سارة! حبيبتي.. هل بكيتِ ؟ سارة أجيبيني بربك ، ردي علي
قالت بصوت مختنق :
-لا يمكن أن أكون سعادة لأحد ، حتى لك أنت
لايمكن أن أكون شيئا جميلا بحياة أحد ، كل من يمرون بي يتورطون بي ويعلقون ببرودي وجفائي..
لكني أحبك يا محمد..
أحبك نعم ، وجدا
سأقولها لك دائما
لن أخجل
سأقولها كل يوم ألف مرة..
أنا آسفة
حاول محمد تهدئتها فقال ممازحا اياها :
-وقعي!
هيا ، هات يدك وقعي لي هنا يا آنسة
لقد قلت سأقولها لك ألف مرة ..
ضحكت سارة ، فاختلط صوت الدموع بالضحك
فضحك وقال :
-ياااه ما أجمل ضحكتك هذه..
أجمل ضحكة بالكون كله..
أخشى أن أكون قد أدمنتها ، فاضطر لإبكائك عمدا ثم إضحاكك لأسمعها
فضحكت أكثر ثم قالت :
-مجنون
فقال :
-والله ما عرفته إلا بك ومنك..

تحبني ولا تقول
تبكي وتضحك
تصمت وتقول
مجنوونة أنت بحق ، ولقد جننت بك..
قالت :
-حتى..
أنني أسميتك على جهازي ب " محمدي "
رفع حاجبيه بذهول ، وقد أزهر قلبه بكلامها المختلط بغيث الحب فقال :
-قوليها ثانية!
قالت:
-أسميتك محمدي
فابتسم بامتنان وقال لها:
هل أخبرك أحد من قبلي أن الحياة معك حياة ثالثة ليست دنيوية ولا آخروية ولا برزخية
أنت حياة..اممم لا اسم لها همهه كل شيء معك أراه للمرة الأولى..
اسمع ب حبيبي ، زوجي ، قلبي ، نبض قلبي
أما محمدي ، فهذه غريبة
ما أجملك يا سارة
فقالت :
-نعم ، لأني أريدك لي وحدي
لذلك نسبتك لي أنا
ضحك وقال :
-أشتهي مشاركتك بأغنية
فقالت بمرح:
-أسمعني
قال وهو يبحث عنها:
-تحملي صوتي القبيح لو دندنت معها قليلا..
ضحكا بشدة ، ثم ردت :
-لا أعدك..
وجدها فقال : اسمعي اسمعي

"

حبيبي تعالى بناديلك
تطمني تريحني ماتسبش ايدي من ايدك
حبيبي تعالى بناديلك
تطمني تريحني ماتسبش ايدي من ايدك
ما تبعدش عني ولا سانية
أحضني نسيني الدنيا
واوعدني طول ما انت معايا
ما تسبش إيدي من إيدك
ما تبعدش عني ولا سانية
أحضني نسيني الدنيا
واوعدني طول ما انت معايا
ما تسبش ايدي من ايدك
يا نور عيني ضميـــي حسيـــــني
يا نور عيني ضميـــي حسيـــــني
معاك حقدر امشي واكمل
ولو مين جرحني حتحمل
علشان عيونك يا حبيبي
أنا اموت بجد ولا أسيبك
معاك حقدر امشي واكمل
ولو مين جرحني حتحمل
علشان عيونك يا حبيبي
ده أنا اموت بجد ولا أسيبك
يا نور عيني ضميـــي حسيـــــني
يا نور عيني اااااااااااااه حسيـــــني

"

حين انتهت الاغنية ، وقد أخذ محمد يدندن معها قال لها بعدما استشعر هدوء وسكينة قلبيهما بشقاوة :

أتعلمين شيئا.. صحيح أن المنام كان مزعجا جدا ، لكني كنت سعيد جدا به ، فقد رأيتك دون حجاب

كنت فاتنة جدا ، بشعرك الكستنائي الطويل المنسدل على ظهرك ، وملامح وجهك البريئة دون أي شي..

***

-4-

كان يوم الأربعاء التالي يوم حافل بالسعادة ، فقد دب بسارة النشاط منذ الصباح ، بعد أن قرأت منشورا يعلن أن الجامعة ستبدأ مع بداية الأسبوع المقبل ، فقررت أن تستغل عطلتها بأي شيء يسعدها ، حتى وإن لم يكن مفيدا أبدا ، أرادت فقط أن تعطي نفسها فسحة صغيرة من الجنون ، فاستيقظت وأختها منذ الصباح وقد رفعتا صوت المذياع بغرفتهما ، ثم بدأتا بارتداء أجمل فساتينهما ، وافتعال تساريح بشعرهما لا تحتاجان إلا لهواء مروحة خفيف لتفسده..

ارتدت سارة الكعب العالي وغيرت لون طلاء الشفاه عشرين مرة ، فهو كل ما تعرفه من مستحضرات التجميل ، وأخيرا جلست مساء بقميصها القصير كحلي اللون ، وبنطالها الأبيض ، وهي تضع طلاء شفاه عنابي وشعرها الكستنائي الطويل مسدول على كتفيها ، ثم أعدت فنجان قهوة لتشربه مع الغروب وتحادث محمدا الذي اتصل بها صباحا وقالت له أنها ستحادثه حالما تنتهي من حفلة فساتينها المجنونة..

اتصلت به ، فرد بعد رنتين

قالت:

-السلام عليكم

فرد:

-وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

أهلا أهلا بالمجنونة..

ضحكت سارة فأتبع :

-ما هذا الجنون الذي استلبسك منذ الصباح!

قالت وهي ترتشف القهوة بشقاوة :

-أي جنون ، لم أفعل شيئا..

فقط رقصنا قليلا وبدلنا بعض الفساتين..

قال بحدق:

-المهم ألن تريني شيئا مما ارتديت..

قالت بمرح :

-حين نكبر..

ضحك بصوت مرتفع وقال:

-ومتى نكبر ؟

قالت :

-امممم بعد خمسة شهور..

فقال بمضض :

-يبدو أننا لن نكبر ، منذ أن عرفتك والزمن عالق ، والله وكأنه أصيب بالتخمة ، مرت ثلاثون عاما كلمح البرق ، وهذا العام اليوم فيه بألف سنة..

قالت بعدم اكتراث:

-أنا سعيدة اليوم جدا جدا جدا..

فقال مبتسما :

-داااائما يارب ، لو أني أعرف أن الرقص يسعدك لهذا الحد ، لطلبت منك ذلك منذ زمن..

قالت بشقاوة:

-لن أفعل ذلك ، إلا حين أرغب أنا..

فقال بمرح:

-يا سلام !

ثم أتبع:

لكن غريب! ألم يعد عمي للبيت ، وإخوانك!

فقالت :

-بلى ، كلهم موجودون منذ البارحة..

لم تسأل ؟

قال :

-حين حادثتك كان الصوت عاليا ، أويسمحون لكن بالرقص ورفع المذياع وهم بالبيت!

فقالت :

-والدي يقول لنا دوما ، غرفتكن هي مملكتكن الخاصة ، التزمن بلباسكن الشرعي خارج المنزل ، ولباس لائق أمام إخوتكن ، فإذا دخلتن غرفتكن فلترتدين من جميل ملابسكن ماشئتن ، وارقصن وغنين ، وضعن مساحيق المكياج كلها كما شئتن ، على أن لا نراكن إلا وأنتن بلباس لائق..

لا يمانع والدي بأي شيء ، ما دمت لا أتجاوز الحدود الشرعية ، أما عن صوت المذياع فكما تعلم بيتنا يطل على واد وغرفتنا غير مكشوفة ، لذلك لا يصل الصوت لمن في البيت ولا الجيران كثيرا حين نغلق الأبواب..

فقال :

-أتدرين ، بحق والله إني لأتعلم من عمي أشياء كثيرة..

لا أذكر أن إحدى أخواتي تجرأت على رفع صوت المذياع ونحن بالمنزل ، كان والدي يكسره بالأرض ويقول أنه الشيطان..

فقالت:

-أحيانا يحاول إخوتي أن يعترضوا على بقاءنا بالغرفة لمدة طويلة ، ورفع صوت المذياع إذ لا نخفضه إلا حين تخبرنا والدتي أن الأذان يؤذن ، وحتى نصلي..

لكن والدي يقول لهم ، كما أسمح لكم بالخروج من المنزل حين تشعرون بالملل والغضب ، سأسمح لهن بالرقص والغناء وفعل كل ما يحلو لهن في غرفتهن..

فقال بتعجب :

-عجيب حقا..

بالرغم من تشدده بأمور كثيرة مثل لقائنا ، إلا أنه يتيح لكن أبسط حقوقكن..

فقالت :

-ليس تشدد ، إنما حرص وأنا لا أجد فيه ما يزعجني

فقال :

-بصراحة أنا يزعجني أني لا أراك ، خارج المنزل ، ها قد زرتكم مرتين ولم نجلس سويا ، لا يرضيني الحديث المشترك ، وخجلي منك حين أراك ، واستراقنا للنظرات والابتسامات والرسائل الخفية..

سأتصل بأهلي وأجبرهم على المجيء معي غدا ليجالسوا عمي ونجلس لبعض الوقت..

ضحكت سارة من قلبها وقالت :

مجنوون

فقال :

-والله لا أحب على قلبي من حديثه ، وكلما جلست معه يوما ، امتلأ رأسي بألف دوامة وسؤال ، وأنتظر رؤيته بفارغ الصبر لأسأله ، لكني أيضا أشتاق لك جدا ا !

قالت :

-امممم هات البشارة إذن..

قال متعجبا :

-بشارة ماذا!

فقالت :

-لدي خبر سار لك

فقال مندفعا :

-هل قبل أن نخرج سويا !!

ضحكت بشقاوة وقالت:

.ليس تماما..

لكنه قرر أن يصطحبك معنا برحلة لمزرعتنا غدا

سنخرج باكرا ، ونظل حتى المساء

فوقف محمد من فرحته ، وقال:

-تمزحين!

فقالت وهي تضحك :

-أقسم لك..

سألني عنك وعلى ما يبدو أنه قد أخبر والدتي بذلك قبل أن يخبرني لأنها كانت سعيدة أكثر مني..

فقاطعها :

-أعششقها أمك هذه

فأكملت :

-ثم قال لي أنه سيتصل عليك ويخبرك ، فقلت له أني سأفعل ذلك..

فقال :

-اووه ما هذا التطور الحمد لله يبدو أن دعواتي أستجيبت..

لكن ، مع من! وعلى أي ساعة سنتحرك!

قالت :

-فقط أنا وأمي وأختي وأسامة الصغير

فقال بشقاوة:

-أفضل..أخجل من محادثتك أمام إخوتك خصوصا الكبير..

فضحكت وقالت :

-على العكس والله دائما ما يمدح بك

فقال بسخرية:

-بالطبع لأني لا أنظر لك حتى حين يحضر..

وانفجرا ضاحكين ، ثم قال محمد :

-تخيلي أن أكون معك طوال هذا الوقت ولا يسمح لنا بالسير سويا وحدنا ، ولا أحادثك..

ضحكت..

فقال:

-والله سأطلب ذلك منه بلساني هذه المرة ، أريد محادثتك وجها لوجه..

مللت الحديث من خلف الهاتف..

فقالت بنبرة جدية:

-مللت!

فقال موضحا وهو يصر على أسنانه :

-مللت الحديث من خلف الهاتف يا ذكية..

أريد أن أرى وجهك..

فضحكت ، ثم قال:

-هاا أنظري لوجهك بالمرآة.. أريد أن أرى هذه الملامح..

احمر وجهها ، فقال :

-والآن أكثر..

قالت بلعثمة :

-والآن ماذا ؟

قال :

-حين تخجلين

فقالت بحرج :

-اصمت..

قال :

-اممم حاضر..

أخبريني ماذا سترتدين غدا؟

فقالت :

-لا أدري..

وأنت ؟

قال :

-ها أنا أرتدي حذائي لأذهب وأشتري لباسا رياضيا جديدا

فقالت:

-سأراهم عليك غدا

قال وهو يضرب أقدامه بالأرض ليعدل الحذاء بقدمه :

-ها قد أصبحت جاهزا ، المهم إياك أن تنسي نامي جيدا لتكوني بكامل نشاطك غدا..

واكتبي لي رسالة بخط يدك

وأطيليها..

أطيليها بربك!

قالت بمرح:

-سأحاول ، وأنت أيضا..

فقال :

-بالطبع سأكتب..

أنا من سيكتب..

فقالت :

-حسنا بالسلامة ، بأمان الله

فرد عليها:

-مع السلامة..

أحبك

فقالت :

-وأنا أيضا..

قال بحدق :

-وأنت أيضا ماذا ؟

فأجابت بتغابي :

-كما.. قلت

فقال:

-والذي هو..

وقعتي..لا تنسي

فقالت بصوت بالكاد يخرج:

-أ..حبك.. أحبك

***

-5-

اتصلت سارة على محمد في تمام الساعة السادسة صباحا ، ليستعد للذهاب ، وكذلك استيقظت سارة واستعدت لذلك ، وفي تمام السابعة توجه العم والد سارة وعائلته لبيت محمد ، ليصطحبوه ويكملوا طريقهم للمزرعة..

كانت سارة تجلس بجوار نافذة الباب ، اتصلت سارة عليه لينزل ، فوجدته يجلس على آخر درجات البناية ، نهض سريعا فرأته ، أغلق الهاتف وابتسم لها حين رآها تنظر نحوه ، عقد حاجبيه قليلا ممازحا إياها ، ثم ظهر للعم وعائلته فسحب ابتسامته وتظاهر بالجدية ، وألقى السلام على العائلة بالخلف ثم سلم على عمته وعمه وصعد ليجلس بجوارهما بالمقاعد الأمامية..

فبدأ العم بسؤاله عن صحته وأخباره وما أحوال عمله ، فأخبره أنه قد قبل بإحدى الشركات لكن العمل سيبدأ بداية الشهر القادم ، والذي تبقى له أسبوعان..

ثم دار بينهم حديث مطول عن الطبخات واختلاف مكوناتها وطريقة طهوها بين بلادهم..

جد سارة كان يعمل طاهيا في أحد المطاعم الإنكليزية قديما ، وذلك أسهم في جعل والد سارة رجل إتيكيت ، ومتذوقا ، وطاهيا محترفا ، حيث أن بإمكانه تذوق الطعم وخلط النكهات ذهنيا والشعور بطعمتها دون حضورها فعليا..

كان الحديث شيقا وفيه نوع من المرح طوال الطريق ، حيث بدأت تتوسع الدائرة بحديث الخالة أم سارة ، ولما أراد والد سارة إشراكها بذلك قال لمحمد بسخرية : أما بالنسبة لسارة فهي طاهية محترفة من الطراز الأول ، بساعة واحدة يمكنها أن تعد لك شطيرة البطاطا المجمدة محروقة ومبهرة بالعصفر والكمون..

لشدة لذتها لا يمكن لأحد أن يعد نكهة مشابهة ، أليس كذلك يا سارة..

فضحك الجميع عليها فقالت : أستطيع إعداد الشطائر كلها ، والأندومي والمعكرونة بأنواعها ، لكني لا أجيد صنع البشاميل..

فضحك العم: إذن قولي المعكرونة المسلوقة ، والحمراء وأشك أنك قد تستطعين طهوها دون أن تحدثي انفجارا..

ضحك محمد وقال: مصيبة ، هذا يعني أننا لن نأكل قرنا أو شبه قرن..

وهكذا مرت الساعتان ونصف من حديث لآخر ، بين الرياضة والصحة والسيارات ، حتى وصلوا باب المزرعة فقال العم لابنه الصغير الذي يبلغ عشرة أعوام : انزل وافتح الباب..

فنزل محمد معه وفتح القفل المربوط بالسلاسل ووقف خارج المزرعة حتى ركن العم السيارة ، فنزلت سارة وهي ترتدي جلبابا مصنوعا من الجينز وشالا أحمر وحذاء رياضيا أحمر ، أما محمد فقد كان يرتدي قميصا ملونا بألوان زاهية ، وبنطال جينز أزرق فاتح وحذاء رياضي أبيض ، كان قد اشتراهم ليلة أمس..

كان نهارا مميزا جدا لهما ، يسترقا النظر لبعضهما البعض كلما تمكنوا من ذلك ، دون أن يلاحظ عليهم أحد..

كانت المزرعة كبيرة يتوسطها بيت من طابقين وسطح فقط ، ويحرسها عدد من الكلاب..

نزلت سارة فوقف محمد من الجهة التي نزلت منها ، وكانت تسحب بالشنط وإخوتها ليحملوها إلى الداخل ، فاستأذنهم محمد ، وحمل الحقائب كلها دفعة واحدة ، فبهر أسامة أخوها الصغير وقال: ما شاء الله لديك عضلات..

ضحك محمد ، وشدت سارة أخيها ليصمت ، فنظر محمد إليها بطرف عينه وضحك ، حملهم للداخل حيث كان العم والخالة قد سبقاه وفتحا الأبواب..

قالت له الخالة : من أول الرحلة جعلوك تحمل الحقائب

فضحك العم والد سارة وقال : عليه أن يتحمل

ضحك محمد وقال بعد أن وضعهم أرضا : لا بأس بذلك

خرج محمد ، فوجد كلبا ضخما بوجهه وبدأ بالعواء عليه ، فجفل وعاد سريعا للوراء ، فتقدمه العم والد سارة وقال : لا تقل إنك تخاف من الكلاب ، ورمى للكلب بعض اللحوم ليبتعد عنه

فقال محمد : ليس خوفا ، لكني لا أحبه ، فهو حيوان نجس

نظر محمد لسارة فوجد الكلاب تمر من حولها دون أن تأبه ، قال العم : سارة تحب ذاك الكلب ، كلما أتت لهنا بدأت بالركض واللعب معه ، لكنها أيضا لا تمسه إلا بخشبة أو قفازين

جلسا تحت العريش ، وقال للخالة : أعدي لنا الفطور فقد جعنا بالطريق..

وضحكا..

نادت الخالة أم سارة أمل وسارة ليعملا معها ، فغسلت سارة بعض الخضار أخذتهم وخرجت ، هاربة من المطبخ حاملة معها بكيس صغير بعض اللحوم التي كانت قد خبأتها له ، وذهبت للجلوس بالخارج ، ورؤية ماكس الكلب الذي تحبه لم تلتفت سارة لوجود العم ومحمد

فأمسكت بالعصا وقفزت فوق السور ثم وقفت تلاعب الكلب ليحاول الوقوف ، ثم ترمي له قطعة تلو الأخرى..
كان محمد يجلس مع عمه وعينه تراقبها من بعيد ، ويبتسم سعيدا بشقاوتها وروحها الطفولية ، وأسامة يحاول الصعود ، فكلما أوشك على النجاح قربت منه العصا المتسخة باللحوم فيبتعد عن الصور مجددا..
نادت الخالة سارة لتتناول الفطور فنزلت السور قفزا ، ثم نفضت جلبابها ونظرت لنفسها على زجاج الحافلة لترى إن كان مظهرها لائقا أم لا ثم نظرت نحوهم فرأت محمد يختلس النظر إليها ويبتسم ، صدمت به فابتسمت خجلا ودخلت للداخل سريعا وقالت : سأغسل يدي ثم أعود..
طال الوقت ومحمد ينتظر أن يسمح له العم بالجلوس مع سارة ، لكنه كلما ابتعد محمد قليلا ناداه مرة ثانية..
كانت سارة تضع قطع اللحمة بالأسياخ ليشووها ، فأراد محمد مساعدتها ، فلحقه العم وقال له :
اذهب أنت وانفث الهواء على النار كي تشتعل أنا سأساعدها بشك اللحمة ، ذهب محمد منساقا لأوامر عمه ، وكلما أدار وجهه نظرا لبعضهما البعض وانفجرا ضحكا على لحاق عمه به ، أينما ذهب..
وحين جلسوا على الغداء جلست سارة وبجوارها والدتها ، والعم بجوار أختها الصغيرة ، فقال العم لمحمد أن يجالسه على الجهة الأخرى ، فاحتج محمد هذه المرة وقال: لا والله ، سأجلس هنا لأكون قريبا من النار ، لأتناول عنها الأسياخ..
كان يقصد المقعد الذي بجوار سارة ، فضحك الجميع عليه وسارة كاد يغمى عليها ضحكا ، فقال العم ، وقد نهض اجلس أنت هنا وأنا سأجلس مكانك..
فقال محمد بتوسل : يا عم سأجلس هنا بجوارها هذه خطيبتي.. والله خطيبتي
أراد العم أن يدعي الجدية لكنه ما استطاع كتم ضحكه فقال وهو يجلس : هذه المرة فقط..
شبع محمد من فرط السعادة ، كاد لشدة فرحه يرقص ويغني ، لكنه جلس بجوارها وضرب قدم سارة وهو يتمتم : وأخيرا..
كانت سارة تحاول كتم ضحكتها لكن آثارها واضحة جلية على وجهها ووجوه جميع الحاضرين
وفي وسط الطعام أراد محمد أن يغيظ عمه قليلا ، فمد يده لإطعام سارة ، ففر الجميع أفواههم لجرأته ، وسارة أولهم ، فنظرت سارة له بتعجب وذهول ، لمحه

العم فقال : محممد!

قال محمد وهو يضحك :

ماذا يا عم سأطعمها لقمة واحدة فقط..

فقال له : حركة أخرى وسأربطك..

فقال : يا عم لقمة واحدة لأجل خاطرها

فضحك الجميع وقالت الخالة : خاطرها أم خاطرك

قال : نحن واحد يا خالتي هداك الله..

ضحك الجميع وتجاهل محمد ذلك مؤقتا حتى شبع العم ووقف ليغسل يديه ، فمد محمد يده مرة أخرى ، وأطعمها فلما علت أصوات ضحكاتهم عرف العم ذلك وقال له : مصر على ذلك..

فنهض محمد سريعا كالبريء وقال : كلها لقمة واحدة..

وغسل يديه ، بجوار عمه ثم تعاونت عائلة سارة ليوضبوا الأطباق بينما أخذ العم محمد وأسامة ليريه الأرانب والدجاج الذي يقوم بتربيتهم بالتسوية ثم صعد لسطح البيت حيث يوجد عدد هائل من الأرانب..

حينها صعدت الخالة أم سارة معها الشاي لترى الأرانب أيضا ، فطلب محمد منها أن تقول للعم أن يدعهما يمشيان قليلا بالمزرعة ، فقد أوشكت الشمس على الغروب..

فأقنعت الخالة والد سارة فنادى على محمد الذي كان يقف بجوار أخيها الصغير ويحادثه ، فقال له : اذهب لآخر المزرعة من الجهة اليمنى ستجد أكواما من الحشيش ، أحضر بعضها وتعال..

خذ أسامة معك إن أردت ، فحك محمد رأسه من الأعلى وقال وهو يبتسم : لا ، أريد أخت أسامة معي..

فضحكت الخالة ووكزته فنظر إليها وقالت : دعها تذهب معه..

ثم نظرت لمحمد وقالت : خذها معك لكن لا تتأخرا..

فقال العم لها : تتفقان علي إذن

فابتسم محمد وقال قبل أن يرفض العم : عن إذنكما..

***

-6-

وقف بالخارج واتصل عليها لتخرج ، فتحت الخط فقال سريعا: تعالي للخارج بسرعة أنا بانتظارك

فقالت : لكن..

قال: تعالي سريعا ، لقد طلبت إذنه ، هيا قبل أن يغير رأيه..

فتركت الجلي لأختها وقالت لها : سأعمل عنك لاحقا..

حملت حقيبتها ونزلت له..

كانت عيناه ملونتين للمرة الأولى ، فقد كانتا مضيئتين من سعادته بها ، وقد صرح له للمرة الأولى بحياته أن يشاركها بالمشي ، وأن يتحدث معها بالهواء الطلق..

قال لها وهو يمشي ويضع يديه بجيبي بنطاله : لا أصدق..

وأخيرا نمشي سويا حقيقة لا خيالا..

قالت بمرح : لكن اليوم كان جميلا جدا ، أليس كذلك!

فنظر لعينيها المملوءتين بالشغف وابتسم ، ثم أنزل عينيه وقال: يوم أقضيه معك كيف سيكون ؟

فقالت مغيرة مجرى الحديث ، على فمها ابتسامة وعيناها تقيمان مهرجانا من السعادة : كيف أقنعته أن يسمح لنا بالمشي سويا..

فقال ممازحا إياها: لا شيء قلت له أني أحبك..

كانت تحدق به حين عزم القول ، فلما قالها أخذت عينيها ترمش بسرعة وكأن غبار الكلمة قد دخل بقلب عينيها ، بلعت ريقها وقالت بلعثمة: لا تمزح

فقال : دعك من والدك الآن ، والله حرام عليك ما تفعلينه بي

فنظرت إليه وتراجعت ابتسامتها : لماذا ؟

فقال :ما كل هذا الجمال! كيف لي أن أحتمل رؤيتك حقيقة أمامي وأنت تتحدثين وتتصرفين بعفوية ، وفوق هذا ترتدين هذا اللون ، لقد سلبتني عقلي بحق ، لا يمكن أن أصدق أنني كنت معك ، وأنت بهذا الجمال وأنني مازلت قادرا على العيش..

فقط بعد رؤيتك الآن والله لست أجزع لو مت فقد وصلت جل مناي ومبتغاي من الدنيا..

كانت تمسك بيدها ذراعها الأخرى ، وتحاول أن تقاوم خجلها بأي شكل ، تنظر بالأرض وترتب حجابها..

فقال لها: لا تخجلي مني ، أنا لست رجلا غريبا ، شهور وستصبحين زوجتي على سنة الله ورسوله ، لا يمكن أن تظلي خجولة هكذا ، تخجلين من كل شيء ، وتتهربين مني كلما غازلتك أو قلت لك كلاما جميلا!

صمتت وعيناها تتراقص بين النظر إليه وإلى الأرض بخجل وتعدل حجابها بالدقيقة ألف مرة..

قال لها مشجعا وهو يبتسم: انظري لوجهك كيف يتعلثم كلما حادثتك..

ألم تقولي لي أنك قوية ، وأنك ستضربيني إن أزعجتك ، ألم تكوني الشقية والمتحدثة الأولى في جامعتك ، ما به الكلام يتشبث بفمك خشية أن يسقط أمامي!!

ضحكت ، ثم حاولت كبت ضحكتها إلا أنها ما استطاعت ، غطت وجهها بكلتا يديها..

وهو يراقبها ويضحك على لعثمة ضحكتها البريئة..

ثم رفعت وجهها وبدأت تزم فاهها وتأخذ شهيقا وزفيرا ، ثم نظرت إليه وهي تحاول ضبط الكلمات بفمها

عدلت حجابها وقالت : احم احم هههه

اسمع سأشرح الأمر لك ، لكن لا تنظر إلي وأنا أتكلم ، وإلا سأسكت ولن أكمل أبدا

ضحك ، كتف يديه وأدار وجهه عنها ثم قال : حاااضر ها قد أدرت وجهي عنك..

أسمعك.!.

تنحنحت ثم قالت : الآن أنا لا أخجل..

ضحك وبدأ يهز كتفيه باستهزاء

فقالت : لن أكمل

قال : هاا..

ووضع يده على فمه

ضحكت ثم أتبعت : اسمعني ، أنا لا أخجل ولا أتلعثم إن حادثت أي رجل غريب ، ولكن منك أنت أفعل

أدار وجهه لها مباشرة وقال : كيف!!

مجنونة أنت أليس كذلك ، تخجلين من زوجك ولا تخجلين من الغرباء!!

فانفجرت ضاحكة وقالت : أدر وجهك لأكمل لك..

فأدار وجهه وقال: لنرى مالذي ستهذي به هذه المرة ، أنت ستفقديني عقلي بلاااا شك

فقالت بروية : الآن أنا إن حادثت غريبا لألف ساعة ، لا أخجل منه أبدا ، لأنه بالطبع لن يجرؤ على مغازلتي ، وسيكون الحديث بيننا في مساق علمي أو تعليمي بحت ، وإن عاكسني أحدهم في الطريق أعرف جيدا كيف أسكته ، فكيف سأخجل منهم!

أما حضرتك فأنت تقف هنا وأمام أهلي وإخوتي وتغازلني أو تقف بجواري ، أو تقول لي صباحك ورد يا قلبي ، كيف تربد مني أن أتصرف مثلا!

وأنت أول رجل لا يحق لي أن أسكته حين يتغزل بي أو يلاطفني ، ليس هذا وحسب ، بل إنك تأتي لزيارتي خصيصا لتفعل ذلك !!

قال: هل أنظر الآن!

رفعت حاجبيها وقالت : لكن.. إياك أن تنطق بحرف واحد

نظر إليها وهو يحاول منع ابتسامته وحروفه..

لم تنظر له ، لكن وجهها احمر وعادت للعبث بحجابها

ظل يتمعن بملامحها بصمت ، رفعت نظرها إليه

فاشتعل وجهها حمرة وقالت : اسكت..

فانفجر ضاحكا وقال : وهل قلت شيئا!!

تحول وجهها بلحظة للون الأحمر القاتم ويبدو أن حرارتها قد تعدت الأربعين ، فتحولت ملامحها من الفرح إلى الضيق فجأة..

فقال لها : ليت بإمكاني ضمك في هذه اللحظة!

وضعت يدها على فمها ثم بدأت عينيها بذرف الدموع وهي تتنفس بإضطراب..

أمسك يدها وشدها ثم قال : حتى وإن لم أبك ، فاضطراب قلبي لا يقل عن اضطرابك..

البكاء لا يكون حزنا وفرحا فقط ، فبعض البكاء يكون عشقا وخجلا..

وصلا للشجرة فقال محمد لسارة : هل أعجبك ذلك ؟

قالت : ماذا ؟

قال : البارحة شريتهم ، والآن سأحمل عليهم هذه الحشائش من أجل أرانب عمي

فضحكت سارة عليه وقالت : لم يجبرك أحد على التقدم إلي..

قالتها ومشت أمامه بلا اكتراث فقال : ارجعي هنا وإلا سأعلمك ما معنى السرعة الحقيقية

نظرت إليه وقالت بتحد : لا يمكنك أن تسبقني مهما حاولت..

وضع ربطة العشب جانبا ونفض يديه وأشار لسياج المزرعة وقال : لنرى من يصل لهناك أسرع..
فقالت سارة بثقة : موافقة
كان محمد سريعا جدا ويفوز دوما بمنافسات السباق في المدرسة والجامعة والأصدقاء ، لكن بالغالب يجري على أرض منبسطة أما سارة فكانت معتادة على القفز والركض وتسلق الجبال وكلاهما ند حقيقي للآخر..
قالت سارة: انتظر دقيقة
رفعت سارة جلبابها للركبة وعقدته حول خاصرتها ، فبدأ محمد بالتلفت من حوله ، فقالت : لو أنك لست هنا لخلعت الحجاب أيضا ، المنطقة هنا خلاء لا أحد يمر من هنا
ظل مرتابا لكنه تظاهر بأن الأمر عادي ، عدا للثلاثة ثم انطلقا سريعا ، تتجاوزه سارة لحظة ويتجاوزها الأخرى ، كان الركض على أرض ترابية محفرة ومحروثة أمر جديد على محمد لكنه ومع ذلك كان قادرا على الفوز ، رغم سرعة سارة..
لكنه قبل أن يصل تباطأ قليلا وجعل الفوز من نصيبها ، ليرى ابتسامتها الشقية ، كما عز عليه تعبها ومجهودها وهي تحاول الفوز..
فلما سبقته بدأت بالسخرية منه:
لقد فزت عليك.. احم احم ، لتتعلم أن لا تتحداني مرة أخرى..
ومحمد غارق بالضحك عليها قال: لا تغتري بنفسك ، لقد كنت أزحف لأدعك تفوزين..
فقالت بغرور وسخرية : نعم نعم ، أصدقك..
لقد رأيتك وأنت بالكاد تتوازن على خطوط الزراعة ، لكنك لن تعترف طبعا ، الهزيمة أمر صعب..
وكلما ازادادت غرورا ازداد محمد سعادة بها وازداد ضحكه عمقا داخله..
قال لها : حسنا أنزلي الجلباب الآن ثم أكملي حديثك
أنزلت جلبابها و مشت بجواره ، ثم قالت له : كنت تظن أنني أكذب حين أقول لك أني أستطيع القفز من ارتفاع طابق للأرض ، وأن ضربتي قوية حقا ، وأني سريعة جدا
هذا أول درس لك كي لا تستهين بي..
قال لها : حسنا هيا اضربيني ، ألم تقسمي أن تفعلي ذلك حين تريني..
قالت بلعثمة: ن..نعم ، لكن ليس الآن ، وهي ترفع حاجبيها بشقاوة

قال : لم ؟
قالت بنبرة عطوفة : حرام ، أنت متعب الآن إن ضربتك ستموت هنا
فضرب رأسه بيده وقال : يا إلهي لست معقولة
ضحكت ثم كتمت ضحكتها سريعا وقالت بجدية : لا تضحك لا أمازحك..
فتوقف ونظر إليها وقال بتحد : سأضربك أنا..
قالت : إن كنت محمد بحق جرب وافعلها..
فضحك ومشى قائلا : لا أستفز بعباراتك هذه ، لن أضرب امرأة مهما حدث ولو كان الأمر مزحة..
فقالت وهي ترتب حجابها على ياقة جلبابها : أحرجتني بعبارتك ، حسنا لن أضربك إذن
فنظر إليها وهو مغمض نصف عينه وقال بسخرية : يا حنونة أنت..
ضحكت وقالت: احم احم..
اقتربا من شجرة اللوز ، فقالت سارة : كنت دوما أتسلق هذه الشجرة حتى آخرها ، وأختبئ منهم حين أرغب بقراءة كتاب..
الجو بالأعلى رائع..
ضحك محمد واقترب منها حتى صار بجوار الجذع مباشرة وقال : أين تحديدا ، فاقتربت منه وأشارت له بيدها وقالت هنا ، حتى أنني كثيرا ما أكتب حرفي عليها بالأعلى..
قفز محمد وبثوان معدودة كان قد تسلق وصولا للجذع الضخم الذي كانت تجلس عليه ، أراد أن يترك لها ذكرى منه هنا ، ولكنه نسي أن يحضر شيئا حادا ، أمسك بمفتاح بيته وكتب به "أحبك"
ثم نزل سريعا ، فقالت سارة بإعجاب: أنا دائما أخدش وأنا أتسلقها ، ماشاء الله عليك سريع جدا..
فضحك محمد وقال لها : عضلات ، احم احم
فقالت : كلمتي هذه لا تقلها
فضحك وقال : والله لم أقلها يوما قبلك ، أنا سريع العدوى بك..
ثم أتبع : تحبين القراءة كثيرا أنت!
عرفت ذلك من ذاك الكتاب الذي كنت تحملينه بوقت الفحص الطبي..
فقالت: نعم ، جدا جدا..
وأنت ، أتحبها ؟

قال : بالتأكيد ، ولا أذكر أني تمكنت يوما من مرافقة من لا يقرؤون لأكثر من ساعة ، تضجرني الأحاديث التي تخلو من الفلسفة والدين والأدب..
جلست على صخرة تقع تحت ظل الشجرة وقالت : وهل تقرأ الروايات!!
قال : العالمية منها فقط..
الروايات التي تهمني معرفة سير أبطالها والرموز الدينية والعبادات ، أما الرومنسي منها فلا شأن لي بها ، فلست أهتم بهذا الجانب جدا..
وأنت ما النوع الذي تقرئين به ؟
فقالت : أنا أهتم كثيرا بالكتب الأدبية خصوصا القديم منها ، أحب الشعر الجاهلي والحديث والمعاصر والمعلقات والموشحات والمقامات أكثر من الروايات ، ولكني أقرأ الروايات التي تحمل أفكارا فلسفية أو أدبا مميزا بالوصف وإبداعا بالتراكيب اللغوية ، لكني لا أقتنع أبدا بأن تكون الرواية باللغة العامية ، مهما كان جمال الرواية والوصف وعمق الحدث ، إني أستبدل المسلسلات التلفزيونية بالروايات لأعتاد على لغتي الأم وأعقلها..
فقاطعها قائلا : لست أهتم كثيرا بهذا النوع لكن لا يمكن للجميع فهم اللغة العربية ، لذلك تكتب بعض الروايات بالصورة العامية ، هذا تبرير أحد الكتاب حين سئل لم يفعل ذلك!
فقالت : لا أدري ، لكن بإمكانهم استخدام كلمات فصحى بسيطة ، بحيث تفهم وتساعد قارئها على الاستفادة..
على الأقل هذا رأيي..
فقال : تختلف الآراء حول الغايات والأذواق ولكل امرئ ميوله
نظر للشجرة وقال : ما أجمل ظلها حقا..
أوراق الشجر كانت تتساقط والخريف كان على الأبواب ، الحقل مصفر ، والهواء بارد نسبيا..
قالت وهي تنظر على امتداد بصرها : المكان كله جميل هنا..
فقال : لكن لو كان به أهل وجيران وأصدقاء ، لا أحب العيش وحيدا الدنيا سريعة وموحشة
فقالت وهي تبتسم : أما أنا ، فأتمنى الصعود على قمة جبل وحدي دون أحد..
كان جالسا نصف جلسة ويعبث بعرق نزعه من أعلى الشجرة بالرمل ، رفع نظره نحوها ثم أعاد العبث بالرمل وقال : ومالفائدة من العيش إن لم تتمتعي بما سخر الله لك على الأرض !

سمعت هذا الكلام من أشخاص كثر ، زاهدين بالدنيا ، لكني أراك مقبلة على الحياة بنهم

نظر إليها وهو ممسك بالعود وأكمل : تقرئين ، وتكتبين ، وتجيدين الرسم كما أعتقد ، شغوفة بالعلم والتعلم ثم ضحك وقال وترقصين..

فقالت مقاطعة إياه : وأقفز

لم يعقب وأكمل : أليس من التناقض بمكان أن تقول فتاة مثلك أنها ترغب بالعيش وحدها

وقفت ونفضت التراب عنها ، إذ أوشكت الشمس على الغروب وقالت : دعنا نرجع..

ثم أكملت بعد أن تحركا : سأصدقك القول ، إن كل ما أفعله ، هي أمور تجعلني أتمكن من البقاء فقط..

إني أجاهد نفسي كي أستمتع لآخر رمق ، طبعا ضمن حدودي المشروعة ، لكن لا رغبة لدي بالوصول لشيء..

لست أطمح بالمال ، ولا أراه سوى وسيلة للوصول لغاية ما فإن أردت التسجيل في مساق ما واحتجت لدورة ما احتجت المال لأجلها ، أما المال بحد ذاته لا يعني لي شيئا..

لست أطمح لأن أكون جميلة ، ولم أفكر يوما بتجربة مساحيق المكياج أبدا ، أشعر أن أي فكرة بهرجة تجعلني أشابه الناس لحد ما تخنقني ، لا أرغب بأن أكون الأولى بجامعتي فإن علمت إجابة ساعدت من ترغب بذلك للوصول..

حمل الأعشاب وقال : وما الذي أوصلك لمرحلة الانطفاء هذه ؟

قالت : لا أدري بحق..

إني أحيا وكأني رجل عجوز يشعل سيجارة بجوار قبره الذي حفره بيده ، يبتسم ويقول ماذا بعد؟

عقد حاجبيه وقال : ألجلوسك الطويل مع والدك أثر بذلك!

قالت: ربما.. وربما لا ، والله لست أدري

سكتت لبرهة ثم قالت : أأخبرك بسر..

فقال : بالتأكيد

قالت : والله إني لهذه اللحظة لا أصدق أني قبلت بك ، ليس لأنك لست رجلا أو لأني أجد بك نقصا ما ، إنما لا أشعر أنني سأتمكن من إسعادك وأنت تسعى للوصول لأشياء كثيرة ، وتحب الحياة..

أخشى أن أنقل إليك عدواي!!

قال مبتسما : وأنا سأخبرك بسر أهم
هذه التفاصيل العجيبة تثير داخلي نبضات روحانية ، تجعلني أكاد أقسم أني أعيش بشعور لم يجربه أحد من قبلي قط..
أنت لا تعين ما معنى أن يعشق الزاهد بالدنيا شخصا ما ، ويتقبل وجوده في حياته ، ليس هذا وحسب ، بل أيضا يقول له كلاما جميلا ويشتاق إليه..
الكلمات منك عالم آخر أبحر به دونما تفكير ، إن عقلي منذ أن عشقتك مصاب بالتخمة لا يفكر ولا يتزحزح
صحيح أن نبضاتنا لها معنى ، لكن لتلك النبضة التي تنبض بعد فقدان الأمل معنى آخر ونكهة أخرى ، فكل نبضة تعني حياة..
وهكذا تماما كلماتك ، كل كلمة عشق لكثرة زخمها تعني لي وعد بحياة مليئة بالحب ، ومليئة بك..
اقتربا من المبنى ، فصمت محمد قليلا وقال لها ابقي هنا سأرسل العشب مع أسامة لوالدك وأعود
ذهب وتركها تفكر : سبحان الله كيف تتغير كل مبادئنا ومعتقداتنا بلحظة ، وكيف يجمع الله الشتيتين بشعور واحد ونبضة واحدة ، لتصبح الدنيا بعينهم تختصر باسم شخص واحد ، وكل دقة من قلبهم تدق بشعور واحد ، واحد فقط..
كانت جالسة على الأرض أمام روابي عدة لأراض ومزارع مجاورة ، والغروب كان يملأ السماء بلون وردي جميل..
أطربها المنظر فأخذت تغني بصوتها الجميل:
"يا مِرسال المراسيل عالضيعة القريبي
خدلي بدربك هالمنديل وأعطيه لحبيبي
عالداير طرزتو شوي إيدي والأسوارة
حيكتلو أسمو عليه بخيطان السنارة
بخيطان الزرق وحمر وغناني الصبيان السمر
كتبتلو قصة عمر بدموعي الكتيبي
خدلي بدربك هالمنديل وأعطيه لحبيبي
بيتو بآخر البيوت قدامو عليي
بتوصل عالبيت وبتفوت وبتسلم الهديي
يا مِرسال المراسيل عالضيعة القريبي
يا مِرسال المراسيل عالضيعة القريبي

خدلي بدربك هالمنديل وأعطيه لحبيبي"

كان محمد عائدا لها ، ولما سمعها توقف منتظرا إياها حتى تنهيها ، فلما أنهتها قال : يااااه ، ما أجمل صوتك!

جلس على بعد شخصين منها مطلا على ذات الروابي ومسرحا إحدى قدميه بينما يرفع الأخرى ويتكئ بيده عليها

فقالت سارة بخجل : ليس جميلا

فقال : لا أجاملك..

ما أرقك يا سارة بحق ، وتقولين لي أنك تخشين علي بأن لا تسعديني..

والله لا تسلك السعادة دربا أنت لست فيه..

زمت فاهها واحمر وجهها فقالت : احمم احم

ضحك وقال : كلمة السر هذه ، كلما قلت لك شيئا أخجلك تقولين احم احم

فضحكت من قلبها ثم لملمت ضحكتها وقالت : عليك أن تحفظها ، كلما شعرت أني لا أعرف بم أرد أقولها..

فقال مقلدا إياها وهو يضحك : أهلا آنسة احم احم..

***

-7-

"احترت فيما أكتب لك ، لكن على ما يبدو أنك تحبين الاختصار كثيرا ، لذلك سأختصر الكلام وأخبرك..

أن بحر أفكار يجرفني معه ، ويغرقني بحق ، وأني سعيد جدا بهذا الغرق ، فدعي أمواجك تقتص لعقلي المركون جانبا منذ قرون ، واجتاحيني بكل ما فيك.

محمدك"

كانت هذه كلمات رسالة محمد لسارة ، التي قرأتها حالما بدلت ملابسها وجلست على سريرها لتستعد للنوم ، إذ اتفقا ألا يقرأا ما كتبه كل منهما للآخر إلا وهو جالس فوق سريره..

كانت رسالة محمد مكتظة بالمشاعر التي لم تكتب ، فمجرد انسياقه لرغبتها بالاختصار كان وحده إنجازا عظيما لسارة ولقد ترك ذلك داخلها شعورا جميلا وصدى جديدا يحفزها ألا تتغير أبدا لأي سبب كان ، فلربما ساقه الله لها لاختلافها فلو تحولت لفتاة عادية لتغيرت الأحداث وترتيباتها ، كانت كلمات محمد دعوة معلنة لتشاركه بأفكارها وتسمعه سبب اختلاف نبضها وكأنه قد كتبها بعد رسالتها التي أرسلتها له ، مسهبة بالشرح لأول مرة ، وذلك أيضا وفقا لرغبته بإطالة الرسالة فقد كتبت له:

"طلبت مني أن أكتب لك رسالة ورقية طويلة ، وأن أضع عليها شيئا من عطري ، ثم أقدمها لك..

فتساءلت عن السبب الذي دفعك لأن تطلب أمرا كهذا..

ربما قد رأيت ذلك في أحد المشاهد الدرامية ، أو أنك أحببت أن تكون الورقة توثيقا ملموسا ذا صبغة عريقة ، لتشعر أننا منغمسون بحق ، بزمن الحب الصادق ، زمن الأوراق الرملية ، والرسائل الطويلة..

ثم وبعد جهد عقلي عظيم أقنعت نفسي بأن الأمر صعب بعض الشيء ، أن تأتني بشيء جديد لم يفعله أحد من قبل ، فحتى أنا ، أجدني أنساق للرد عليك بذات الطريقة التقليدية السائدة ، لإيماني بأنها على الأقل تظل أكثر قبولا من الرسائل الفيسبوكية والإلكترونية على أية حال..

ثم فكرت بم علي أن أكتبه لك!

أأكتب رسالة عشق..

لم أقتنع ، فمن قبلنا قد كتبوا رسائل عشق بدمائهم ، ما هي السعادة التي ستجلبها كلمات عشقي لك ، وبكل سهولة سأجدني بعد حرب ألف شعور لا أكتب شيئا مما

كتب قبلي ، فأمزق نصي وأفتح كتالوج العشاق وأنتقي منهن قصيدة بليغة الوثف وأهديها لك..
لذلك قررت أن أكتب لك عن زاوية خفية داخلي ، أخفيها جيدا ولم أطلع عليها أحدا ، صحيح أني لن أكتب أني....
لكني سآخذك معي بنزهة لذاك القلب ، فإن فهمته ، ستظل متربعا فيه لأقصى حد ، وستدرك حينها لما كتبتها بأربع نقاط لك..
أول ما سأبدأ به قولي ونحن على أعتاب زاويتي هو أنني أهوى الغرابة أكثر من أي شيء ، وأن كل عجيب وغريب يستهويني بشدة ، فسم بسم الله واستعذ مني بذات الوقت..
كلمة " أحبك " لا تقلها لي أبدا
دعني أشتاق لها ، فإن قلتها ذبت وانهرت..
حين تسمع ترددها وصداها يملؤك بحق ، لا تقلها واكتمها أكثر وأكثر ، حتى إذ كاد صدرك ينشق ، فقلها لأعبر من دنياي لك..
لكن علمني في وجودك العشق بحق ، فأنا امرأة تهوى الغرام بجنون كل من سبق ، وحداثة قرننا الحالي..
غني بصوتك ولو كان قبيحا لتشرح لي شيئا ، أكتب رسالة بحروف يديك وإياك أن ترسل لي رسالة جاهزة في أي وقت ، ومهما بلغنا من العمر ، فأنا أكره المشاعر المقولبة بقوالب جاهزة ، ارسمني بريشة من ماء ، أبقني لساعات أمامك وارسمني بخربشات واهية ، سأقبل لوحة ضيعت كل ملامحي بها وتذكرت فيها شامتي التي بنصف الخد..
اقرأ لي حكاية عن الحب ، وحين تنتهي دعني أكتشف أنه قد كان مجرد كتاب عن الطبخ..
فاجئني بقطة ، بلوحة ، بصرة من اللوز المدخن ، بعلبة من الكيوي ، بقبعة لرعاة البقر ، واجبرني أن أفعل جنونا معك ما لم أفعله من قبل ذات يوم..
فإن الجنون آسر محكم لقبضته على هذا القلب البليد
وحده الجنون من قد يستطيع إذابة قوالب الجليد..
فإن أردت أن تكون داخلي بصدق ، دعنا نعقد اتفاقا ، أن لا نعيش كما يعيش من حولنا ، أن لا تعشقني كأعظم عاشق على هذه الأرض ، إنما أن نكتب بعشقنا أسطورة لم يأت بها أحد من قبل بكل بساطة ودون تكلف ، فعدة الجنون امرأة خيال ورجل عاشق بحق..

سارة"

لم يكن من محمد بعد قراءته لما كتبته سارة إلا أن يتصل بها ، سارة المجنونة تتحدث مع أكثر الأشخاص التزاما ورتابة ، وتحلل كل شيء يقع أمامها ، ومحمد عاشق غارق بها وبتفاصيلها مما جعل الأمر يبدو كعدوى تنتقل بكل سهولة ، الناقل والمنقول له يتقصدان الفايروس ويعملان على تطويره وتحصينه بحيث لا يشفيان منه أبدا..

-ما هذا يا سارة!

-ماذا ؟

-سارة..

بصدق والله لست أكذب ، بت أشعر أنني لا أحسن الاشتياق لك ، أني مشغول وأحادثك طوال الوقت بغياب ذهني ووجوده ، لا تتصورين لي بالحلم إنما أشعر بأمور غريبة..

سكتت سارة ولم تنطق ، فأتبع :

أنت لا تدركين شيئا مما يحدث هنا ، صحيح أنني مقتنع جدا بكل شيء أفعله ، وأني دوما كنت أنتقي مما حولي انتقاء ، وأني أشعر بثبات وتوازن لا يختلان بسهولة..

إنما ورب السموات والأرض وخالقنا ماعدت أستوعب شيئا مما أنا فيه ، طريقتك بالتفكير عجيبة ، أنت لا تمررين حرفا ولا حدثا ولا كلمة إلا وتقومين بتفسيرها وتحليلها وإخضاعها لعقلك ، بالفعل تطلبين أن لا أقول أحبك ، بينما تطلب النساء قولها ، وأن لا أهديك وردة بل قبعة لرعاة البقر ، ولوحة ، أن أرسمك ولو كنت لا أجيد إمساك ريشة ، وأن أكتب لك بقلمي في كل مناسبة شيئا ، إنك تقيمين انقلابا كونيا لي..

أشعر..

أخذ نفسا عميقا وأتبع :

أشعر وكأني معلق من يداي أتأرجح بالهواء قبل حديثك ، حتى تتحدثين فأبدأ بالغرق ببطء شديد ببحر أهوج أمواجه متلاطمة من الداخل ، فيصيبني ارتخاء عظيييم لشدة برودته ، تيارات حملت أفكارا صاعدة من عمق بحرك لي وتيارات حملت أفكارا هابطة من عمقي لك ، حتى إذا ما انتفض جسدي وارتعشت أطرافي معلنة استسلامي أنهيت الحديث بكل رفق ورفعتني ببطء ثم رددت علي قميص عقلي القديم ببعض الكلمات الطبيعية ، دعاء ، أو حديث أعرفه ، قد نجا من

فلاترك ، فأتزن لبرهة وتدب الحياة في جسدي ثم ترحلين ، فأغرق أنا بغيبوبة التفكير العميق بقولك..
قالت سارة بصوت أشبه بالهمس :
-أعتذر يا محمد..
غارق أنت بنمطيتك وغارقة أنا بفوضاي..
أترانا نتزن يوما!
دعنا لا نتغير الاثنان فقد وجد كل واحد منا ما يريد بالآخر ، دعنا نظل راسخين وثابتين كشجرتين عتيقتين إنما تتشابك أغصاننا فيعانق فكر أحدنا الآخر..
قال لي والدي ذات مرة حين اختلف مع والدتي :
أكبر خطأ يا بنيتي أن يبدأ المرء بعد الارتباط بمحاولات تغيير الطرف الآخر ليشابهه ، فقد يتمكن أحدهما من تغيير الآخر ظاهريا ، لكن ما سينتج عن ذلك سيكون أسوأ بكثير
نحن لا نربد العيش مع أنفسنا ، نحتاج لأن نعيش بعالم مختلف يجذبنا ويغرينا للاكتشاف ، فإن توافقنا على كل شيء ماتت الرغبة بالحديث والنقاش ومحاولات السعي للوصول لأمر ما ، ولا أصعب من أن تموت الرغبة!
المعنى أني أريد سلامك وهدوءك وطمأنينتك ، وأنت تريد فوضاي وجنوني فلما لا ندع أفكارنا تصافح بعضها البعض بسلام ، فتقبلني بما أنا عليه وأقبلك بما أنت عليه ، ولا يكون التغيير الا بلحظات عناقنا ، فتصبح أنت المسالم المجنون ، وأنا الفوضوية الهادئة..
ولننتقي مجددا ونختار ما يعجب كل منا بالآخر فيضيفه له دون أن يتغير..
فلسفة الحب عميقة جدا ، إذ لا يمكن للعقول البشرية أن تتفق على معايير محددة للصواب والخطأ ، فلكل منا نظرته وتفكيره الخاص المنفرد ، وبذلك قد لا يتمكن اثنان مختلفان جدا من الوصول لنقطة فاصلة وحكم يحكم فيما بينهم ، إلا لو كان الحكم راسخا ، ثابتا لا يتغير ، حدود مخلوقة أزلية مدروسة بعناية ، ومطبقة ومحكمة الاحتمالات ، واتفقت العقول عليها
حينها سيحلق كل واحد منهما بعالمه إنما ستظل فلسفتهما وأفكارهما معقولة ومحددة بطابع معين ، ولما كان القرآن الحكم بينهما ، وكان كلام الله وسنة نبيه المرد لهما والهيكل الذي يحفظ المائع داخله ، فما كان منهما إلا الانسياق لهذا الهيكل فقد كان جامدا جدا وكانت سائلة جدا ، ورغم ذلك لم يجدا مشكلة بفهم

بعضهما البعض ، فالاختلاف كان بالكيفية وليس بالفعل بحد ذاته ، بالفروع وليس بالأصول..
قال محمد بعد طول حديث:
ليس من السهل أن أنسى كل موروثاتي السابقة ، وأبدأ بكل شيء بطريقة مختلفة ، هذا أمر مرهق للغاية يا سارة!
فأجابته:
أدري..
ولكني لا أطلب منك أن تنسى دينك ، أن تنسى صلاتك ودعاءك ، أن تنسى تلك الأصول الراسخة ، إنما أريدك أن تبتعد عما يخضعنا لحياة عادية رتيبة ، الحب الذي يوصف بالكلام سينتهي بالكلام ، وأنا لا تقنعني الحروف..
والحياة التي تبدأ بنمطية ، ستستمر بذات النمطية ، وتنتهي بها إنما أردت أن لا تشابه أحدا بحبك لي ، فوالله لقد كانوا كثرا حولي ولم أحب أحدا منهم..
لا أريد أن أصل للحظة أفقد بها رغبتي بوجودك بجواري..
قال : لكن..
فقاطعته قائلة :
حين تشعر أنك لست قادرا على البقاء قل ، وغادرني قبل أن أراك عاديا نمطيا..
لا يمكنني العيش مع شخص يقلد ، ويتبع
أربدك أن تكون محمدي أنا يا محمد..
بصفاتك واسمك ذاته ، لكن زد عليه بعض الجنون الذي دفعني لإضافة يائي..
فقال وهو يهز رأسه بنفاذ صبر مع ضحكة خفيفة:
سأفقد عقلي بسببك وستندمين..
فقالت بكل عناد :
ويروقني جدا هكذا ندم..
فرد بقلة حيلة :
أقسم أنك م ج ن ووو نة..
***

-8-

بدأ دوام سارة للفصل الدراسي التالي ، وكالعادة بدأت سارة دوامها بكل همة ونشاط ، فقد كانت متعلقة جدا بجامعتها وقبل ذلك بمدرستها ، إنها تقدس العلم والمعلمين القديرين الذين يبذلون مجهودا عظيما لإيصال العلم لشخص ما ، وكانت محاضراتها الأكثر جمالا هي تلك التي تناقش أمور الدين والحياة الاجتماعية ، وبالرغم من بعد تخصصها عن هذه المواد نوعا ما ، إلا أنها كانت ترتب جدولها بحيث يتيح لها الوقت للذهاب إلى تلك المحاضرات والاستمتاع بها وبمناقشاتها مع بعض المحاضرين المميزين من ذوي الفكر المختلف..

استيقظت بعد أذان الفجر الأول توضأت وقرأت بعضا من آيات الذكر حتى أذن الأذان الثاني ، فتحت نافذتها وبدأت تتأمل المنظر من حولها ، كانت هذه اللحظات لحظات ترد روحها ، وتشعرها بالسعادة بطريقة لا توصف ، إذ كانت تردد الأذان وتسمعه بتمعن ، ثم ترفع يديها للسماء وتبدأ بالدعاء حتى تنتهي ، فتقيم الصلاة وتسجد بين يدي الله وتعلم أن الحزن يستحيل بقاؤه بقلبها بعد هذه السجدات الأربع..

وبعد ذلك يبدأ مشوار يومها المعتاد إذ تلعب الرياضة بقفز الحبلة أو تقوم ببعض التمارين التي تساعدها على تنشيط الدورة الدموية مع ألحان فيروز ، الكثير من الماء ، ثم فطار خفيف ، ثم انتقاء ملابسها سريعا وتجهيز نفسها للانطلاق ليوم دراسي ممتع ، وحين وصلت لباب البيت تذكرت أنها لم تأخذ مصروفها من والدها ، فعادت وطرقت عليه الباب وطلبت منه مصروفها ، فمنحها إياه ودعا لها ووالدتها بالتوفيق وهما يسمعانها الرضا..

أرسلت لمحمد حالما خرجت من البيت :

"صباح النشاط.. وأخيرا عاد الصباح كما أحب"

لم تصل الرسالة بعد حتى أرسل لها محمد :

"وأخيراا "

شككت سارة بنظرها ، ثم ضحكت وأرسلت له:

"أمازلت مستيقظا! "

فرد عليها بعد ثوان "منذ الفجر ، صليت ولم أنم ، بالتوفيق عزيزتي"

ابتسمت ولم تعقب ، كانت تمشي بسرعة هائلة ، حتى أن من يراها يشعر وكأنها بالكاد تطير عن الأرض..

أما محمد المجنون فقد كان يمشي خلفها ، كان متفرغا بلا عمل ولا أهل للآن فأراد أن يستغل كل لحظة قبل أن يبدأ بالعمل بوجوده بقرب سارة ، ولكنه كان حريصا جدا أن يراها بحلتها الطبيعية ، دون أن تعلم أنه سيراها اليوم ، ولذلك لم يخبرها بشيء..

وصلت موقف الباصات فكان الباص بانتظارها دخلت من الباب الأمامي ولما أراد محمد أن يدخل قال له السائق لا مجال لك ، ستظل واقفا ، فقبل محمد ذلك ودخل من الباب الخلفي مرتديا نظاراته وهو يكرر بداخله دعواته بأن لا تلمحه سارة..

وقف خلف سارة بمسافة كرسي واحد ، لم يخلع نظارته إنما ظل واقفا ممسكا لكتابه يدعي أنه يقرأ وعينيه معلقتين بسارة ، جلست سارة بجوار فتاة ، وبسمة خفيفة مرسومة على ملامح وجهها ، فلما انطلقت الحافلة أمسكت هاتفها مجددا وأرسلت له وقد زادت مساحة الابتسامة على وجهها :

"بالمناسبة أحب كلمة عزيزتي منك جدا"

وصلته الرسالة فرن هاتفه ، خشي أن تشعر به فعاد للوراء قليلا ، وحول وضع الهاتف للصامت ، ثم قرأ ما أرسلته فابتسم وأرسل لها قلبا أزرقا وابتسامة..

كانت سعادة محمد غامرة بوجود ذاك المحبس الجميل بيد سارة ، بينما كانت تقرأ بأحد كتب الفلسفة وتقلب صفحاته بيدها..

حتى توقف السائق لمحطة تالية فخرج فوج من الشبان ، لم تكترث سارة لهم ، أما محمد فقد ظل متشبثا بمكانه تقدمه شاب وتأخر عنه ثلاثة ، وفتاتان تقفان بمقدمة الباص مع امرأة بعمر والدتها..

نقلت سارة بصرها لصف الرجال بجوارها فوجدت رجلا عجوزا نحيل البنية منحن الجسد ، ترتجف أقدامه وهو واقف في مكانه يحاول التشبث بأي شيء ، كان بجوار العجوز شابان وخلفه فتاة بجوارها شاب ، عدا عن بقية الباص اللذين يناظرون العجوز بكل بلادة ولا يزالون قابعين بأماكنهم ، دون أن يقف منهم أحد ليجلسه..

ارتاب محمد من نظرات سارة إذ عقدت حاجبيها وأغلقت الكتاب وهي تنظر لقدمي العجوز وحركاته ، عاد للخلف قليلا ، بدأت سارة تعبر عن انزعاجها للصبية التي تجاورها ، تحرك الباص بعنف على أحد المطابات فكاد العجوز يقع ، لكنه تمسك بحافة مقعد الشاب بآخر لحظة ، كان التعجب يملأ سارة ، إذ نظر إليه الشاب بتأفف وأعاد نظره لهاتفه بلا مبالاة..

حينها وقفت سارة وقالت بصوت مسموع: تعال يا عم اجلس هنا..

فرفض العم قائلا : لا لا يا بنيتي ، اجلسي أنت..
فوقفت بعد أن طلبت من الشاب بجوارها أن يفسح لها الطريق ، فرجع محمد ورجع الشاب ، بينما ينظر لها جميع من بالحافلة ، ثم قالت: تفضل يا عم ، لا تقلق أنا سأقف مع الفتيات بالمقدمة..
فوقفت الفتاة التي بجوار الشاب من الناحية الأخرى وقالت: وتعالي يا خالة اجلسي هنا..
جلس العجوز خجلا منها ، لكنه كان متعبا بحق..
ثم تقدمت سارة وتبعتها الفتاة ، بعد أن وقف الشاب وسمح لها بالوقوف بدلا من أن يرفض ذلك ويقف عنها ، وجلست الخالة مكانها ، وقد أسهبا بالدعاء لهما بأن يبارك الله فيمن رباهما..
أما محمد فقد كان يقف مدهوشا ومصدوما من موقفها ، كادت الغيرة تقتله ، إذ بدأ شباب الحافلة كلها بالحديث عنها ، وبذات الوقت كان معجبا وفخورا جدا بها ، إلا أن أكثر من حقد عليه محمد ذاك العجوز الذي جلس بمكانها..
كان محمد يفكر بكم الجرأة التي تملكها سارة لتقول للشاب أن يفسح الطريق ، وتتحدث بصوت مرتفع بين ألف شاب غير مكترثة بأحد ، ثم بدأ يفكر لو أن إحدى أخواته الإناث قد فعلت هذا ، ربما لجلدها إخوانه الكبار ، إذ أنهم سيرون ذلك وقاحة ، وجرأة ، وذنب عظيم..
أدرك حينها أن الفتيات اللواتي يحدثن الفرق ، واللواتي يقدرن على اتخاذ موقف ما إزاء أمر ما هن إناث مشبعات بالاحترام والتقدير والحب ، اللواتي لا يخفن من شيء لا تجاوز فيه لحدود الله ، أن العائلة هي من تمنح أفرادها وسام الشرف الذي يخلق من الفرد فيها بطلا وقائدا وشخصا مؤثرا في مكان ما..
نزلت سارة ، وركبت بالحافلة الأخرى ، ومحمد من خلفها يصر على أسنانه كلما رأى شابا ينظر إليها وهو ينزل أو يحادث صاحبه عنها ، وقف بالخلف ، بينما كانت سارة تدير حديثا مع الفتيات اللواتي وقفن معها وأخريات ممن جلسن بالخلف وما استطعن أن يحادثنها بالحافلة ، فيثنين على ما فعلت ، ويخبرنها بأنهن قد يئسن من الشباب فقد ماتت الحمية بداخلهم ، وأن هذه الأحداث تتكرر كثيرا على مرآهن ولكنهن لم يتصرفن من قبل كما فعلت..
بعد دقائق وصلت الحافلة التالية فصعد الجميع بالحافلة ، ومحمد كان ينتظر ان تجلس سارة ، فلما جلست وجاورتها إحدى الفتيات جلس محمد خلفها حتى وصلت الجامعة فودعتهم ومضت وحدها لتذهب لمحاضرتها ، حينها استوقفها

شاب ممن كانوا معها بالحافلة وأرجع لها قلمها الذي سقط منها لما وقفت ، بينما كانت مجموعة من أصدقائه تنتظره وتراقبه وهو يحادثها ، شكرته سارة وظلت تسير بطريقها دون اكتراث ، إلا أن محمدا لم يعد يحتمل أكثر ، إذ بدأ الشاب بالضحك لأصدقائه من بعيد ، ثم ما إن أوشك على الوصول حتى أخذ يقول لهم : جميلة جميلة..

وبدؤوا بالمزاح ، كان محمد يريد أن يسيطر على أعصابه قرأ المعوذات لكنه لم يقدر فذهب إليه قبل أن يصل لهم بقليل وقال له : من هي الجميلة..

انصدم الشاب وقال له: ما شأنك أنت!

قال محمد والشرر يتطاير من عينه ويصر على أسنانه : خطيبها!

فتدخل أحد أصدقاء الشاب وقال معتذرا لمحمد : والله ما كان يقصد إلا كل خير.. نعتذر منك

ظل محمد ينظر بعين الشاب والشر بعينه ، حتى قال الشاب : والله أعتذر لم أقصد..

ارتدى محمد نظارته دون أن يقول شيئا ، وسار خلف سارة وهو يتبخر من غيرته ، حتى أدركها فأمسك يدها بكل قوة وصر عليها..

خافت سارة وانصدمت بذات الوقت فقالت باندهاش : محمد !

ثم نظرت لمن حولها بخجل وقالت : دع يدي!

لم ينطق محمد بحرف واحد ، ظل ممسكا بيدها بكل قوة ، فخجلت سارة من إظهار أنها مجبرة على ذلك فرخت أعصابها قليلا وسلكت مسارا آخر غير مسار المحاضرة بمكان لا يكثر فيه الناس لتفهم منه ، ولما وصلا الجسر الذي يربط بين الكليات الإنسانية والأجنبية وقفت وقالت له بجدية : أترك يدي ، ماهذا الجنون الذي تفعله!

أزاح محمد نظارته عن وجهه وقال بغضب : جميلة جميلة!

ممنوع أن أمسك أنا يدك أما ذاك ال !..

فقالت مهدئة إياه : إهدأ.. ما بك

لا أفهم عليك ؟

فقال غاضبا : لا تقفي مرة أخرى وتجلسي رجلا محلك! ولا تردي على شاب يناديك لأي سبب يا سارة

فقالت بهدوء : حاضر! لن أفعل!

فقال مبتسما على مضض: يمكنك الذهاب الآن لمحاضرتك..

فظهرت آثار ابتسامة طفيفة على وجهها ونظراتها مملؤة بالحب وقالت: كنت معي إذن!
أبعد نظره عنها وتنفس بصعوبة وقال : نعم. .وليتني لم أكن..
وضعت يدها على فمها مخفية ضحكتها اللا إرادية
فالتفت لها وقال بنبرة حادة : كف عن ذلك يا سارة ، رجاااء واذهبي..
قالت وهي ترسم ابتسامة على وجهها :
لكني..أريد البقاء معك!
مسح وجهه بيده بعنف ، ثم بدأ يعيد شعره بأصابعه للخلف ليقلل من توتره ويردد : أستغفر الله..
ويأخذ شهيقا وزفيرا ثم قال : أعتذر لأني رفعت صوتي.. لم أحتمل!
أقسم أني كدت أقتله ذاك المختل ، لولا أن ثبت الله علي عقلي وتدخل صديقه معتذرا! !
فقالت باستغراب : أحادثته!
قال بغضب ممزوج بنفاذ الصبر : حرف آخر وسأقتلك
ثم مشى ، فاقتربت سارة وقالت بتغاب: أتغار من عجوز!
فأمسك يدها وشد عليها قائلا : ولو كان والدك..
ثم صر على أسنانه مهددا : لا تجلسي أحدا بمكانك وهو دافئ يا سارة ، للمرة الألف أقولها
فقالت سارة : حاضر حاضر والله لن أفعل..
ترك يدها فقالت بشقاوة : يالك من غريب أطوار!
مشيا قليلا دون أن ينطقا فنظرت سارة للساعة وقالت: بدأت المحاضرة ، وأنت لن تتحدث بمزاجك هذا سأذهب وأعود بعد المحاضرة ابق هنا..
لم ينظر لها ، فقالت : أتريد شيئا! هييي محمد..
حسنا أراك
أدارت وجهها مودعة فقال : انتظري..
عادت : ها !
أمسك القلم من يدها وابتسم ابتسامة صفراء لثانية ثم رماه ، وقال لها : لقد وقع منك بالحافلة ، دبري أمرك..
فقالت باندهاش : مجنوون!
هزت رأسها بقلة حيلة : سأتدبر أمري..

ذهبت والابتسامة مرسومة على خدها ، وتفلت أحيانا فتزيد مساحتها لتبدو كضحكة حيية ، أما محمد فقد كان متعجبا من تصرفه ، والنار التي اشتعلت به فجأة فأفقدته صوابه ، بالرغم من محاولته لتفهم الأمر لكن الأمر لم يكن خاضعا لعقله أبدا ، وفي الواقع كانت أكثر المشاعر إثباتا لنفسها داخله ، فمحمد شخص يتحكم جيدا بانفعالاته بالغالب ، ولا يقدم على فعل شيء باندفاع..

بعد ساعة عادت سارة ، فاستقبلها محمد بابتسامة وكذلك ارتسمت ابتسامة على وجهها لما رأته مبتسما

فقال بغيظ: تضحكين ها!

قالت وهي تضحك : لا أجد مبررا لغيرتك بصراحة ، لكن أحببت شكل ملامحك وأنت منفعل..

ردد ما قالته باستهزاء : أحببت شكل ملامحك وأنت منفعل.. حسنا لنغير الموضوع بربك..

كنت متمالكا أعصابي حتى قال ذاك المعتوه " جميلة" أقسسم أني كدت أخرج روحه بيدي ، ألا يرى المحبس بيدك!

فقالت : يا سلام..

فقال : سااارة..

فضحكت وقالت : حسنا حسنا لنغير الموضوع..

لكن لا تكررها وتمسك يدي مرة أخرى في الطريق ، أكره أن أرى شخصا يمسك يد زوجته

فضحك وقال : زوجته

فقالت: أقصد حبيبته..

رفع حاجبيه

فقالت بتأتأه: يووووه من يحب

ضحك عليها ، ثم قال : إن لم يمسك يد زوجته ، وحبيبته سيمسك يد من يا فيلسوفة أنت!

قالت : لا يمسك يد أحد..

حين يكونان وحدهما بالبيت ليمسك يدها قدر ما يشاء

فقال : مسكة اليد تعني أنك لي..

مادام الأمر بشرع الله سأمسكها شئت أم أبيت..

فقالت مهددة : لن أقبل..

فقال : دعك من هذا الكلام حتى تصبحين زوجتي بحق ، حينها سيكون لنا كلام آخر..
فقالت وقد زمت فاهها بشقاوة : امم لا تغضب ، فقط خطر ببالي استفسار بسيط
فقال : هاا
قالت : أو تقدر على ضرب ذاك الشاب بحق!
فضحك حتى كاد يغشى عليه ، ثم قال : بربك! أوتسألين ؟
قالت : نعم نعم ، يعني أفكر بالأمر ، لو كنت قد ضربته لضربك أصدقاؤه معه ، بالطبع لن تقدر لهم ، فأنت لست معتادا على المشاكل!
كيف تقدم على حديثه بصورة كهذه ، دون أن تحسب حسابا لتبعات الأمر!
فقال محمد وابتسامة باردة على وجهه : أولا ياا عزيزتي ، لا تسألي رجلا غيورا إن كان يقدر على ضرب رجلا قد تسبب بغيرته أم لا ، لأنه بكل بساطة لن يفكر بذلك حتما ، وستدب به قوة هو ذاته لا يعرفها ، فالشياطين تركن جانبا خوفا منه..
وثانيا لا أحب استعراض بطولاتي عليك ، فيشهد الله أني مسالم جدا ، ولا أفكر بممارسة العنف على أي بشري كان ، لكن انطلاقا من إيماني بأن الرجل لا يكون رجلا إن كان ضعيفا ، فقد كنت ومنذ صغري أتدرب على رفع الأثقال والفنون القتالية ، فقد قال عليه الصلاة والسلام المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، ووالله إني لأبغض أن يكون الضعف للإسلام مني.. لكن إن أردت أن تري حقا ، حاولي أن تجعليني أغار ثانية..
وابتسم ابتسامة مطولة ثم أتبع : وإياك أن تلوميني
فضحكت وقالت بشقاوة : أنا أعرف لست قويا أبدا ، أنا أغلبك..
فقال : بصراحة.. أنت تفعلين ، لا يمكنني أن أنكر ذلك أبدا..
أخبرت سارة والدها حين عادت عما حدث معها بالحافلة وكيف تصرفت ، وأن محمدا كان بالحافلة دون أن تدري وما دار بينه وبين الشاب ، تعجب العم وضحك من قلبه ثم قال :
وتخبريني بكل جرأة
فضحكت سارة وقالت: إنما أخبرك لتعاقبه..
فقال : ولأنني رجل لن أعاقبه ، بل سأسأله كيف تمكنت من ضبط جماح غضبك ولم تفتك به..
فقالت بشقاوة : لأنه لا يقدر

فرفع والدها حاجبيه باستنكار شديد وقال ضاحكا: وصل للنهائيات ودرب لمدة ست أشهر بالفنون القتالية ولا يقدر!

فقالت باهتمام : من قال لك ذلك!

فقال : هو !

غريب ، ألم يورد لك عن الأمر ذكرا!

فقالت له وهي تنظر لإصبع يدها بشرود : أحيانا أتعجب منه حد الخوف ، رغم حجم الاطمئنان العظيم الذي يخلقه حضوره داخلي لكن..

رفعت نظرها نحوه وقالت باستياء :

لكنني ، بالنهاية لا أعرف شيئا عنه!

أشعر أنني مازلت أجهله تماما ، لا يحدثني عن نفسه كثيرا ، عما يحب ويكره ، عما كان يفعل ، وإن أخبرني ذات مرة يخبرني بالنتاج وخلاصة أفكاره وما رسا عليه الآن بعد كل هذا العمر..

فقال والدها مطمئنا:

إنما يشغله نبض قلبه الجديد عما فاته ، ويحدث أن يخلق المرء من جديد على يد من يحب ، لكن ما نحن متأكدين منه أنه رجل صالح ويحبك بصدق..

وذري باقي التفاصيل ومعرفتها وتدبيرها على والدك..

***

-9-

غفت سارة ليلتها..

وما كل غفوات العقل تجلب للجسد راحة ، وما كل النوم موت

فبعض الأحلام تسري بقلوبنا لتعانق أرواحنا أبواب السماء ، فنستفيق وقد منحنا أسسا تربيعية وتكعيبية فوق أرواحنا ، وأحيانا نفيق من الهلع والخوف بلا قلب ولا عقل ، أجساد ترتجف ، ودموع تنسكب بلا إذن ، ليس ضعفا أو خوفا بقدر ما هو ترسيخ لمعنى الموت الأصغر ، وتجربة لشعور كافر قد لقى حتفه وعجز عن فعل شيء ، فهنا وبهذه اللحظة لا نملك من أمرنا شيئًا سوى أن نعيش الضعف بكل استسلام للأمر وخضوع..

رأته بمنامها يمسك يدها ويسير معها بكل حب بمكان مظلم جدا ، ومن طبع سارة خوفها إذا حل الظلام ولم تجد بجوارها أحدا ولا نورا ، وحبها الشديد للظلام بوجود شخص تطمئن بوجوده بالمكان ولو كان منشغلا عنها ، فليلا إذ تنام تتأمل النجوم وشعور غامر بالسعادة يملؤها إذ كانت أختها بجوارها على السرير تقرأ شيئًا ، أو حتى تنام ؛ الأمر لا يتعلق بوجود شيء ، إنما رهبة منذ الطفولة لا تزال تلاحقها..

كانا يسيران سويا ، حتى تلاشى وجوده وتبخر دون أن تعي سارة قبلته ووجهته ، لاحت صورة العجوز التي رأتها قبل عام من بعيد ، وأخذت تقترب منها ببطء فتظهر لحظة وتختفي أخرى ، بينما قلب سارة يعاكسها بين غياب وحضور فإن حضرت غاب النبض ، ويعود مجددا حين تغيب..

الدماء تنزف من فم العجوز ، والدموع تهيج من عينيها..

وصراخها يلعثم نبضها ويفقد نبضاتها القدرة على الصمود

فإذا بمحمد يقف أمامها ببراءة ، ويتلاشى طيف تلك العجوز ، فتهرع سارة بحضنه باكية ترتجف ، ومحمد يضمها بكل ما أوتي من أمان لتهدأ..

ولما أفاقت كانت مختبئة أسفل الغطاء ، والدموع تكاد تغرقها ، رفعت الغطاء عنها سريعا وجلست بينما روحها تصعد للسماء وتعود جالبة لها بعضا من الطمأنينة بأن رحمة الله تغمرها الآن ، إذ كان مجرد حلم.. أو لنقل كابوس ودود..

أمسكت هاتفها وأرسلت لمحمد سريعا ، هذه المرة هو بجوارها ، لن تخشى إخباره ، ولن تفكر كثيرا بالأمر كما بالسابق ، كتبت له: محمد..

هل أنت هنا!

ولحسن حظها أن كان لا يزال يقظا فقال: نعم عزيزتي ، ما بك!

فأرسلت له وجها تعبيريا يوحي بالضيق ، بينما كانت عيناها تغرق بالبكاء.

فقال : ما بك! هل حدث معك شيء!
أخبرته أنها حلمت به ، ودون وعي هوت الكلمات من لسانها فسردت له تفاصيل المنام وشعورها..
اتصل بها ، فلم تجب
قال : أريد أن أطمئن عليك ، أجيبيني!
فقالت : والله لا صوت لي ، دعني أكتب سأرتاح أكثر. .
فقال : حسنا عزيزتي كما تشائين..
اهدأي الآن..
أنا هنا وصدري لك اختبئي به كيفما تشائين..
لن أذهب
قالت : أنا فقط أريد أن أفهم لم تفعل ذلك بي ، لم غبت عني وتركتني خائفة هكذا ، تعلم أني أخااف الظلام وحدي..
وتلك العجوز !
فقال : لست أدري مالذي يريده محمدك داخل المنام ، إنما أظنه يشاكسك ، خصوصا أنه من أخذك بالمنام لهذا المكان بيديه!
فقالت بغضب : يشاكسني!
والله ليتك ترى شكلها للحظة واحدة فقط لتعلم ما سبب بكائي هذا..
محمد أنا لست طفلة صغيرة ، لكنها تخيفني بحق..
فقال : لا لا بربك لا أريد رؤيتها ، إنما لو تمنيت رؤية أحد بحق بهذه اللحظة لتمنيت رؤيتك أنت..
ثم أتبع :
نعم يشاكسك ، أو كنت ستقبلين بضمه لولا أنه قد فعل ما فعل!
فكري بالأمر قليلا وسيتضح لك كل شيء..
فقالت بلا تردد :
نعم أفعل..
أفعل كل شيء ، أي شيء إلا أن أراها
أقسم أنني أشرق بدمعي الآن وجسدي بالكامل يرتجف.. ليتك تراني لتفهم مالذي تصنعه مشاكستك الخرقاء بي !

فقال :

بعيدا عن الخجل الذي بيننا وعن الحدود التي نقف عليها ولا نتعداها أفسحي لي بجوارك..

سأسقيك ماء ، هيا اجلسي الآن وتناولي زجاجة الماء معي ، ودعيني أسقيك بيدي.. هيا..

هات يدك

جلست سارة وأمسكت زجاجتها وشربت منها ، لعل نبضها يهدأ بعض الشيء ، لكن عبثا

أعادت رأسها على وسادتها

فسألها : أشربت ؟

فردت باستسلام : فعلت..

فقال : تعالي هنا ، هاك كتفي ، ضع رأسك هنا على قلبي ، وانصتي له جيدا حتى تهدئي..

كانت سارة تصر على عينيها بشدة ، تشعر ببرد شديد ، أطرافها ترتجف ، وقشعريرة تنتاب جسدها..

صمتا لبرهة ثم أرسل لها والصمت يحدث صداه داخله والدموع تنهمر من عينها:

ليتك يا سارة بجواري الآن فتبصرين انعكاس دموعك داخل عيني وصدى رجفة قلبك داخل قلبي.. ليتك هنا فتشعرين بحرارة أنفاسي التي تخنقني إذ تبكين ولا يد لي تصلك فتمحو عنك دمعك..

فاضت دموع سارة ، آلاف من المشاعر عصفت بها ، شعور خوف واحتياج ، اجتياح ولعثمة..

قالت له:

محمد.. امسح على رأسي أنا خائفة جدا

فقال:

ها أنا أضمك بقوة حتى يكاد جسدك يتلاشى داخلي ، ويضيع اضطراب نبضك بدقات قلبي..

اهدئي يا قلبي اهدأي..

ها أنا أمسح على رأسك ، وأقرأ لك آيات من سورة الرحمن..

قالت:

محمد..

لست أدري ما سر هذه العجوز وماذا تريد مني ، لست أدري لم أحلم بك ، وأراك الآن وسابقا قبس من الأمان والطمأنينة..

إن جنين الحب في قلبي ينبض نبضاته الأولى ، ولست أدري إن كنت دائما لي أم أنك سترحل كأي شيء.. بل ككل شيء

لكني كاذبة جدا حين أكابر بحبك.. أنا أعترف لك بكل صدق ، لقد بت ذا شأن عظيم داخلي

كثيرة هي الأحلام التي رأيتك بها ولم أخبرك عنها شيئا ، كثيرة هي اللحظات التي كنت أبكي بها آلام ركلات جنينك بقلبي العذري ولم تسمع منها شيئا ، كثيرا ما حادثتك خفية على مرآتي ، وكثيرا ما فعلت أشياء بسببك ولأجلك وأنت لا تعلم..

توقفت عن الكتابة لبرهة ثم أتبعت :

قد يخرج صباح الغد علي فأنكر كل شيء ، فلا تتعجب من اضطرابي ، فقد لعثمني ورودك لحياتي أكثر بكثير مما تعتقد..

صمت محمد لبرهة وتوجس من خبر كان سيخبرها به الليلة كانت الساعة السابعة مساء..

اضطرب محمد فجأة ولم يجد إجابة على قولها فكتب:

لقد مر الوقت سريعا دون أن نشعر ، عام كامل جمع بيننا كان قصيرا جدا ومكتظا بالمشاعر ، بدأنا بالخريف ، حر الصباح وجفافه وبرد الليل ونسيمه اللطيف ، أتذكر كل شيء كان يحدث كأنه أمامي الآن..

كنت أترقب حرفا منك ، وأخجل أن أقول أي شيء لك ، وأقفز من مكاني لو حادثتني ، كنت أبعد بكثير من نجوم السماء عن أحلامي ، كنت أحاول أن أراك واقعا لكن عقلي كان متغلغلا جدا بأفعالي ، حتى عرفتك وتسربت داخلي كما ذرات الأكسجين في بلازما دمي ، ولشدة فرحها أخذت ترقص مذعنة برفض أي سلطة فوقها ، حتى لكدت اليوم لا أعرفني بصدق..

قالت سارة : وهل تراني تغيرت!

قال : لم تتغيري ، إنما تحدث الأيام والأحداث والأحلام ثقبا صغيرا يسقط مطرا أخضر بداخلك..

وأتمنى أن لا يمر الخريف عليك يا قلبي ، لتظلي مزهرة يا سارة

ربيعك يجعل من دنياي جنة ، فلا تحرميني ابتسامتك..

قالت سارة: محمد لقد ارتخيت إثر البكاء ، أشعر أني سأغفو..

فقال : أيمكنني إسماعك أغنية قبل أن تنامي

قالت : بالتأكيد..
فأرسل لها أغنية:
"لو خايفه..
اضمك تلاقي الأمان
لو تايهه..
في قلبي تلاقي الحنان
اه اجيلك لو انتي في أبعد مكان
لو خايفه.. أضمك تلاقي الأمان
حبيتك وفي بعدك قلبي معاك
حبيتك مش ممكن انسى هواك
أنا حاسس ..
كأني قابلتك زمان
أنا عايز..
أقولك بحبك كمان
قوليلي
حجيلك أنور سماك
حكايتنا..حكايه كتبها ملاك
أنا جمبك وحياتي مكان ما تكون
وملكتك خلتني ملكت الكون
آه حاجيلك
لو انت في أبعد مكان
لو
خايفه
أضمك تلاقي الأمان"
سمعتها سارة حتى نامت ، وظل بال محمد مشغولا ، فقد اتصل به صاحب العمل وأخبره بأنهم سيبدؤون العمل من صباح يوم غد..

***

-10-

حين اتصلت به سارة ، ظن أنها قوى التخاطر ، فقد كان للتو قد أنهى محادثته مع صاحب العمل ، أراد أن يخبرها لكن الحلم ألجمه ، ودون شعور قد ربط بينه وبين غيابه فتوجس من أن يخبرها على الهاتف ، وخصوصا بحالة خوفها التي كانت..

رتب حوائجه بحقيبته استعدادا للسفر ، ثم أخذ حمام ماء دافئ ، وأعاد توضيب المنزل ، صلى العشاء والحيرة تملؤه ، حاول أن يخشع كعادته ، لكن ذهنه ظل شاردا تماما ، وكأنه يؤدي حركات محفوظة بعقله الباطن بلا نبض ولا شعور ولا استحضار لرهبة وقوفه بين يدي الله ، وقد كان محمد يرفض هذا الشعور تماما إذ يرى أنه مقصر جدا إذ يقرأ القرآن ويصلي ، ويردد الأذكار والاستغفار بقدر ما استطاع ، فيرى أن الحياة تسرقه مما خلق من أجله أي عبادة الله وحده وإعمار الأرض ، فإن وقف بين يدي الله رمى كل شيء على حدود سجادة الصلاة ، وما هي إلا تكبيرة البدء حتى تراه لو قطع رأسه ما أشغله ذلك عن خشوعه ، فتراه قبل البدء بصلاته يغمض عينيه لدقيقتين ويفكر بطريقة بسيطة جدا تعلمها من أبيه حين كان طفلا صغيرا ، يستحضر أعظم شيء قد خلق على هذه الأرض ويبدأ من سجادته لبيته صعودا حتى تتسع الدائرة للأرض كلها ثم تضم السماء والفضاء والمجرات وحدود اللانهاية ، ثم يقرأ آية الكرسي:

حتى يصل ل "وسع كرسيه السموات والأرض" فيكمل الآية وقد فتح عينيه للنور لتراه خاشعا مستحضرا عظمة الله بكل حرف يقوله ، فالخشوع ليس حركة ولا أداء إنما استحضار لله بقلب عبد صالح..

حاول التفكير والتركيز بذات الطريقة لكنه لم يشعر بذاك الخشوع المعتاد ، فقد كانت تتهيأ له صور وخربشات متناثرة بعضها لوجه سارة وأخرى لتلك العجوز ، فأعاد صلاته مرة ثانية ، حتى سجد فاكتظت عيناه بدموع انزلقت من قلبه فورا ، وكأنها تصر عليه أن يبكي لله ويرخي عضلات صدره المقبوضة على قلبه وتكتب نبضه من التنفس ، سقطت دمعة ، ثم تتابعت واحدة تلوى الأخرى دون كلام ، كان يقول فقط: يااارب ، يااارب

تلك الانقباضة التي تزور القلب بلا سبب حقيقي إنما شعور لا يمكن لكلمات أن ترتبه..

وهكذا سجدة تلو الأخرى ، فكلما سجد لله أزاح الله جبالا عن صدره ، وتفتحت زهور بأوردته ، كانت صلاة يناجي بها العبد ربه بلا صوت ، فقد كان على يقين تام بأنه يعلم ما توسوس له نفسه ، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد..

فلما أنهى صلاته فرضا وسنة ، فورا اتصل بعمه وأخبره أنه قادم الآن ، فقال العم متعجبا : ألا يتأجل الحديث لصباح غد!
فقال محمد: لا ياعم ، الأمر لا يحتمل التأجيل ، أحتاج لمشورتك أولا ، ثم سأرى سارة بعد ذلك..
فقال العم: أقلقتني ، هل حدث شيء لأحد من عائلتك!
قال منهيا الحديث: لا لا يا عم ، الأمور تسير على ما يرام ، سأنطلق الآن من البيت ، مسافة الطريق وأكون عندك
فقال مودعا إياه: بانتظارك..
وصل محمد درج بيت سارة ونبضات قلبه كانت تقفز قبله درجة درجة حتى وصل ، وضع محمد حقيبته بكراج المنزل ثم أكمل طريق صعوده ، كان الهواء قويا جدا ، إلا أن عواصف محمد بالداخل كانت أعظم بكثير مما جعله ولأول مرة لا يلاحظ قوة الهواء..
طرق الباب ، فجاءه العم مسرعا ، فتح باب البيت ورحب به لأول مرة معانقا إياه بقوة ، ثم أدخله وطلب الشاي..
قال العم: أقلقتني بحق ، ما بال وجهك مخطوفا بهذا الشكل!
قال محمد وهو يحاول أن يتظاهر بالابتسامة: لا تقلق يا عم ، إنما أردت أن أستشيرك بأمر ما..
فقال العم: كلي آذان صاغية ، قل يا بني..
فقال : تعلم يا عمي أني كنت أعمل في بلدي براتب جيد جدا خلال فترة دراستي الجامعية ، مما جعلني أوفر مبلغا لا بأس به ، مكنني ذلك من التقدم لسارة والقبول بكل شروطكم ، بأن أظل هنا ، ولا أقيم ببلدي ، إنما أزورها زيارة فقط ، والحمد لله الذي أنعم علي من وسعه ، فالمال كما تعلم زينة الحياة وعصبها ، ولكن إقامتي هنا جعلتني أستنزف هذا المال استنزافا ، إذ إن ما أصرفه لا يعود لي.. بحثت بعمل بالبلد لكن الرواتب هنا منخفضة جدا ، وأنا مقبل على زواج وتكاليف أخرى أكثر من التي كانت تنتظرني..
فقال العم مؤكدا على ذلك: بالطبع
فقال محمد: البارحة اتصل بي أحد أصدقائي وأخبرني أن ثمة مشروع مستعجل في عرض صحراء مدينتنا ، وأنهم يحتاجون لي لأدير هذا المشروع وأن المبلغ سيكون جيدا جدا..
مدة العمل تقريبا من 10 إلى 20 يوما فقط..

فقال العم: عظيم ، وأين المشكلة بذلك ؟
فقال محمد منكسا رأسه :
المشكلة...
ثم نظر بعيني عمه بعمق وقال: سارة!
فرد العم وقد عقد حاجبيه: ما بها..
أخذ محمد شهيقا وزفيرا ثم قال مرتبا كلماته: هناك قد لا أتمكن من التواصل معها أبدا ، وأخشى أن يبرد قلبها اتجاهي فتستغني ولا تنتظر ، وبذات الوقت أخشى ألا يبرد قلبها ، فتتألم لغيابي..
فالغياب متطرف كافر بين عاشقين تكاتفت قلوبهم بعمق وتعانقت ، فإن كان آخره اعتياد أحدهم على غياب الآخر وتقبله ذلك ، كان ذلك أشبه بعضو بتر منك وقد برد مكان البتر.. لن تتمكن إعادة العضو المبتور منه للإلتئام ، وإن لم يكن وطالت حرارة الموضع ، ظلت الأعصاب والشرايين تنزف بقوة آخذة معها كل دماء المصاب.. وإني لأفضل الموت على لحظة شوق تشتاق بها سارة لي ولا تجدني بجوارها..
فقال العم: اممم ، بالطبع سيكون الأمر صعبا عليكما الاثنين ، وإني والله لست أخشى البعد عليها بقدر ما أخشاه عليك..
المصيبة الحقيقية تكمن بتغلغل كل واحد منكما بتفاصيل الآخر ، والسماح للآخر باجتياح كل تفاصيل يومه..
وهذا ما يسمى بالحب الاعتياد..
إنه أشبه بدرنات القلب ، ستنفصلان قليلا ، وسينبت من قلب كل واحد منكما أوجاع وشوق وألم ، لكنك قد تتناسى الأمر في خضم العمل ، أما هي فستتجذر هذه الدرنات داخل قلبها ، وستنسزف الكثير منها ، ليس هذا وحسب ، بل إنها قد تعتاد ذلك ، فتبدو بحلة جديدة بعد الغياب فلا يعود بإمكانك التعرف لقلبها..
ابنتي عنيدة جدا بمشاعرها ، ستتجاهلها كثيرا ، لكن حتما ستقع بشباك الشوق فلا عاشق يفلت منها ، إنما أراها أقوى من ذلك..
قد تتجاوز الأمر ببعض الألم حتى عودتك ، ولذلك الوقت سأطبطب على قلبها وأكون قريبا منها ، فلا يشغلك ذلك..
قال محمد ورعود بداخله: اتصلوا بي اليوم ، والسفر سيكون صباح غد..
فهل أسافر أم أنسى الأمر !
شل تفكيري ، ولم أعد أفكر أبدا..

قال العم : الحب ليس مجرد مشاعر يا بني فقط ، فالمال زينة الحب إذ تبذل كل ما بوسعك من أجل إسعادها وتوفير طلباتها وكل ما تحتاجه ، سافر يا بني ولكن عد سريعا..
لقد أخطأتما بتجاوز المسافة التي يجدر بكما الوقوف عليها ، كان عليكما أن تبعدا قلوبكما بقدر كاف يمنعكما من الألم ، فالوجع على قدر القرب ، والعتب على قدر الحب..
وأظنكما تجاوزتما بهما كل الحدود..
قال محمد: المصيبة بأني لم أخبر سارة بعد بالأمر..
و..
قد أسافر فجر غد..
قال العم مستنكرا: ولم لم تخبرها للآن!
فقال محمد وتكاد الرجفة على لسانه تظهر: لقد منعني من ذلك ، حلم قد رأته بي سارة صباحا ، شعرت أنها بخوفها المبالغ فيه قد ألجمتني ، وشلت لساني..
لم أستطع إخبارها بشيء ، ولست أدري كيف سأفعل ذلك !
قال العم مطمئنا إياه: لا تقلق بني ، أنا هنا لها..
دعها تشتاق لك قليلا ، سأدعك تجلس معها الآن وحدكما ، وأخبرها بذلك ، ولا تشعرها بخوفك المبالغ به كي لا تضطرب من الآن..
فقال محمد: أيمكنني أن أجالسها على السطح ؟
استغرب العم من طلب محمد وقال: لا مشكلة..
لكن الجو بارد بالخارج والهواء قوي هنا!
قال محمد : أحتاج أكسجينا أكثر مما يوجد هنا ، قد يخفف الجو وطأة ما بداخلي فلا يظهر اضطرابي أمامها..
قال العم مبتسما : لا بأس بذلك..
استيقظت سارة ، ولم تصدق ما قالته أختها بأن محمدا قد جاء ، واستغربت من ذلك جدا ، لكنها جهزت نفسها سريعا لتخرج إليه ، وما أن استعدت والشوق يزين ملامحها بعد حلمها ووجود محمد كعامل آمان ، حتى ذهبت لغرفة الضيوف لتستقبله..
كانت ملامحها هذه المرة أكثر طفولة وبراءة ، وصلت الباب فابتسمت بلا وعي كطفلة صغيرة يداعبها شخص تحبه ، ترتدي فستانا بنفسجي اللون وحجابا مابين

الأبيض والوردي ، لم تضع أي شيء على وجهها ، فقط غسلته للوضوء صلت العشاء وذهبت إليه ، ولا أجمل من نور الله في وجهها ليزينها..

ألقت السلام وعلى غير عادتها هذه المرة كانت تتصرف بعفوبة بالغة ، وكأنها لا تزال نائمة ، وقفت على الباب محتجة على محمد ووالدها قائلة: يا سلام ، تطور الأمر وبت تأتي لتزور والدي وتتركاني نائمة بالفراش!

ضحكا عليها فقال محمد: كنا نتفق عليك..

اقتربت لتجلس بقرب والدها ، فاقتربت من محمد وسلمت عليه ، فمد يده مبتسما ، وظل ممسكا بها حتى اقترب منها وقبل رأسها..

تعجبت سارة واتسعت حدقتيها وكأنها تود التأكد من أنها لا تحلم ، و تقول بعقلها: ووالدي!!

نظرت لوالدها ثم لمحمد بحياء وبلا وعي قالت: لماذا فعلت هذا ؟

ضحك محمد وجلس بينما قال العم وهو يضحك : أرأيت أجرأ من زوجك هذا ، يقبلك وأنا أمامه غير آبه بوجودي..

فقال محمد: حاشاك يا عم ، لأنك موجود قبلت رأسها ، فما قبلة رأس الفتاة من زوجها إلا تقديرا لتربيتها..

وبعد حديث لم يطل ، استأذن محمد عمه ليجلسا على سطح البيت ، فأذن العم لهما ، والعجب يملأ سارة ، حتى أيقنت تماما من أنها تحلم ، وما عادت تسأل عن شيء ، فلا يعقل أبدا أن يأذن لهما والدها بالجلوس على سطح البيت وحدهما!

لما جلسا بالأعلى ، قالت الخالة لهما: وأخيرا قبل بإبقائكما وحدكما ، إنها معجزة بحق..

فقالت سارة: أمي اذهبي لسريري الآن وأيقظيني ، يكفيني أحلام..

فضحكوا جميعا ، ثم ذهبت الخالة بعد أن قدمت له الضيافة..

لما ذهبت الخالة ، قالت سارة منفعلة بصوت أشبه بالهمس: محمد ، ماذا يحدث! أقرصني لأتأكد أني لا أحلم..

***

-11-

كانت واقفة أمامه مباشرة ، عينيها فيهما بريق نجوم السماء ، وأهدابها مثبتة على أطراف عينيها دون حراك..

فابتسم محمد لها وهو يتأمل وجهها بصمت غريب..

فقالت: هيبي ما بك ؟

أخبرني ما الذي يحدث..

رفع محمد حاجبيه وزم فاهه ، ثم رفع كتفيه باستسلام وقال : سأسافر غدا ، ببساطة هذا كل ما بالأمر!

فجلست وقالت باستنكار : أين!

جلس محمد بجوارها على مسافة شخص ونصف ، وقال: للعمل ، بصراحة يا سارة لم يتبق لدينا وقت كثير ، ولدينا التزامات كثيرة ، بيت ومستلزماته ، صالة وحفل وبدلة وصالون ، الأمر مكلف كما تعلمين ، لذلك سأسافر من عشر لعشرين يوما فقط لمشروع بمبلغ جيد ، وبعدها سأعود لنبدأ بالعمل وترتيب البيت.. الخ

فقالت سارة بابتسامة مفتعلة : حسنا!

قال : فقط هذه هي الحكاية ، وجئت لأودعك قبل سفري فجر غد ..

خطف لون سارة وظلت تنظر له بصمت..

ثم قالت بتأتأة : غ.. غد !

قال : نعم..

ثم حاول تغيير مجرى الكلام ليخف ارتباكه فقال : هل يا ترى ستشتاقين لي!

رفعت سارة حاجبيها ثم أطبقت شفتيها وهي ترتب حجابها وتنظر للأرض ، ثم قالت بهدوء :

ليست حكاية شوق ، إنما تعجبت أنك لم تخبرني بشيء !

وأنك قررت ذلك وحدك!

ثم رسمت ابتسامة كاذبة على وجهها ونظرت إليه وقالت : على أية حال لا يهم ، اعتن بنفسك جيدا هناك

فقال : لكن ثمة مشكلة أيضا..

حدقت بعينيه ، فقال: لن يتوفر اتصال على الأغلب هناك ، وبذلك لن أتمكن من الاطمئنان عليك ، والتواصل معك..

أخذت أهدابها تربت على عينها ببطء ، وكلماتها على قلبها ، فابتسمت وقالت بلا مبالاة : لا تقلق لن يحدث لي شيء ، تعرفني لا أشعر بشيء أبدا..

قد تستغرب إن أخبرتك أني لم أشتاق لك حين تعود..
نظرت حولها وقالت لتغير الموضوع: الجو بارد أليس كذلك..
استاء محمد وقلبه المضطرب تنكس شعوره وتثبط نبضه فقال : نعم..
بلع ريقه ثم قال بابتسامة رديئة :
حسنا أنا سأعود للمنزل لأرتاح قبل السفر ، أتريدين شيئا ؟
ناظرت عينها عينه بعمق مخيف ولم تقل شيئا..
فقال مكررا : أتريدين شيئا قبل أن أذهب!
فأغمصت عينيها بهدوء وأشارت بيدها له قائلة: يمكنك الذهاب..
ثم اقتربت من سياج السطح وهي تكتف يديها..
كان قلب محمد يعتصر وجعا ، فقد ظن أنها ستتمسك به ، ستبكي لأجله ، ستخبره أنها لن تقدر على حياة دونه..
فبعض اللحظات حرام أن نكابر بها..
ابتعد محمد متوجها لباب السطح ، ثم خرج منه ، كاد أن ينزل بحق لكن قلبه اتكأ على درجات السطح فهوى وجلس محمد ، غير قادر على توديعها..
نظرت خلفها نحوه ، فلم تجده..
أدارت وجهها وأغمضت عينيها لبرهة ، حتى فاض قلبها لحنا ولسانها أخذ يدندن:
"ياخوفي أبقى حبّك
بالأيام اللي جاية..
وأتهرّب من نسيانك
ما أتطلع بمراية
حبسي أنت...
أنت حبسي وحريتي أنت
وأنت اللي بكرهو...
واللي بحبو أنت
ياريت ما سهرت وحبيتك
أنا حبيتك حبيتك"
شدت على قلبها حتى اعتصر ونزلت من عينها دمعة ، ساءها أن ذهب غير آبه بقلبها ، أن قرر وحده الغياب ولم يستشرها..
وساءها أكثر أنها بحق تشعر بغصة بحجم هذه السماء ، لمجرد فكرة غيابه ، وكم كانت تخشى لحظة كهذه..

لكن مكابرتها أعظم من كل مشاعرها ، ذهبت لتطفئ ضوء السطح ظنا منها أنه غادر بحق ، فوجدته جالسا على درجات السطح يرتكز بكوعيه على ركبتيه وينكس رأسه..

وقفت لبرهة على باب السطح ، نظرت إليه ثم أغمضت عينيها وقلبها يرتجف ، قالت:

ظننتك قد ذهبت..

نظر إليها بطرف عينيه ، ثم أعاد نظره للأرض ، وقال :

لقد جئتك خائفا عليك ، ولما وصلت الباب أدركت أني أخاف من غيابك أكثر..

اقشعر جسدها مما قاله فاضمحل لسانها ولم تتمكن من قول شيء!

كان بودها أن تتصرف كأي شخص بموقف كهذا أن تبكي بسرعة أمامه ، وتتشبث بيديه خوفا من غيابه ، أن تقول له على الأقل سأشتاق إليك وتضمه بكلتا يديها ، علها تخطف منه جزءا يصبرها في غيابه ، لكنها شقية القلب ، ذات كبرياء عنيد وشعور متقلب ، حيث إنها كلما أرادت البوح تلقائيا تجد لسانها يتراجع للخلف حتى تكاد تبلعه بحق..

ظلت واقفة بلا أن تنطق ، تحاول أن تجبر نفسها على فعل أي شيء..

نظر لها محمد وقال : ليس وقت قسوتك سارة..

نظرت بعينيه لبرهة ثم دخلت للسطح ، فنهض ولحقها قائلا : سارة..

أحادثك!

جلست سارة على حافة السور ، متكئة على السياج ، والهواء يطرق ظهرها ويعبث بأطراف حجابها ، وينخر عظامها..

وقف محمد أمامها ، ونظرت له بإنصات ، فقال مسترسلا:

ماذا أفهم من صمتك هذا!

سارة ،

بربك كفي عن عنادك وقسوتك ، لا وقت لدي لأذيب جمود صمتك ونظراتك وقولك..

سأغيب عشرة أيام فقط وأعود..

لن يحدث لي شيء ولن..

فقاطعته قائلة : لا تعزيني ، لست قلقة عليك ولا علي ، ولا يهمني إن غبت أم حضرت..

ابتسمت ابتسامة باردة ، ثم قالت وهي تنظر في عينيه: فقط اعتن أنت بقلبك..

فقال : بحق!أتقصدين ما تقولينَ!
رفت أهدابها بارتعاش وأزاحت نظرها عنه ، ثم رفعت حاجبيها وقالت له وقد أعادت بصرها إليه: لم تستشرني بالأمر ، ولم تخبرني بشيء..
حادثتك منذ ساعات والخوف يملأ عروقي دمعا ، من تلك العجوز!
اختنقت وكادت تسقط من عينها دمعة ، فكتمت أنفاسها بإطباق شفتيها ، بينما ظلت تنظر له بعم ، ثم أتبعت بهدوء وبطء: هدأتني ، ثم أتيت لتحقق الرؤية!
دعك من غيابك ، وخوفي عليك وشوقي لك بعد كل هذا الاعتياد الذي أجبرني حضورك عليه بكل اطمئنان وتسليم..
دعك من عيد ميلادي الذي سيكون بعد أسبوعين ، وقد تكون هناك ، حتى لن تتمنى لي به أن أكون بخير..
ودعك من شوقي لرؤيتك بعد أن بت تحتل كل شيء حولي ، فأنا..
بلعت دمعها ووضعت يدها على فمها لتمنعه من الارتجاف ، وقد بدأت نبرتها بالميل للبكاء ، ثم أكملت بعد أن حطت أهدابها العليا على موطنها وأخرجت كل الهواء المتجمد بداخل أوردتها على هيئة زفير: فأنا قوييية جدا ، ولن آبه بشيء..
لكن أخبرني ..لو أفقت خائفة..
لم تتمكن من أن تكمل جملتها ، فهوت دمعتها من عينها أمامه.. مسحتها سريعا ثم نظرت إليه ورفعت أكتافها بقلة حيلة وقالت ، وهي تثني زاوية فمها وتنظر للأفق :
قلت لك اذهب ، ولا تهتم..
أوردة محمد اشتعلت جمرا ، ولسانه قد بتر تماما ، وقد رآى دمعا ينسكب على خدها ، لون عينها الذي تحول للون الجمر ، وارتجافة شفتيها ، وإحساسه العظيم باختناقها ، لم يتمكن من قول شيء واحد ، ظل واقفا أمامها ، الهواء يصفعه ، وكلماتها تنبش داخله ، وفكرة العمل مازالت تتأرجح داخل عقله..
أراد البكاء فقط ، لكنه لم يكن جريئا بما يكفي لفعل ذلك..
وقفت سارة وأدارت وجهها عنه وقالت بعد أن مسحت دموعها وبعضا من نبرة بكائها :
يمكنك السفر كما تشاء محمد ، أنا أبالغ فقط ، سأكون بخير
فقال محمد وصوته بالكاد يخرج من حنجرته: س.. سألغي سفري..
نظرت إليه سارة وقالت : لا تفعل ، لا بأس سأنتظرك..
لم ينظر لها محمد ، كان يهرب بنظره منها ، خائفا أن يهوي ضعفه أمامها تباعا..

قال وهو ينظر للأرض: سأنصرف الآن..
رفع نظره لها ببطء وقال: و.. أنا آسف..
ثم تحرك نحو الباب عازما على الذهاب ، ودمعة تشكلت بعينه ينتظر التواري ليسقطها ، قابضا عليها بأهدابه بكل ما تبقى له من قوة..
شعرت سارة بأمواج صدرها ترتفع وترتفع ، ولما كاد أن يأفل أسرعت ناحه ونادته: محمد..
رفع محمد نظره للأعلى ؛ عل الدمعة تنزلق داخله لحين آخر ، حاول التنفس ، فوصلت له وقفت أمامه وقالت بابتسامة رقيقة وهي تميل رأسها: لن تذهب الآن..
طافت عينه بوجهها ولما أرست على عينيها قال بصوت أشبه بالهمس: سأعود غدا..
تشكلت دمعة بعينها وسقطت ممسكة بها أختها ولكنها لم تحاول منعهما ، فقالت وهي ترتجف: سأبكي كثيرا لو ذهبت.. ولن تعلم عن بكائي شيئا..
عادت دمعة محمد تقف بمدمعه ، ولو سقطت لتبخرت قبل أن تلمح لشدة حرارة جسده ووجهه
فتوجست سارة لما رأتها ، وقالت بهلع : محمد أتبكي!
محمد.. بالله عليك ، أنا آسفة.. والله لم أقصد
أغمض عينيه وسار للداخل هاربا منها ، فلحقته وهي تقول: لا لا لن تبك..
أمسكت بذراعه ووقفت أمامه مباشرة فقالت وهي تمسح دموعها : انظر إلي ، ها أنا لا أبك..
هيا يا قلبي اضحك..
هيا دعني أرى ، دعني أرى..
رفع عينيه فكانت متقدة كالجمر ، وابتسم ابتسامة لا تختلف كثيرا عن صمته..
فأمسكت يده وقالت وهي تنظر لها: ستسافر ، وتعود لنحتفل بذكرى ميلادي سويا ، وستحضر لي هدية جميلة جدا ، لا تتحجج وإلا لن أدعك تسافر..
رفعت نظرها له بحب وقلق وخوف وقالت: اتفقنا..
فابتسم محمد لجمال روحها وعفوية حبها ، كانت نظراته غريبة جدا ، نظرات شوق مملوءة بالحزن والحب وأطنان من التعلق..
فقالت له بعد أن أطال النظر ، محاولة إخفاء خجلها وارتباكها بابتسامة حيية وقالت: لمَ تنظر إلي هكذا!
فقال : لأني أحبك..

أنزلت بصرها نحو يده ، ثم أعادتها إليه ، ثم عاودت الفرار من نظراته فأفلتت يده وعدلت حجابها وقالت بعد صمت طال لدقيقتين وهي تزم فاهها وبنت خدها الخجولة ظهرت: وأنا.. والله..
فأمسك هو بيدها وقال: انظري إلي..
رفعت نظرها نحوه وسقط قلبها ، فقال : وأنت ماذا ؟
قالت دون مقاومة ، ونظراتها تعانق نظراته: أأحبك..
ولكنها لما قالتها سقطت بقايا قوتها المفتعلة وبكت..
أفلت محمد يدها ووضع يده على رأسها مقربا إياها من صدره ، فبكت من كل قلبها ، بينما محمد يشد على كتفها كلما اشتد بها البكاء ، ويقبل يدها وجبينها ويهدئها حتى هدأت..
فرفعت وجهها عنه ومسحت دموعها قائلة: ليس حرام ما فعلناه أليس كذلك!
فقال : أنت زوجتي يا سارة ، ووالله إني لأخاف الله فيك ، أكثر مما أخافه فيني ، لا يمكن أن أكسبك إثما ، أريدك حلالي أرضا وجنة..
قالت والدموع تنساب فتمسحها بيديها : والله لم أبك بهذا الشكل طوال عمري ، لكني أعترف بحق أني لم أعد أتخيل حياتي دونك.. لكن..
وارتجف صدرها محدثا اضطرابا بأنفاسها..
لا بأس بذلك سنتحمل هذا البعد ، كما قلت علينا أن نتحمل لأجل مصاريف الحفل
فقال محمد: كلا سألغي الموعد ، ولن أذهب غدا..
الأمر لا يتعلق بك وحدك ، أنا أيضا أدركت أني لن أكون قادرا على غيابك كل هذا الوقت
فعلقت عينيها به وقالت بعد أن عقدت حاجبيها بدلال: أريد أن أجرب شعور الشوق..
ستسافر
ضحك محمد ضحكة كسولة وقال: بربك..
فقالت بمرح بعد أن ضحكت بصوت مسموع: بلى ، ستسافر ، وسنشتاق لبعضنا البعض ، لنحب بعضنا أكثر ، ولن تذهب مرة أخرى لأي مكان إلا وأنا معك..
فقال محمد مبتسما: بأمرك ، لكن بشرط
قالت سارة: ما هو ؟
قال: أخجل أن أقوله..

ضحكت سارة ثم قالت: قل أو اصمت كفاك شغبا..
فقال: أريدك أن تهديني قميصك..
فقالت: أأ..أي قميص !
فقال: آخر قميص كنت ترتدينه..
فقالت بعجب: لمَ!
فقال: سيؤنسني بغربتي..
ستكونين بجوار والدتك ووالدك وإخوتك وضوضاء المدينة وسأكون بغربتي وحدي ، فأريد قميصك ليرد إلي روحي كلما ضلت طريقها بحثا عنك ولم تجدك
قالت سارة وهي ترفع حاجبيها: امممم ، حسنا ، وأنا أريد قميصك أيضا!
فضحك قائلا: لن أعود بلا ملابس طبعا!
فضحكت وقالت: لا شأن لي ، إن لم تعطني قميصك لن أعطيك شيئا..
ضرب رأسه بكفه وقال: كفاك عنادا ، كيف سأخرج غدا!
لقد كويت القميص قبل أن آتي ، كل قمصاني الأخرى مطوية بحقيبة داخل كراج منزلكم..
فقالت بعناد: شأنك.. أنا قلت مالدي
فقال سأدعه لك بالكراج ، لن تجعليني أضحوكة أمام عمي ، جيد!
فقالت بشقاوة: وعد!
قال: وعد..
صمتا لبرهة وقلبهما يتأرجح على عتبات الشوق وهما يتأملان الوادي الذي يطلان عليه
فقال محمد : هل بردت ؟
قالت سارة: امممم ، محمد..
قال: قلبه!
قالت: أيمكنني أن أسمعك شيئا!
فنظر لها محمد إذ كانت تقف بيساره ، وجسده موجه للأمام وقال: أتمنى ذلك..
فقالت له: لكن إياك أن تنظر لي حتى أنهيها..
فضحك وقال: حاضر.. أمرك
أدار وجهه عنها ، وأخذت تغني بصوت يعدل برد الهواء دفئا:
"

طول عمرى بأقول لا أنا قد الشوق وليالى الشوق ولا قلبى قد عذابه

وقابلتك انت لقيتك بتغير كل حياتى
ما أعرفش إزاي انا حبيتك ما أعرفش إزاى ياحياتى
من همسة حب لقيتنى باحب وأدوب فى الحب وصبح وليل على بابه
****

فات من عمرى سنين وسنين شفت كتير و قليل عاشقين
اللى بيشكى حاله لحاله واللى بيبكى على مواله
أهل الحب صحيح مساكين
ياما الحب نده على قلبى ما ردش قلبى جواب
ياما الشوق حاول يحايلنى واقول له روح يا عذاب
ياما عيون شاغلونى لكن ولا شغلونى
إلا عيونك انت دول بس اللى خدونى وبحبك أمرونى
أمرونى احب لقيتنى باحب وأدوب فى الحب وصبح وليل على بابه
****

يا اللى مليت بالحب حياتى أهدى حياتى إليك
روحى..قلبى..عقلى..حبى كلّى ملك ايديك
صوتك..نظراتك..همساتك شىء مش معقول
شىء خللى الدنيا زهور على طول وشموع على طول
الله ياحبيبى على حبك وهنايا معاك الله يا حبيبى يا حبيبى الله الله
ولا دمعة عين جرحت قلبى ولا قولة آه
ما بقولش فى حبك غير الله الله يا حبيبى على حبك الله الله
من كتر الحب لقيتنى باحب وأدوب فى الحب وصبح وليل على بابه
كان العم والد سارة وزوجته يقفان عند باب السطح وسمعا سارة وهي تغني فأراد العم الدخول ومقاطعتها لكن الخالة أمسكته وقالت له: دعك منهم هذه الليلة سيسافر غدا ويغيب ما يقارب الشهر فلا تحرمهما لحظة حب كهذه
فوافق على مضض..
أنهت سارة الأغنية ، لكن محمدا لم يتمكن من فتح عينيه لتغلغل نبرتها بأذنه وانسيابها مع ذبذبات نبضه..
فقال: يااااه ، والله إن صوتك وحده ليعدل كل نعيم الأرض..
فابتسمت سارة بخجل وقالت: فقط هذا ما كنت أريد قوله فقال :
"طول عمري بخاف من الحب وسيرة الحب. ".

ولما عرفتك صرت أخاف أن أطفو على شاطئه ، والله لقد بت أهوى الغرق فيه ، وكلما تمنعت عنه ألفيتني أمنع نفسي من الحياة فأعود بكل جنوني مجددا أسابق العشاق بالغوص فيه ، ولا أهدأ حتى أتيقن تماما أني أتقنت الغرق..

تظاهر العم بصعوده الدرج ليلتفتا لحضوره والخالة ، فقال وهو عاقد الحاجبين: لا يمكنكما أن تكونا مهذبين ، وتقولا أنكما أنهيتما الحديث وحدكما..

يجب أن آتي بنفسي وأنزعكما من جوار بعضكما البعض

ابتسمت سارة بخجل ، فضحك محمد وقال: هذا ما يسمى بطرا بالنعمة..

لم أصدق أنك سمحت لنا بالبقاء وحدنا ، وتربد مني أن أقول لك أننا اكتفينا !

فقال العم ممازحا إياه: لا تحلم بهذا مرة أخرى..

فضحك الجميع ، ثم قالت الخالة: الساعة الثانية بعد منتصف الليل عليك أن تنام لتتمكن من الاستيقاظ غدا..

نم هنا لن تجد مواصلات بهذا الوقت ، وغدا صباحا تعود لمنزلك تحضر حاجياتك وتسافر بإذن الله

قال محمد: لا بأس خالتي سأجد وسيلة نقل بإذن الله

فقال العم : كما قالت لك ، هيا العشاء جاهز..

وبعد تناولهم العشاء ، ذهبت العائلة للنوم ، بينما نام محمد بغرفة الضيوف

وقبل أن ينام أرسل لها رسالة على هاتفها ، أحضري قميصك قبل أن تنامي..

فردت عليه: سأضعه على باب الغرفة ، افتح الباب وخذه

ولا تنسى قميصك غدا..

فأرسل لها قلبا أزرقا وكتب : حاااضر

***

-12-

سافر محمد في صباح اليوم التالي ، وحين خرجت سارة لجامعتها وجدت قميصه موضوعا بكيس أسود ومعلق على باب خزانة الكهرباء ، فتحت الكيس وشمت قميصه فتذكرت ما حدث البارحة ، وشعرت بقشعريرة تجتاحها من أخمص قدميها حتى شعر رأسها ، أعادت القميص للكيس وأغلقته جيدا ، ثم وضعت الكيس بحقيبتها وذهبت للجامعة..

كان اليوم يمر سريعا ، لكن بطريقة جافة جدا ، تنتقل سارة من مبنى لآخر لتأخذ محاضراتها ، ثم تسرق بعضا من وقتها جريا للمصلى كي لا تفوتها الصلاة على موعدها ، وحين جاء وقت استراحتها جلست مع صديقاتها اللواتي مر على جلوسهن سويا وقت طويل ، بسبب الإجازة..

كانت تحاول التركيز بكل شيء ، لكن محمدا لم يغب عن خاطرها ولا للحظة واحدة..

بينما محمد كان يشغل وقته بقراءة الكتب ، وتذكر ملامح سارة ، والصلاة..

عادت سارة للبيت بتزامن وصول محمد لشقته قرب المشروع ، مع مجموعة من الشباب الجدد وواحد من أصدقائه المقربين بالبلد ، إذ أنجز معه كل مراحله الدراسية من الأساسي وحتى الثانوي ، ثم تفرع كل واحد منهم بمجال معين ضمن التخصص ذاته..

ظلت سارة تراقب الشارة الخضراء الخاصة بمحمد طوال الوقت على أمل أن يتصل بلحظة ما ، أثناء دراستها ، وجلوسها..

وفي المساء نادتها أمها للغداء مع العائلة ، كانت غريبة الأطوار بعض الشيء ، إذ تطلب والدتها أن يحضروا شيئا من المطبخ فتقوم أختها سريعا وتظل هي وكأنها لم تسمع ، وهذا ما كان يحدث بالحقيقة..

كانت جالسة معهم لكنها شاردة تماما ، تتصرف ببلاهة ، وتطيل صمتها..

ولما أنهوا الطعام ساعدتهم في توضيب الطعام ورفعه ، ثم توجهت لغرفتها ، نادتها أمها لتشرب القهوة معهم ، حرصا منها أن لا تظل نائمة وهادئة هكذا ، إذ أخبرت الخالة زوجها أنها تفتح الكتاب أمامها ، وتظل مشغولة بهاتفها ، وثم تتمدد على الفراش بصمت ، وحين يدخل أحد على الغرفة تحادثه ببرود..

لم تكن سارة تشعر بنفسها ، لكن قلبها كان يتصرف بعفوية ، وتتخيل بكل لحظة أن محمدا قد يحادثها الآن..

رفضت سارة شرب القهوة معتذرة منهم بأنها ستنام لأنها متعبة جدا ، فقالت الخالة للعم : قل لها أن تأتي وتشرب معنا القهوة هيا..
ثم قالت لأخيها: اذهب وقل لها تعالي الآن لوالدي..
فقال العم معارضا: تعال ، اجلس هنا
ونظر للخالة وقال : دعك منها اليوم فقط..
لم يعمل محمد باليوم الأول إذ وصل العمال متأخرين بساعات متفاوتة ، وقرروا البدء بالعمل منذ صباح غد ، جلس محمد وصديقه مساء بعد أن أعدا إبريقا من الشاي ، ثم تحدثا عن عدة أمور ، ومن بينها أمر خطبة محمد الذي أسعد صديقه جدا ، حيث أنه كان متزوجا منذ عامين ولديه طفلة صغيرة..
وأكثر ما استنكره صديقه منه أن تزوج من بلد أخرى ، ليس هذا وحسب ، بل وقرر أن يستقر هناك بعيدا عن أهله وأصدقائه ، فلما سأله عن السبب أجاب محمد: النصيب!
لو أروي لك حكايتي معها لن تصدقني ، ولن أستنكر إن وصفتني بالكاذب..
لكن الله شاء أن يجمع الشتيتين الغريبين في لحظة ما وطريقة ما هيأها ويسر لنا كل الصعاب ، ثم خلق بداخلنا عزما وإصرارا للوصول ، حتى وصلنا..
ووالله لن تصدق مدى اختلافنا واندماجنا بذات الوقت ، كقطبين مختلفين ، ملتحمين بجسم واحد ومغناطيس واحد..
لكن ما يمكنني تبرير موقفي به ، أني كنت غريبا عمن حولي في وطني ، ولما تغربت بحضورها عرفت بحق ما معنى أن يكون لك وطن..
ضحك صديقه قائلا: الله الله ، على ما يبدو أنك هائم بها..
تكاد تقول شعرا..
خجل محمد منه وقال بتعجب: لن تصدق كيف أتكلم حين أراها ، لساني هذا المعقود بعقلي يفلت مني أمامها ، فأقول ما لا يمكن قوله..
ثم ضحك بعد أن أخذ رشفة من الشاي الساخن ، وقال :
دعني أضحكك علي..
تعرف أني أسمع الأغاني دوما حين أركض أو ألعب الرياضة أو أمارس المشي السريع ، منذ أيام المدرسة..
أتذكر حين كنت تتهمني دوما بأني غارق بحب إحدى الفتيات ، وأخبرك أني قد أكون كذلك لكني لن أخبرك من تكون.

أقسم لك أني كنت أعيش قصة حب وحدي لفتاة لم أرها يوما ، حتى شكلها لم أكن أتخيله أبدا ، إنما كنت أرسم لها صفات محددة داخلي ، وأغني بشوق لها ، وقد أبكي لانفعالي مع أغنية ما ، لكنها لم تكن..

فضحك صديقه حتى كاد يغشى عليه وقال: تمزح!

فقال محمد وهو يضحك: والله ، كما أقول لك..

اسمع

أتذكر خجلي حين قال لي المعلم قف واقرأ القصيدة التي كتبتها..

فارتفع صوت ضحكة صديقه وقال: أذكر يومها أنك قاطعتني لأسبوع كامل لأني أخبرت المعلم بقصيدتك

فقال : لا والأكثر إضحاكا موقف المعلم حين كدت أبكي بمنتصف البيت ، فقال لكم أرأيتم هذا ما يسمى بإحساس الكاتب..

وصفق لي الجميع بحرارة

حينها عدت للمقعد وأنا أقول بعقلي ، أي إحساس يا غبي ، كادت أطرافي تشل لفرط خجلي..

وهكذا أمضيا السهرة ، حتى صليا العشاء وناموا ليستيقظوا باكرا ويباشرا بالعمل ، بعد يوم مرهق لما لقياه من نصب إثر سفرهم..

بينما سارة فقد لجأت للنوم المتواصل ، فكلما استيقظت أجبرت نفسها على النوم مجددا ، لقد كان نوما أشبه بظل الشيء ، يخيم على منطقة ما ويظهرها سوداء لمن مروا ، وما كان ذاك السواد حقيقيا إنما كان بعني غياب الشمس..

لكن أمرا واحدا ، حدثا واحدا ، لم يتزحزح من فكر سارة ، تلك اللحظة التي ضمها فيها محمد ، فكلما تذكرت حضرها شعور شلل تام ، وحرارة تعتليها ، وتفكر كثيرا بعد استحضار الشعور وتذكره فيم إذا كان ما فعلته إذ ظلت تحت جناحه باكية ، حلالا أم حراما ، إن كان الله سيعاقبها عليه بفقدانها محمد أم أن الأمر لا بأس به فقد كان شعورا خارجا عن إرادتها والله يرى..

ظلت سارة تنام وتفيق ، تنام وتفيق حتى صارت الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل ، جلست لتشرب الماء بيد ثقيلة وبال أثقل ، مثقل بغيابه وأفكارها ، والذكرى الأخيرة تحديدا ، وشعرت باختناق شديد ، فتحت على رسائل محمد ، فقالت بتأفف: حسنا ، اكتفيت من غيابك ، وأقسم أني أشتاق..

تكورت على نفسها ممسكة بهاتفها ، فتحت على آخر صوره ، وظلت تنظر إليه بعتاب ، وكأنها تسأله: أتشتاق مثلما أفعل!

أم أنك نائم الآن..

وبلا شعور انبثقت دموع من نبع عينيها متلهفة للقاه..

رفعت رأسها وفتحت النافذة من جهتها بأسرها ، ثم أغمضت عينيها واضعة صوت موسيقى كمان حزين بأذنها ، آذنة للدموع أن تسقط كما تريد..

كان شوقها وشعورها عميقين جدا ، لدرجة أن الحزن تسرب ليغرق محمدا الذي بداخلها ، فأفاق محمد وأمواج صدرها تعثو بداخله ، انقباض شديد بصدره ، وشوق يفتك به ، تقلب في فراشه قليلا ، من جهة لأخرى ، ومن أخرى لأخرى لكنها كانت تحيط به بإحكام..

فتح هاتفه وأخذ يكبر صورتها ويبتسم لبراءة ملامحها ، وللحب الذي أودعه الله بداخله قصرا ، ولما شعر برغبة بالبكاء بحق ، ذهب وتوضأ ليصلي ركعتين قيام لله ، ولما وقف بين يدي الله عجز أن ينطق ، كان قلبه لايزال في وطنه ، بين أضلعها..

فقال بعد اعتصار لقلبه وقوله: ربي إني وكلتك قلبها ، فرحها وحزنها ، فلا تريني بها بأسا ، ولا تذقها من هذا الغياب لا نصبا ولا شوقا..

واجعل لقلبها فوق هذه الأرض سقفا يقيها شر غيابي ، أحببتها اللهم فيك حبا خالصا ، فأكرمت علي بها ، فأتمم علي نعمتك بقربها وزواجها بعد حين..

واجعل الأيام تمر سريعا ، فالوجد قد سكن الفؤاد ، وأصابنا السهاد ، فإن لم ترحمنا بعد حالنا هذا ، لا نبض يظل فينا ، وتحل لعنة الشوق علينا..

أما أنا فلا بأس بما في خافقي من شوق ، لكنها صغيرة وضعيفة جدا لا تحتمل.. فهون عليها ، وارفق بقلبها الصغير الذي ترهقه عنادا ، فما لنا من دونك ملجأ ولا مُلجِئ يا الله..

***

-13-

سمعت سارة صوت والدها يتوضأ على المغسلة بجوار غرفتها ، فشعرت برغبة بحديثه ، عل قلبها يهدأ ويطمئن..

وقفت أمام مرآتها لترى إن كان في ملامحها بقايا آثار بكاء ، ثم وبكل هزل جرت نفسها لغرفة الجلوس وجلست على المقعد بانتظار والدها حتى ينهي صلاته ، كان القمر يقف مباشرة أمامها ، مضيئا بطريقة مختلفة ، والهواء بارد جدا تماما كما نسيم البحر..

أنهى والدها صلاته فقال لها: وأخيرا استيقظت أميرتنا النائمة..

ضحكت سارة بضحكة متعبة و قالت: متعبة جدا ، من الجامعة..

فقال : بل من غياب محمد..

نكست نظرها ليدها وقالت: أبي..هل محمد زوجي الآن شرعا ، أم لا ؟

نظر إليها بعمق وقال: حسب..

فقالت : حسب ماذا ؟

نظر للقمر وقال لها: ليس بدرا ولا هلال..

بعض الإجابات لا تحدد ، إنما تفصل ، ولكل تفصيل جواب..

ثم التفت للتلفاز وقال : فأخبريني بوضوح عما تريدين الاستفتاء فيه..

قالت : اممم ، لا شيء لا شيء..

قال : أعلم أنك ستقولين كل شيء لي ، بعد أن تخدري عقلي كأب لك ، لأستوعب ما تودين قوله ، دون الخلط بين شعور الأبوة والحكم الشرعي..

نظرت إليه بتشبث وقالت: الأمر يتعبني بشدة..

فقال مطمئنا إياها: قولي..

قالت: ل.. لقد..

اممم

حسنا سأخبرك بما حدث..

لم اتقبل فكرة غيابه ، فتبلدت فجأة وقسوت عليه كثيرا ، حتى كدت أراه يبكي!

ثم أخذت نفسا عميقا وأتبعت:

كل ما حدث أني أثناء حديثي تعثرت بدموعي وتلعثم صمتي بصوتي..

انهرت

بكاء

ف.. ف..ضمني!

نظر لها والدها وقد عقد حاجبيه مستنكرا: كيف!
توجست سارة قليلا ، وارتبكت فقالت بتأتأة :
لقد ، لقد قرب رأسي بيده لصدره وأنا أخبئ وجهي بكلتا يدي باكية ، محيطني بأحد ذراعيه وكفه على كتفي..
لم ينظر لها لبعض الوقت ، إذ كان ينظر بشرود لشاشة التلفاز
فقالت والدموع تكاد تتجمع بعينها: تعرف أنه يخاف الله ، وأنا كذلك..
لكني شعرت بحق أني بحاجة له..
صباحا كنت قد حلمت به بكابوس مزعج ، ونذير للشؤم..
ومساء أخد الحلم يتحقق..
أشعر بإرهاق شديد..
فقال والدها بهدوء وبطء : القرب الزائد نبتعد عنه حرصا ، وإنفراد المخطوب بخطيبته لابد أن يتم تحت أعين أهلها ، وذلك لنأمن وسوسة الشيطان..
لذلك وبالرغم من أني واثق جدا ، وأكثر مما تتخيلين بكما تجديني أحرص الناس عليكما ، العفة يا بنيتي تديم العلاقات وتمنحها رونقا مميزا ، وإني والله لأراكما عفيفين طاهرين نقيي السريرة والقلب ، فجاهدوا ما أمكنكم أن تظلوا صائمين حتى يتم زفافكما ، حينها لا شروط ولا قيود تحول بينكما..
قالت سارة بقلق: هل سيعاقبنا الله لأنا فعلنا ذلك!
نظر إليها العم وعقدة حاجبيه لا تزال فقال:
ألم يرك بيوم الخطوبة بلا حجاب ، ألم ترقصي معه ، وضمك!
كيف إذا ستعاقبان على شبه ضمة بلحظة أتلفت قواكما..
شرعا لا ذنب عليكما ، إنما تؤاخذان بعرف شرحته لكما منذ البداية ليس أكثر..
قالت سارة: لن يتكرر ذلك أبدا..
فحاول مسح عقدة جبينه قائلا : أتمنى ذلك.. هيا اذهبي للنوم ، لديك جامعتك غدا ، ولدي عملي..
وقفت سارة وقبلت يده ورأسه ووجنتيه وقالت له: ارض علي..
فابتسم لها وقال : رضي الله عنك وأصلحك
فقالت مودعة : تصبح على خير..
ذهبت لغرفتها ، وكأنما الشمس في أول مطلعها بداخلها ، بددت شيئا مما كان فيها..

وقفت أمام مرآتها واقتربت منها ، فتجمعت الدموع بعينها وقالت بصوت أشبه بالهمس وبها نبرة بكاء: يارب ، أنت علام الغيوب وما تخفي الصدور..

ثم ظلت تنظر لنفسها بعمق ولا تدري من أين تبدأ وإلى أين ، فمسحت دموعها وخلدت لفراشها تحتصن دميتها وسيم ، وتضع رأسها على كتفه ، لم تتجاوز الدقيقة حتى وكانت قد دخلت بغيبوبة نوم عميق..

***

-14-

"هاقد مر أربعة على غيابك..
ومن فرط شوقي لك أقسم أني لكدت أنسى ملامح وجهك..
كيف حالك محمدي ، وكيف حال الياء أمازالت تعني لك شيئا كما تعني لي..
ما أتفهني بحق ، لم تغب عني سوى أربع ليالي ، وها أنا أوثق استسلامي على أوراق دفتر مذكراتي ، وأعترف لك أني لست بخير أبدا..
قلبي البليد سقيته لهبا فأفاق على الحياة يناجيك بكل ما فيه ، ولا يجد لترددداته صدى ، لكن لا بأس مازال الوقت مبكرا على انهياري ، فلازلت حين أشعر بضيق أصلي ، وأبتسم لو قال لي أحدهم شيئا طريفا ، مازلت أجالس العائلة ، وأسمع صوت والدي ، ومازلت أتحدث بغرابة رغم هذا النبض العجيب ، لكني سأخبرك سرا بربك احفظه داخلك بصمت ، وإن تلاقت عيني بعينك بالمنام فلا تحاول أن تتذكرها ولو سرا..
فقد وعدتك أني سأستمتع بالشوق ، وأني سأشتاق لك كثيرا..
ولكني وبكامل إرادتي أجلس مساء على شرفتي وأناديك دعاء حتى تحضر لي ، فأضع رأسي على كتفك وأحادثك طويلا ، فإن بزغت الحقيقة وبدأ النعاس ينتشلني من طيفك رويدا رويدا ، ضممتك دون أن تدري بكل صمت وغفوت بأحضانك حتى أفيق فأجدك قد فررت مني ونسيت قميصك الأخير عالقا بين يدي ، فأشعر برضى وحزن ، رضى لوجودك ، وحزن لذهابك مرة أخرى دون إذن..
يا محمدي ، إني لا أشتاق أبدا لك..
أنا بكل بساطة قد خرجت من تردد الحياة وأتقنت استحضار الأرواح..
وأنت تعرفني عنيدة لن أسلم قلبي لغياب وفراق
فإن شئت الغياب غب ، واذهب بعيييدا لآخر المجرة ، لكني حتما سأعيدك لي هنا وأشم عطرك مجددا ، لن تظل عاريا دون قميصك لوقت طويل "..
أرادت سارة أن تمر الأيام دون أن توثق منها شيئا ، كي لا تذكر ضعفها وخوفها حين يعود ، وكي لا تتذكر فيما بعد هذه الأيام ، لم تشأ أن توثق في ذكرياتها ضعفا وشوقا لأحد..
لكن ال "محمدي " كان فوق إرادتها وعقلها ، أمسك يدها وجر حبرها لتبوح بما تريد وما يختلج في فؤادها..

أما محمد فلياليه كانت قصيرة جدا ، لا تتسع سوى للنوم ، العمل طوال اليوم والحرارة مرتفعة جدا ، كانت تبخر كل شيء من عقله وذاكرته إلا تلك التي تشكل بطانة وعيه ولا وعيه..

كان يكثر الشرود في وقت الاستراحة ، ويقف مبتسما عند مقطع ما من أغنية يسمعها ، حتى بات أمره مكشوفا لدى الجميع..

أراد صديقه إخراجه من الحالة ، فبينما كان يجلس على هاتفه ، نظر لمحمد خلسة ، فرآه ينظر للسماء مبتسما ، فقال له: محمد محممد..

نظر محمد له واعتدل بجلسته فقال له: هاا

قال: بمن تفكر..

فابتسم محمد بقلة حيلة ابتسامة شوق لها ، فهمها صديقه فقال له ضاحكا: بربك لا تضحك سأسألك سؤال طفولي ، أحقا يرى العشاق النجوم تتشكل على هيئة من يحبون!

فوالله لم أجد عاشقا مثلك..

ضحك محمد ورماه بالوسادة التي يتكئ عليها وهو يقول:

أتراني بطلا في سبيستون..

فقال بشقاوة: لا تنكر لقد رأيتك تبتسم لها الآن

فاتسعت ضحكت محمد قليلا وقال: ألم تجرب العشق بحياتك!

قال : بصدق ، بصدق لا

أظنني لم أتجاوز مرحلة الحب والمودة

أعاد محمد ظهره متوسدا يديه ثم قال: لا أراها بالسماء فقط ، أراها هنا كتهيؤات وذكريات ، وأراها في أغنية أهديتها إياها بكل شعور ، وفي هاتف كنت أكتب لها كل يوم عليه بدل السطر سطورا ، أراها في لحظات صفائي وفي وسط الضوضاء..

أراها في سجودي ، في قيامي ونومي ، في وجوه من أحب ، في كل شيء أراها بصورة ما بهيئة ما ، رؤية أعمق بكثير من مجرد ملامح وشكل..

فقال سارحا معه في كلامه: العشق أمر جميل ، أليس كذلك!

فقال محمد: غريب.. شعور يفصل عالمك لحقبتين إحداهما كل السنين التي سبقته وأخرى يبدأ بها ، ولن تتمكن من الإفلات منه أبدا مهما حاولت ، ومهما أردت..

هو ابتلاء عذابه بقدر نعيمه..

فقال: لكن كثر من عشقوا ولم يتزوجوا بمن أحبوا رغم صدق عشقهم وطول أمده!

فقال محمد وهو ينظر لصديقه بتفهم: لقد سألتك ألم تجربه ، فقلت لقد كان حبا..
وهذا ما يمكنني إجابتك به ببساطة
فإن كان عاشقا بحق ، وإن لم يتمكن من الحصول على هذا الشخص ، لا يمكنه أبدا أن يتزوج من غيره ، اللمسه النظرة الكلمة ، لا يمكن أن تكون لغيره ، إلا إن كان لا يخاف الله فهذا أمر آخر..
لأن مواضع الإدراك فينا العقل والقلب ، فكيف سيدرك العاشق ارتباطه بشخص آخر..
قال صديقه: لا تتعجل بالحكم ، فلست تعلم ما يدور خلف جدران هذه البيوت..
فقال محمد مؤيدا إياه: صدقت ، فلكل منا ظروفه..
إنما قلت ما أدركته وشعرت به..
فقال صديقه مغيرا مسار الحديث: صفها لي..
عقد محمد حاجبيه وقال: أغار..
فضحك وقال: مجنون ، لا أريد ملامح شكلها ، إنما شخصيتها وصفاتها وفكرها..
فابتسم محمد بزاوية فمه وقال: أغار من ابتسامة قد ترتسم على شفاهك حين أصفها..
فقال صديقه بعد أن ضحك بصوت مرتفع: أقسسم إنك مجنون ، بحق لست طبيعيا ، يؤسفني أن علي إرسالك للمصح..
فقال محمد: وما أسعدني بهذا الجنون
ثم قال وهو يمسك هاتفه اسمع لهذه الأغنيه ، لكن إن ابتسمت ، أقسم أني سأضربك..
ضحك صديقه وقال: حسنا حسنا مجنون سارة لن أخاطر بحياتي..
فأسمعه أغنية تقول كلماتها :
"

بتقولي اوصفهالك..
اوصفلك
رقيقه.. بريئه.. زي الموج بتتحرك
الضحكه الحلوة.. نور الصبح بيضحكلك
وصوتها غناها.. عصفور بيحكي ويشاغلك
وتقولي اوصفهالك..

اوصفلك
عارف دوبت في حبها ليه.. عارف..
لما لقيت في عينيها حنيه..
شوقها ليا.. ضعفها فيا
عارف دوبت في حبها ليه.. عارف..
لما ناديتني عنيها خدتني لقتني بدوب في إيديها
لما تشوف الشوق واللهفه وتلقى الخوف في عنيها
ياريت عينك مكان عيني..
ياريت قلبك حاسس قلبي
بس نصيب ومخبي.. أكون قبلك حبيب ليها..
وعارف
لما تكون تعبان م الدنيا وتبقى الراحه عنيها
لما تكون عطشان استنى هتشرب من لياليها
لما تحس إنك مطمن وانت في حضن إيديها.. وتقولي اوصفهالك.. اوصفلك" !

***

-15-

الشوق كان يجتاحهما الاثنين اجتياحا ، كانا يحاولان التظاهر بأنهما بخير ، إلا أن كل من يراهما يدرك أنهما عاشقين ، وكأن العشق والشوق احتل شيئا من سيماهم..

لكن الفرق الوحيد ، أن محمد غارق بعمل يسلبه كامل قواه ، ويسرقه من شعوره وإحساسه ، بينما سارة باتت تشعر بفراغ كبير بداخلها وتفكر به كثيرا ، تختصر أحداث يومها كلها وهي تتقلب في فراشها..

كان محمد يعمل بكل طاقته ، وكلما نقص يوم شعر ببعض التفاؤل ، أما سارة فكلما مر يوم أفقدها شيئا مما كان فيها ، وبدأت تؤول إلى الذبول أكثر وأكثر..

في الليلة التي سبقت عيد ميلادها ، جالسها العم ، إذ رأى ذبولا لم يعهده من قبل بابنته ، فأخذا يتبادلان أطراف الحديث مع العائلة ثم وكالعادة تسحب الجميع من الجلسة وظلت هي ووالدها

فقالت: أبي ، سأسألك سؤالا بحق وأجبني عنه..

ماذا جنيت من ارتباطك وزواجك من أمي ؟

أراك ووالدتي دوما مشغولي البال بنا ، تجلسني على أحد فخذيك فتجلس أختي لتراعي مشاعرنا ، على الطعام يتأفف هذا وينتقي ذاك ، فتضعان حصتكما لهم ، تدلل واحدا لتشعره بالرضى وتقسو على آخر لتجعل منه شخصا يعتمد على نفسه ، تفكران بنوع دراستي ، ومصروفي الذي يزيد يوما بعد يوم ، وتشددان على ذاك وذاك وتعاقبهم ليركزوا على دراستهم..

أنت تقسو وأمي تدلل ، ثم تقسو أمي فتدللنا أنت ، وبالنهاية ضاع عمركما أسفل جدران هذا المنزل ، تخيطان من جلودكما وقلبكما عباءات نجاح وفخر نرتديها نحن ، ثم بالنهاية يخرج منا صالح وطالح ، وقد لا ننفعكم يوما بشيء ، وندير ظهورنا بكل بساطة لنرى حياتنا القادمة..

فقال : يا بنيتي ، من أخبرك أن الحكاية كما تقولين ، من أخبرك أننا ننتظر منكم أن تعيدوا لنا ما فعلناه لأجلكم ، أما نحن فقد أخذنا غايتنا منكم مسبقا ، كان أجمل شعور جربته في حياتي كلها لحظة ولادة أمك الأولى ، حمل أخيك الكبير بين يدي ، لحظة ضمه الأولى وأذاني بأذنه!

جلوسي بينكم وسماعي لأصوات شجاراتكم وضحاتكم ، ثم قدومكم إلي لأحكم بينكم ، إحضار هدية ولو كانت بسيطة لأحدكم ورؤية الفرحة بعينه ، تقبيلكم

ليدي حبا وشعوركم بالحزن لو أبيت مصافحة أحدكم ، جلسة نقاش كهذه أو ما أدنى من ذلك ، مجرد اجتماع على سفرة واحدة..

إنها تفاصيل صغيرة جدا لكنها هي الحياة ، كل هؤلاء الساخطين على واقعهم والمنتظرين غدا أفضل تفوتهم الحياة ولا يأخذون منها شيئا سوى القهر والحزن والوجع..

الرضا يا بنيتي ، الرضا وإدراك أنك لا تقدم شيئا من أجل أحد ، أنك إذ تعمل عملا صالحا ، أسعدت نفسك ، ووهبتها جرعة من الكوثر بأجر عظيم ينتظرك..

هذه هي ، فقط لو ركزنا في طريقنا وعرفنا أننا باختبار نتعب فيه لنحظى على درجات أعلى من غيرنا ، تنافسنا لبلوغ فردوس مهرها عظيم جدا ، لشعرنا بالراحة المطلقة..

سأخبرك بسر ، ذات مرة ولأمر ما تشاجرت مع والدتك وتركتني بدونها زمنا ، كانت تقاطعني بالشهور فلا أطيق الحياة ، وأشتااق حتى يفتق قلبي وجعا واشتياقا ، وأذهب لها مرة واثنتين وثلاثة وترفض العودة ، كان كبرياء داخلي يمنعني من الرجاء أكثر ، فبرودها كان يقتلني

وحين وصل الأمر للطلاق أذكر أني لم أذهب إليها ، لا أدري لمَ لم أشأ أن أطلب من أحد أن يتوسط لي ، فذهبت لله ، أمضيت خمسة أيام قبل موعد المحكمة لم أخرج من البيت قطعا ، ولم أبتعد عن سجادة الصلاة ، كان اليقين يملؤني بأن الله قادر على إحداث معجزة ، صليت وعاهدت الله أن لا أجعل حزنا بقلبها ولو كلفني ذلك كل ما أملك من قوة ومال وكبرياء ، وحين انتهت الخمسة أيام كان الموعد مبكرا فاتصلت على خالك لأسأله متى سيكونون هناك ، فقال لي إنها طريحة بالفراش ولن تقدر اليوم..

فرحت جدا ، ثم استنكرت فرحي الذي كان لعدم حضورها ، وحملت نفسي بذات الوقت وذهبت لها ، فطلبت من العائلة أن تدعني معها ، لم أتحدث بالأمر أبدا لم أقدم اعتذارا ولم أفعل أي شيء ، سوى أني قبلت يدها وقلت لها سآخذك معي للبيت وأعتني بك هناك ، وبالفعل أخذتها وانتهى كل شيء..

وحين أخبرتها بما كنت أفعله بغيابها نسيت كل شيء وضمتني ، والله لم أكن سعيدا بقدر سعادتي بطبطبة الله على قلبي واحتضانها لي ، إذ منحني من السعادة ما تلجم لساني وقلبي..

ومنذ ذلك اليوم تعلمت أن لا شيء صعب إذا طلبته من الله وألححت عليه ، بشرط أن تكون ميقنا بأنه سيحدث ، وإن لم يحدث فذلك لخير أعظم يخبئه الله لك والله لا يضيع أجر من أحسن عملا..

ابتسامة سارة وانفعالها طوال الوقت كان يشعر العم بالراحة ، وأما سارة فتذكرت محمد ، وغيابه مما قاله والدها فسألته :

وكيف تحملت غيابها كل هذا الوقت!

ألم تشعر بذبول وفقدان الرغبة بالحياة ؟

هذا تماما ما كان يريده العم من إلتوائه بالحديث وطرح هذا المثال لسارة ضمنيا ، أراد أن يبين لها كيف تتصرف مع غياب محمد ، دون أن يحادثها مباشرة بالأمر ، فقال ونظراته موجهة لها بعمق:

اسمعيني يا بنيتي ، نحن بشر ، والتعلق بمن تهوى قلوبنا أمر وارد جدا ، ولا قدرة لبشري على إنكار ذلك..

إنما ما هيئة الغياب وأثره هذا ما يجعلنا نغيب عن الدنيا حالما يغيبون ، لقد كان غيابها كارثي ، كارثي بكل ما تحمل الكلمة من معاني..

لكن ثمة شعور أو مجرد رابط يشعرني بوجودها ، لقد كنت أخشى أن أحب بالحرام ، كانت فكرة تعلقي بامرأة ، ثم غيابها قسرا لرفض أهلها لي ، أو لزواجها من شخص آخر فكرة تريبني بحق ، غيرتي لا يمكنني ضبطها أبدا ، والحياة لا تسير كما نريد ، لذلك كنت دوما أنظف صدري من أي شعور تجاه امرأة لا بأن أستلطفها ، بل حتى بأن أستوعبها ، كنت دائما غليظ جدا ، وسريع التملص من أي مجلس فيه أنثى ، خشية أن أضعف ، فأذوق الذل بحق ، أما حين تزوجت والدتك ، وكانت امرأة صالحة ، وحده زواجي بها واللحظات التي أمضيتها معها وقلبي يعانق السماء كانت كفيلة بأن أموت راضيا ، وأن أظل أحمد الله وأشكره أن أذاقني لذة الحب الحلال ذات يوم..

لكن حين ذهبت ، تخبطت بكل ذكرياتها ، وبت أصارع أنفاسي ، ولم أعد أطيق شيئا ، وصداع مميت كان يلازمني ، لكني جلست ذات ليلة على فراشي قبل النوم ، أحاسب نفسي ، إلى متى سيظل هذا الصراع بداخلي ، لربما لن أنساها ، ليس ربما بل بالتأكيد..

لكني لن أموت أيضا ، فالحب خلق للأقوياء ، وقررت أن أعود لحياتي السابقة ، عدت لوالدتي وأصدقائي وعدت أتناول الطعام وأجبر نفسي على الضحك والمزاح ،

أشغل نفسي بقراءة كتاب أو تلاوة القرآن وهكذا حتى بدأت الحياة تدب بروحي مجددا ، وعدت أنا الذي كان ، زال صداعي ، وعدت لله..

فكلما اشتقت لها دعوت الله لها أن يلين قلبها ويعيدها إلي ، وأصلي لله حمدا وشكرا على ما أنا فيه..

كنت أعلم أنها ستعود ، لأني ما عصيت الله فيها ، ورغم شجارنا واختلافنا الدائم كنت أجدها الأنسب والأقرب إلي ، كنت أخاف أن أعصي الله ، فيحرمني إياها فأعيش ضنك الحياة ولا أجد للسعادة من بعدها سبيلا..

كنت أشتاق ، لكن قلبي كان مطمئنا لعودتها ، فالشوق جميل جدا ، رغم تعبه وعذابه ووجعه..

لكن العذاب الذي نعذب به أرواحنا شوقا لأحد ، فنهلك أجسادنا وأرواحنا حتى لا تعود قادرة على أداء عبادة الله بحق ، هذا ما قد يعاقبنا الله عليه بحرماننا ممن نحب..

فقد قال عليه أفضل الصلاة والتسليم: لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما..

فلا داعي لأن نموت إن غاب عنا أحدهم ، لا أقول أن نئد مشاعرنا نهائيا ، إنما نجيز لقلبنا الشعور بحد ومقدار معين ، فكثرة الشوق لن تأتي بمن نحب ، بل وعلى العكس تماما سيزيد ذلك مقدار حب الشخص داخلك ، وتهملين عبادتك ونفسك وروحك فلا تلتفتين ولا تفكرين بشيء سواه ، فيعظم حبه داخلك على حب ربك ورسولك ، كما حدث لسيدنا إبراهيم عليه السلام إذ رزقه الله ولدا صالحا ، ولتعلمي أن لا أحب على قلب الوالد من ابن صالح ، فأحبه حبا شديدا فائضا فأمره الله بذبح ابنه بالآية الكريمة { فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ }

هل تتخيلين حجم الوجع بداخله بلحظة كهذه ، وهو نبي الله الرجل الصالح وقد أمر بذبح أعز خلق الله عليه ، فقال ابنه لشدة صلاحه {ۚقَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}

وظل الاختبار قائما ، فطالما لم يقدم على تنفيذ أمر الله فلا يزال ابنه بقلبه أحب إليه من الله ، فلما أقدم على ذبحه ، وتعالى حب الله فوق كل شيء بقلبه قال تعالى { فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ¤ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ¤ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ¤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ¤ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ¤ وَتَرَكْنَا

عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ¤ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ¤كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ¤ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِين}
لذلك حين نحب شخصا بشدة يرحل ، لأن مكانته باتت تكبر بقلبنا والله سبحانه وتعالى يغار على قلوب المؤمنين الصالحين ، يشتاق لأصواتهم وإلحاحهم بالدعاء ، وعظيم هو كريم رحيم رؤوف يجبر القلوب بذكره ويطمئنها ، ويعيد لكل قلب ضالته بعد حين ، حين يتقن اللجوء له ويدرك ، أن قلبه وقلب من أحب بيد الله ، وأن كل ما يأتي من الله خير..
كانت الدموع تملأ عيني سارة ، وشهقات قلبها كلما قال جملة تفيض بها ، أنفاسها حارة ، وفي صدرها غيوم مثقلة..
لكن العم تظاهر بأنه لا يراها جيدا ، إذ كان الضوء خافتا ، فقالت لما أنهى حديثه: يا اللله..
فقال وهو يستعد للقيام ويفرش سجادة الصلاة: لا أحد يدرك معنى الحياة ، ويفهمها ، من لا يتدبر هذا الكتاب جيدا ، أخبريني لو صنع أحدهم آلة ، ألن تفتحي المعلومات المرفقة لتتعلمي كيف تستخدميها إن لم يأت أحد من شركة الجهاز ويعلمك بيده ، وهكذا تماما الحياة ، كان الله يرسل الرسل والأنبياء ليعلموا الناس فلما ختم الأنبياء بمحمد عليه الصلاة والتسليم ، ترك لنا دليلا نتعلم منه كيف نتعامل مع الحياة ، فمن أراد السير بالدنيا بحق عليه أن يتدبره ويقرأه ويفهمه ويتلوه ، ومن لم يشأ عنادا ، واستكبارا منه ، حتما ستتعطل الآلة إما كليا أو جزئيا ، وحتما سيعيش حياة خالية من كل معنى ، سيحزن ويحاول الانتحار ويشعر بفراغ روحي عظيم ، كما قال أيضا بكتابه {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ¤قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ¤ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى }
ثم قال قومي رضي الله عنك صلي ركعتين لله ، ونامي يا بنيتي الآن لديك جامعة غدا ولدي عمل..
بدأ بالصلاة وقامت سارة بسرعة ، تتخبط بالطريق وروحها تسابقها ، فلما دخلت باب غرفتها هوت على الأرض ساجدة باتجاه القبلة دون أن ترتدي حجابها ، وبكت بحرارة ارتجفت لها كل ذرة هواء وأرض ، وكل ذرة بجسدها ، كانت ترجف وتبكي فقط بلا أن تقول شيئا سوى يالله ، يا الله..
وقفت والارتجافة في صدرها تقتلع أضلعها ، تضع يدها عليه وتغمض عينيها علها تتمكن من التنفس ، توجهت للنافذة ، رفعت نظرها نحو السماء ومدت يديها

بصمت ، كي لا تستيقظ أختها على صوت أنينها وقالت: يااارب ، لقد أسرفت في حبي له حتى طغى ، لكنك تعلم أن ما في القلب من بعدك لا عشق ولا هوى ، لقد أتى محمد لي على هيئة حلم منك ، ثم سيرته إلي برحمة منك ، ثم سهلت أمره ليصلني بطاعتك ، لكننا بشر ساذجون نتعلق بالأشياء الفانية..

ثم وهي ترتجف وقلبها مملوء بالحيرة قالت : لكن..

لكن والله لم أحبه بقدر حبي لك ولرسولك ، ووالله لن أحبه بقدر هذا الحب ، كيف لا وأنا كلما اجتاحني شوق رفعت يدي لك ، وسألتك أن تجمعني به مجددا ، أعذرني يا الله إن خانني فهمي قليلا ، وقصرت في نفسي لأجل تعلقي به ، أعذرني يا الله لو بكيت قليلا واشتقت كثيرا فتلك سطوة الشوق وضعفي لا يقدر عليه لكني والله سأسعى لأن أقاوم تعلقي ، وأبقي قلبي على مسافة تقيه لوعة الغياب والشوق ، لكن ثبتني يا الله وشد أزري فأنا عبدتك الفقيرة لك ولا حول لي ولا قوة إلا أنت..

قالت كلماتها الأخيرة فانجلى من صدرها الهم ، وكأنما نجمة رحمة قفزت من السماء لقلبها ، فوقفت بعد أن مسحت وجهها ودموعها ، وراحة دبت بصدرها ، وتوجهت نحو المغسلة توضأت وعادت لتصلي وكلما سجدت من فرط الراحة والطمأنينة وجدت عينها تبكي ، ثم ما إن تقف حتى ترتسم ابتسامة على وجهها ، وكأن الله قد وعدها بالرضا ، وكأنها ربتت على قلبها بثقة وقالت يا قلبي لا تحزن ، إن الله معنا..

وهكذا ظلت بين صلاة وتلاوة للقرآن حتى صلاة الفجر ، صلت الفجر ونامت مطمئنة ، إذ كان دوامها متأخرا باليوم التالي ، كما أنها كانت قد قررت أنها لن تحضر أي محاضرة بهذا اليوم وستفعل أشياء لم تفعلها من قبل كونه اليوم الأخير في عامها العشرين..

***

-16-

كان الصباح مختلفا ، صوت العصافير ، حفيف الأشجار ، وأهداب الشمس الناعمة المتسللة لها لتخبرها أن نهارها قد بدأ ، لم تشعر بأدنى ثقل أو كسل ، كانت وكأنها ريشة بيضاء مستلقية في فراشها ، طارت حالما هبت رياح الصباح الباردة ، أفاقت بكل حيوية ونشاط ، قبلت دميتها الدب وسيم ، ثم رفعت عنها الغطاء ونظرت من النافذة وسعادة غامرة تملأ قلبها ، سعادة بطعم الرضا والقبول والتسليم التام لله ، مع نسمة الهواء الباردة تسلل الحنين لقلبها بحروف تشبثت بقلبها تقول: ليت بإمكاني مشاركته هذا اليوم على الأقل..

رتبت فراشها وتوضأت لتصلي الضحى ثم بدأت بانتقاء ملابسها ، أرادت أن تكون ملابسها جميلة ومريحة هذا اليوم ، فارتدت حجابا ورديا ، وثوبا واسعا أزرق اللون ، وأضافت بعض الإكسسوار كساعة يد وخاتم فضي ناعم بيمينها بينما كانت ترتدي دبلتها بشمالها كالعادة ، ثم حملت حقيبتها الرمادية على ظهرها وقد أعدت بها منذ البارحة جزدانها وكل ما ستحتاجه من لوزمها ثم خرجت من البيت سريعا وهي تسابق الريح ، لقد كان لحديث والدها أثر عظيم بداخلها إذ منحها دفعة قوية لأن تعيش مجددا ، فلا تبدو كظل له ، تبتسم حين يكون وتزهو بألوان الربيع ، وتغرب حين يغيب ، فكلما خطر ببالها قالت لنفسها: إن كنت أحبه بحق علي أن أعتني بنفسي ليعود ، فلمن سيعود إن ذبلت ، لقد أوصاني ألف مرة بأن لا أتغير ، وهذا ما سأحرص عليه ، سأظل سارة المشاكسة الشقية المرحة ولن أنطفئ لغيابه ، بل سأقيم مراسم الشوق وأستلذ بها حتى يعود بإذن الله ، لن أضعف والله بجواري..

خرجت من البيت كعادتها في كل عام ، كانت سارة لا تحتفل بيوم ميلادها لعلمها بحرمة الاحتفال أو تسمية هذا اليوم بعيد ميلاد ، لكنها كانت تحب دوما ومنذ صغرها أن تختم عامها بسعادة ، فتفعل كل ما يحلو لها باليوم الذي يسبق ليلة ميلادها ، أما في ليلة مولدها فإنها تضع خططها وأهدافها للعام التالي وتمضي الليلة بكتابة مذكرة توثق فيها كل ما تطوله ذاكرتها من هذا العام من أحداث هامة وإنجازات وخيبات ، في دفترها الخشبي ، الذي أهداها إياه والدها لما بلغت العشر سنوات ، وزينت مقدمة الكتاب بالعبارة التي قالها لها حينها:

"في هذا الكتاب ستكتبين كل شيء يحدث معك ولك ، فلا تدعي لحظة مهمة تمر دون أن توثقيها ، حتى إذا أصبحت عجوزا كجدتك ، أخرجت هذا الكتاب وأخبرتيهم عن شقاوتك وأنت بعمرهم.".

التقت سارة برفيقة الطفولة التي لا تراها تقريبا إلا في المناسبات ، ورغم ذلك فإنهما لا تزالان الأكثر قربا وترابطا ، كثيرة هي الروابط التي تربطنا بمن حولنا ، بمن نراهم بالطريق ، ومن نشاركهم الدراسة والطعام وبعض لحظات الملل أو الحزن ، وبالرغم من كثرتهم إلا أن ما يربطنا بهم روابط ركيكة جدا أوهن من خيوط العنكبوت ، تتلاشى وتنهار سريعا ، وتظل تلك العلاقات الراسخة متأصلة بنا مهما حدث ، مهما بردت العلاقة ومهما حاولنا تناسيها والفرار منها ، فما أن نلتقي بهؤلاء الأشخاص حتى يعود لنا جنوننا وشوقنا وشغفنا الذي فقدناه ، علاقات لا تنهيها الأيام ، ولا قلة الأحاديث وطول الغياب..

لم تتفق معها على اللقاء ، لكنها ذهبت للمكان الذي شهد على كل يوم يسبق ذكرى ولادتهما الاثنتان ، العام الذي مضى لم تلتقيا ، وانقطع التواصل بينهما تقريبا تماما ، لكن وبالرغم من ذلك ، توجهت سارة للمدرج الكبير بوسط البلد كالعادة ، فرأت صديقتها بانتظارها بأعلى المدرج ، كانت تعلم أن شيئًا ما منعها من الحضور في السابق ، وكانت تعلم أنها وإن لم تأت هذا العام أيضا سيكون ثمة ما يمنعها وستأتي العام الذي بعده ، لم تكن فرحة سارة بلقيا صديقتها منار تصفها الحروف والكلمات ، لم تتمالك نفسها من الفرحة وأخذت تصعد المدرج سريعا حتى وصلتها فضمتا بعضهما البعض بقوة ، وبدأ السؤال والعتاب ، جلستا لما يقارب النصف ساعة وهي تشرح لها ما حدث معها والسبب الذي منعها من القدوم المرة الماضية ، فقالت سارة منهية الحديث :

وهل سنظل نراجع بما حدث!

هيا تعالي سنتحدث فيما بعد ، أريد أن أجري وأن أقفز وأغامر ، اليوم آخر يوم في عامي هذا ، علي أن لا أدع شيئًا يخطر ببالي دون أن أفعله..

فحملت كل منهما حقيبتها وانطلقتا للمطعم القديم في المنطقة لتتناولا فتة الحمص والشاي الأحمر الأصلي عند العم أبو مرجان ، وبعدها اشترتا عصير قصب السكر اللذيذ ، واستقلتا سرفيسا ليوصلهما لجبل القلعة ، المكان الأحب لقلبيهما ، لتجلسا عاليا في أعلى منطقة به ، فوق المدينة كلها ، وتتحدثان طويلا ككل عام ، وصلتا ، وكالعادة لا تخاف منار الأماكن المرتفعة فتجلس وتدلي أقدامها وتصرخ عليها سارة حتى تعود للوراء دون الاقتراب من الحافة ، وتستحلفها بالله حتى ترضخ لأمرها وتعود..

قالت منار: ها أخبريني الآن ما حكاية خطبتك هذه! ومن هو خطيبك؟ كيف تعرفت عليه؟ وما وضعه ؟

تربعت سارة بجوارها موجهة وجهها للمدينة ، ثم نظرت لها وقالت: كيف وأين ومتى ، حكاية طويلة لا تقال بيوم ولا اثنين ولا ألف ، أما عنه ، فهو شخص متدين خلوق محترم جدا ، لا علاقات له بالنساء

فضحكت صديقتها وقالت: اووه ، سارة وتقول هذا الكلام!

أما كنت تقولين لا رجال ، وكلهم سيئون ، وأن محادثتهم للنساء طبع متأصل بهم! ما الذي جد عليك الآن!!

ضحكت سارة وأمسكت بعبوة العصير شربت البعض منه وقالت: لازلت كما أنا لا أصدق ، لكن محمد له سحر عجيب بحق..

نظرت لها صديقتها بنظرات سعادة ، فأكملت سارة: لا أحلف على إنسي يسير فوق الأرض ، لكني أحلف على محمد لما رأيت فيه من حب لي ممزوج بخوف من الله ، لم يكن يستغل الفرص ، بل كان يريد كل شيء أن يكون حلالا ، لقد كان يرتبك حين أمر أمامه ، فلا أظنه ممن يولعون بالنساء..

قالت صديقتها: أ..وتحبيه!

نظرت سارة بعينها بعمق ، ثم سحبت عينها للمدينة وقالت وهي تسلل يدها لتلتهي بعبوة العصير:

نعم..

أخذت نفسا عميقا ، ثم أدارت لها وجهها وقالت: جدا!

فبدأت صديقتها بممازحتها وسؤالها عما سيفعله لها اليوم ، بمناسبة ذكرى ميلادها وهكذا

فأخبرتها بأسف أنه مسافر ولا تعلم متى سيعود..

وهكذا طال الحديث بينهما ، حتى ملتا الجلوس فمشتا قليلا ، ثم توجهتا لموقف الباصات لتستقلا الحافلة وتنتقلا لمدينة الألعاب في أطراف المدينة..

وحين وصلتا ، تفجرت طاقاتهما ، وأخذتا تتسابقان على الألعاب الخطيرة والعالية ، من لعبة لأخرى ، وتكرران بعضها مرتين وثلاث مرات ، حتى شعرتا بالتعب ، كانت الساعة ما يقارب الرابعة تقريبا ، فقررتا أن تذهبا لأحد المطاعم كالعادة ، بالعادة كانتا تتوجهان لأقرب مطعم لطيف ، تتناولان الغداء وتفترقان مجددا لتتمكن كل واحدة منهما للوصول لبيتها قبيل المغرب ، لكن هذا المرة أصرت منار على أخذها لمطعم معين ، بعيد بعض الشيء ، كما كانت مهتمة جدا بشكلها وشكل سارة ، وكلما سألت سارة قالت لها: سأعزمك على حسابي لكن كفي عن التذمر..

فقالت سارة بمرح : إن كان الأمر كذلك سأكف..

دخلت المطعم فأجلستها منار على طاولة وقالت: سأذهب لأطلب الطعام..
تأخرت منار وطال انتظار سارة ، وهي تنظر للباب علها تخرج ، بعد ما يقارب العشر دقائق خرجت منار وقالت لها: آسفة تأخرت ، قريبي هنا وكنت أحادثه بأمر ، ثوان ويكون الطعام جاهزا ، لكن لن نبقى هنا تعالي سنصعد للطابق العلوي ، المكان في الأعلى أجمل..
قالت سارة: لا لا أريد ، هنا المكان رائع اجلسي وكفي عن التصرف بغرابة..
قالت منار بإصرار وهي تحمل حقائبهما: أنا من سيعزمك لذلك سنأكل بالأعلى..لا أريد أن أسمع صوتك ، هيا ، هياا..
صعدت سارة السلم وقلبها يخبرها أن ثمة خطب ما تخفيه منار عنها ، لكنها تبدو عاجزة عن تخمين الأمر..
ولما وصلت الصالة العلوية وجدتها فارغة تماما ، قالت ملتفتة لمنار وهي واقفة بمكانها : الصالة فارغة !
فقالت لها وهي تمسك بيدها وتشدها للداخل: أعرف ، لذلك استغرقت وقتا طويلا حتى أقنعت قريبي بأن يفتح لنا هذه القاعة ، اجلسي هنا سأنزل لأحضر الطعام ، فالخدمة هنا ذاتية..
كانت إشارات تعجب واستفهام تملأ تعابير وجهها ، وتتساءل لم تتصرف منار بهذه الغرابة!
ما إن جلست على الكرسي ، حتى أضاءت الشاشة المثبتة على الحائط ، كانت الشاشة تتحرك ببطء ، ركزت سارة نظرها على الشاشة ، اضطرب نبضها ، ووضعت يدها على فمها قبل أن ترى أي شيء..
ثبت محمد الشاشة على وجهه ، ثم ابتعد عن الشاشة سريعا ، توقف نبض سارة ، شهقت ، وغطت فهما بكلتا يديها ، ولكنها لا تزال تراقب الشاشة جيدا ، وكأنها لم تصدق بعد أنها قد رأته بحق!
ثبت الشاشة عليه مجددا وضحك ثم قال: مجنونة أنت ، بالطبع لن أدع يوما بهذه الأهمية يمر دوني ، سنكون سويا بهذا العام لأول مرة فكيف لا أحادثك ، وأدعك تبدئين عامك الجديد دوني..
أطال الله في عمرك ، وجعل كل أيامك نجاحا وسعادة وقوة ، ووفقك الله لكل ما يحبه ويرضاه..
قالت سارة وهي تنظر حولها بتشتت: هل هل يسمعني هو أيضا!
فقالت منار: وهي تضحك نعم ، الكاميرا مثبتة على الشاشة ، قولي له أي شيء..

قالت سارة وهي تنقل بصرها بينه وبين الكاميرا: لكن ك.. كيف فعلتها!
قال: لا شيء عزيزتي ، أخذت إجازة اضطرارية ليوم واحد ، كنت أريد السفر إليك لكن الأمر صعب بعض الشيء ، فعدت لعائلتي وتواصلت مع أختك البارحة ، وهي قد تدبرت الأمر مع صديقتك ، واتفقتا مع صاحب المطعم ، الحمد لله أن الأمور حلت ، كنت أخشى ألا أتمكن من الوصول إليك..
المهم أخبريني هل أنت سعيدة الآن
فقالت وهي بالكاد تلتقط أنفاسها من الفرحة: جددا.. جدا
ثم خبأت رأسها وبكت
فقال محمد : أوه.. عزيزتي
لن تبكي الآن هنا ، هيا سينقطع الاتصال بأي لحظة ، والطعام أوشك على الوصول ، أخبريني كيف حالك ، هيا..
رفعت رأسها والدموع تملأ عينيها ثم قالت وقد اقتربت من الشاشة: أنا بخير ، لكن متى ستعود ؟
قال: والله لست أعلم تحديدا لكن الأمر لن يطول ، قاربنا على الانتهاء من المشروع
فقالت بانفعال: هل أنت بخير!
فقال مطمئنا إياها: مجنونة أنت ، وستتسببين بجنوني معك
أنا بخير وكل شيء بخير ، فقط أريني ابتسامتك ليكتمل كل الخير ..
ابتسمت سارة وقالت له: يحميك الله
فقال: ويحميك يا عيني..
حسنا سأنصرف الآن ، علي التحرك لأصل قبل الليل لمنطقة العمل ، دعواتك لي عزيزتي ، سأشتاق لك
فقالت والابتسامة محنطة على وجهها والدموع متحجرشة بحلقها: أكيد ، أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه..
مع السلامة محمد ، اعتن بنفسك
لوح لها بيده وأراها العربة التي تنتظره وقال: بأمان الله ، مع السلامة
لوحت له حتى انطفأت الشاشة
فلما غاب غص قلبها وجلست على الكرسي تحاول بلع دموعها ، كي لا تنهار أمام صديقتها
جلست منار وقد أحضرت الطعام فقالت لها: هنيئا لك يا سارة ، بحق!

حاولت سارة التهرب من عيني صديقتها نحو الطعام وقالت: لماذا!
قالت وهي تناظرها بشقاوة: واضح أنه يحبك كثيرا..
فابتسمت سارة وتنهنهت الدموع في صدرها دون أن تدمع وقالت: ليس كما ترين ، حبنا عادي جدا
لكنه مسافر وهكذا..
فقالت وهي تهز رأسها باستهزاء: دموعك التي ترتجف بداخلك الآن هي أكبر دليل..
ابتسمت سارة ولم تعقب ، قالت متهربة من الحديث عن محمد وكأنها تضحك: الطعام قد برد..
ضحكت صديقتها وقالت: لم أشأ مقاطعتكما بإحضاره ، برد قليلا ، لكنه لذيذ..
وهكذا انتهى اليوم وقضت سارة وقتها كما تريد ، ودعت صديقتها وداعا حارا ، وشكرتها على كل شيء ، كان الجو باردا بعض الشيء والسحب مكتظة بالمطر ، اشترت كوب قهوة ساخن ، ثم استقلت الحافلة الموصلة لبيتها ، جلست بقرب النافذة ، ركبت سماعة الأذن وشغلت أغنية فيروز:

سألوني الناس عنك يا حبيبي
كتبوا المكاتيب و أخدها الهوا
بيعز عليي غني يا حبيبي
و لأول مرة ما منكون سوا
سألوني الناس عنك سألوني
قلتلن راجع أوعى تلوموني
غمضت عيوني خوفي للناس
يشوفوك مخبى بعيوني
و هب الهوى و ما كان الهوى
لأول مرة ما منكون سوا
طل من الليل وقلي ضويلي
لاقاني الليل و طفى قناديلي
و لا تسألليني كيف إستهديت
كان قلبي لعندك دليلي
و اللي إكتوى بالشوق إكتوى
لأول مرة ما منكون سوا

وكلما انتهت أعادت تشغيلها ، حتى وصلت الشارع فأقفلت كل شيء ، وسارت سريعا حتى وصلت البيت ، دخلت فاستقبلها الجميع بابتسامة وضحكات متباينة على شكلها لملابسها المبتلة ، قبلت يدا والدها وسلمت على البقية وظلت متوجهة لغرفتها ، فلما دخلت وجدت أختها بانتظارها ، وقد رتبت غرفتها وعطرتها بعطر أرسله محمد مع رسالة وعقد رقيق من الفضة ، فيه قطعة نصف قلب مكتوب عليه اسمه ، وقفت سارة منبهرة بجمال غرفتها والأضواء التي تنعكس داخلها ، لكن أكثر ما سرق عقلها ، رائحة محمد ، عطره التي لا يخطئه أنفها ، فقالت : لمن هذا العطر ؟

قالت أختها: أديري وجهك ، خذي هذه القطع ارتديها واخلعي ملابسك المبللة هاته ، وإياك أن تنظري للخلف حتى تستأذني..

فقالت: حسنا ، أديري وجهك أيضا..

أدارت وجهها وسربعا وضعت الصندوق الذي وصلها صباح اليوم من محمد ، وباقة الورد الأرجوانية التي اشترتها لأجلها على سريرها ، ثم قالت لها: هل أنتهيت ؟

قالت: نعم ، هل أنظر ؟

فقالت: نعم

أدارت وجهها واكتنز وجهها بالسعادة ، احمرت وجنتاها وانقدت عيناها شغفا ، اقتربت من السرير مسرعة وتتساءل بعقلها: لم كل هذا الحب اليوم تحديدا!

قالت بانفعال وهي تمسك باقة الورد: اووه ما أجملها بحق..

بين استنشاق لرائحتها ، وضمها ، كانت تتساقط بعض الضحكات العفوية ونفحات عبق من سعادتها تملأ المكان..

ضمتها أختها وقالت لها: أطيب قلب بالحياة أدامك الله لي..

ثم وقفت بشغب وأمسكت صندوق محمد خلف ظهرها وقالت: احزري ماذا يوجد بهذا الصندوق!

قالت بفضول وابتسامتها العريضة مرسومة على وجهها: ماذا!

قالت أختها ممازحة: محمد..

بدت آثار الصدمة على وجهها جلية من نطقها لاسمه بغير موضعه ، فانفجرت أختها ضاحكة وقالت وهي تنقله ليصبح بين ذراعيها: بحق والله فيه هدية من محمد لك..

فقالت سارة بشوق: اووه ، هاتها..

فسحبتها ورفعتها بعيدا وقالت: ليس قبل أن تجهزي نفسك لها ، هيا بدلي ملابسك وخذي دوش ساخن ووضبي ملابسك ، ثم افتحيها ليصبح شكلك لائقا ، قلت لك محمد بداخلها..
فضحكت سارة وقالت وهي تقفز من مكانها: والله معك حق ، سأرتب كل شيء وأجلس على رواق ، هكذا ستضيع بهجتها..
بعد عشر دقائق ، انتهت سارة من الدوش الساخن ، ومن توضيب ملابسها ، جففت شعرها الكستنائي الطويل بمجفف الشعر ، ثم انتقت فستانها العنابي المفضل الذي يصل طوله لأسفل الركبة بقليل ، واسع الطرف ، ورقبته مربعة الشكل ، ثم وضعت طلاء أظافر عنابي ، وارتدت عقدا ذهبي اللون على شكل فراشة ، وخاتمه الذي يحمل الشكل نفسه..
حاولت جاهدة أن تضع بعض مساحيق التجميل لكنها لا تعرف شيئا منها سوى ما يلون رموشها وطلاء الشفاه ، فانتقت اللون العنابي..
وهكذا قد انتهت من حفلة التزيين خاصتها ، نظرت لنفسها بالمرآة فرقت نفسها بالمعوذات وختمته بقول ما شاء الله وهي تمسك بشعرها على كتفها الذي قد زاد طوله كثيرا ، خوفا من أن تحسد نفسها..
ثم ذهبت للمذياع ورفعت صوته على أغنية "ولسى اللي جاي أحلى"
ثم نادت أختها لتعطيها الصندوق ، فلما دخلت أختها الغرفة ورأتها كبرت الله وقالت: الله أكبر ، الله أكبر..
والله هنيئا لمحمد بك ، ما شاء الله..
أديري لي ظهرك..
أدارت رأسها بدلال ، فقالت أختها: تبارك الرحمن ، لا أريد أن أحسدك
فمشت سارة نحوها بخفة ودارت دورتين ثم قالت: بربك كيف أبدو ؟ جميلة ، أليس كذلك..
ثم ضحكت وقالت: احم احم..
ضحكت الأختان فقالت سارة بانفعال: هيا أعطني هدية محمد..
ناولتها إياها من فوق الخزانة ، وقالت لها: أنا سأحضر مسلسلي وأعود ، أوقات ممتعة..
قالت لها وهي تدفعها للخارج: حسنا حسنا.. حين تعودين اطرقي الباب..
أقفلت سارة الباب بالجرار ثم حملت الصندوق بشغف وجلست على سريرها ، فكت الرباط حوله ثم فتحته على مهل ، أمسكت بزجاجة عطره ، شمتها ، ثم بكل

جنون أخرجت قميصه من الخزانة ورشت عليه من العطر وارتدته ، وعادت للصندوق من جديد فتحت العلبة ورأت عقد الفضة واسمه ، أحبت هذه الهدية جدا ، وقفت سريعا أمام مرآتها وارتدته بعد أن قبلته وضمته بيدها لصدرها..

وأخيرا أمسكت الرسالة..

فتحتها ، وكانت مشبعة بعطره ، أوشكت على بدء القراءة فإذا بأخيها الكبير يصرخ في الخارج بأختها ويقول لها: قولي لها أن تطفئ المذياع..

جاءت أختها لتقول لها ذلك ، فاستوقفها والدها وصرخ به قائلا: ألا تراني أجلس بالبيت!

قال أخوها: ماذا يقول عنا الناس لدينا حفلة!

فزجره العم قائلا بسخرية: نعم ، لأن الناس ستميز أن هذا الصوت من غرفة سارة سيقولون ذلك ، أما البارحة فهم يعرفون أنه صوت مذياعك أنت لذلك لم يقولوا شيئا!

حلال لكم حرام عليهن ، أليس كذلك !

ادخل لغرفتك والتزم الصمت ، طالما أنا هنا ، فلا داعي لأن تحاول أن تتدخل ، أكثر ما يمكنك فعله أن توصل لي المعلومة وأنا من يقرر كيف يتم التصرف بالأمر..

بالنسبة لي ، لا أمانع لو رفعن صوت المذياع ورقصن هنا كل يوم ، المهم أنهن يلتزمن حدودهن خارج غرفتهن ، وخارج البيت ، هذه الغرفة مملكتهن الخاصة ليفعلن بها ما يشأن ، ولا أحد يحق له أن يمنعهن من ذلك..

طرقت أخت سارة باب الغرفة عليها وأخبرتها بما جرى ، فزادت سعادة سارة ، لكنها خفضت الصوت قليلا إذ أنها لا ترغب بالرقص الآن ، وتحتاج لموسيقى هادئة ، قلبت قنوات الهوائي حتى رست على محطة للطرب الأصيل ، كانت أغنية المطربة العظيمة أم كلثوم إنت عمري ، أبقت عليها ، وأغلقت الباب مجددا وراء أختها ، ثم ذهبت لسريرها ، واستلقت عليه متكئة بظهرها على الوسادة وفتحت رسالته التي كتب فيها :

"

سلام الله ورضاه على قلب من أحببت

كيف حالك ؟

سؤال رتيب مكرر ، لكني لا أكل من طرحه

في غيابك أو في حضورك

فأول ما قد أقوله دوما كيف حالك..

لكني اليوم سأغير الكاف وأخصص بها قلبك..
فكيف حال قلبك عزيزتي ؟
نبض قلبي الموصول بنبضك عيا لكثرة شوقه ، فهل أضنى شوقك نبضك كما فعل بي..
في غيابك الأمر الوحيد الذي يروي ظمأ روحي ذكرياتك
الحديث عنك ، تذكر كلماتك وصوتك بأغنياتك وملامح وجهك..
سلام على قلبي حين أذكرها..
متعب أنا هنا بدونك جدا ، كشجرة بلا ظل ، لاشيء يشعرها بوجودها فعلا ، إلا جذور الذكريات المتدارية أسفل التراب ولا يراها أحد ، إنما يظل عودها أخضر من خيرها..
لكنني سعيد جدا ، رغم التعب ، رغم الضياع ، والشوق
سعيد بذاك الشعور الذي يقلبني ليلا في فراشي ، وطول صمتي الذي يقرأ فيه من حولي عشقي لك وهيامي ، بحرقصة القلب إذا أراد حديثك ولم يجد سبيلا ، فأصبره بعد طول صيامه بفرج قريب وأني سأعود لك وأراك..
نكهة غيابك مختلفة ، بلا شعور أجدني أجتهد طوال الوقت بالوصول لشيء من أثرك ، رائحتك ، ملامحك ، ابتسامتك..
طوال الوقت أسعى للبقاء وحدي ، لأتذكر ما يعينني عليه عقلي من خيالات وصور وذكريات جمعتني بك..
أحيانا أفكر بالهروب من المكان ، والعودة دون إنهاء العمل لأراك فقط
وأحيانا أفكر بالهروب منك للمكان ، فأعمل بجد وأذيق جسدي ما يذوق من نصب..
فإن شعرت بالتعب لا أرى أمامي سواك..
حلمت بك مرتين
وها أنا أدعو الله ليهديني حلما ثالثا ورابعا وخامسا ، أحلاما تروي ظمئي حتى أراك بحق..
ولكن ما أفكر به الآن
كيف سأعود بعد كل هذا الشوق وأقف على ذات الحدود ، وألقي عليك السلام ، وأحادثك بكل أدب ، وأنتظر رحمة عمي لأجالسك ، أظنني هذه المرة سأكون كالمجنون بحق..
قد لا أتمكن من الإمساك بزمام قلبي أمامك ، وأتصرف بلا عقل..

اللهم عجل لي بخير فيه سارة
ولا تجعلني من النادمين
وهب لي عقلا يثبتني حتى آخر لحظة
حسنا أظنني أكتب كالغبي ونسيت أنه يومك ، وكأني لم أصدق أن أجد فرصة لمحادثتك..
المهم
ستكون هذه أول مرة أشاركك فيها لحظات يومك المجنونة ، لكنها بعد اليوم ستصبح لحظاتي أنا ، وأنت من ستشاركيني فيها..
بهذا اليوم
لن أقول أحبك..
لأنك تعلمين أنها كلمة منافقة لا تصف من الحقيقة شيئا
ولن أقول كل عام وأنت بخير
لأنك أنت الخير بكل عام
لكني سأقسم لك أني
لن أريح هذا القلب حتى يتجلى للسماء
وأني لن أرى غيرك امرأة من النساء
وأني معك فقط أستطيع العيش لو منع عن صدري الهواء
لأني أتنفسك أنت
فليست حياتي قبلك وبعد وجودك بها سواء
أنت الشيء الوحيد الذي لا يمكنني فعل شيء معه
لا يمكنني الصبر ولا فقدانه
لا يمكنني الإبحار ولا الوقوف على شطآنه
لا يمكنني الموت ولا الحياة بسرابه
كل عام وأنت إلي بكل ما فيك أقرب
كل عام وأنت النبض
والله يشهد أن النبض لكثرة ما أحبك بات يتعب
كل عام وأنت كل شيء في حياتي
هذا العام لك ، فعيشيه كما تشائين
وودعي كل شيء حولك جيدا..
فأعوامك القادمة كلها بعد اليوم ستكون لي..

قرأت رسالته بدل المرة أربع ، وكأنها تحاول استحضاره من خلال الحروف..
ضمت الرسالة وشمتها طويلا ، ثم رفعت صوت المذياع وبدأت تغني مع الأغنية بصوت مسموع:
هات عنيك تسرح في دنيتهم عنيه
هات ايديك ترتاح للمستهم ايديه
يا حبيبي تعالى وكفاية اللي فاتنا
هو اللي فاتنا يا حبيب الروح شويه
اللي شفته قبل ما تشوفك عنيه
عمر ضايع يحسبوه إزاي عليّ
انت عمري اللي ابتدي بنورك صباحه
جلست على تسريحتها أي الخزانة المرافقة لمرآتها الكبيرة ، بعد أن خلعت قميص محمد ، ونظرت لنفسها بالمرآة بصمت ، كانت تسعى لتأمل ملامحها ، وما وراء ذلك..
تحاول أن تجيب نفسها عما يدور في خاطرها من أسئلة:
لقد كبرت بحق ، ليس عمرا إنما نضجا..
لقد بدأت أحلامي تتغير ، وملامحي بدأت تختلف ، حتى تخطيط قلبي بات شكله يشبه نبض قلبه..
تمر الأيام بسرعة ، ولأجل حب محمد سأنسحب من كل ما كنت فيه ، سأقصي وسيمي عني ، سأتخلى عن سريري ووسادتي وعالمي الأرجواني ، سأصبح مضطرة للمجاملة كثيرا ، والشقاء كثيرا لأجل سعادته ، سأتخلى عن بعض فوضاي ، ويشاركني أحدهم بي!
سأقاسمه كل شيء كنت أرتبه داخلي وحدي ، لن أعد في الصباح فنجاني ، لن أقرأ كتابي ، لن أغني لأجلي وأتزين لأجلي وأهتم بنفسي لأجلي ، سيصبح محمد قبل يائي في كل شيء فأفعل كل شيء لأجل "محمد"ي..
أمعنت النظر في عينيها وتساءلت :
لم كل هذه البريق الآن ؟ ، لم باتتا جميلتان على غير العادة ؟ ، لم بت أحب النظر إليهما منذ أن أحببته ؟
جميلة أنا الآن بطريقة مختلفة..
لقد كنت أستنكر موقف كل فتاة تخطب إذ يظهر التغير عليها ، لكن الأمر ليس بيدي حقا..

أنا تغيرت أكثر بكثير مما كنت أتوقع!
الأمر خارج إرادتي ، الآن أتمنى أن أكون بحق أجمل امرأة بالعالم بنظر محمد ، وأن أكون أرق أنثى في الوجود..
الآن أريد أن يراني محمد ، وأن أسمع كلامه وحبه وغزله ، وأريده أن لا يفارقني رغم كرهي لكل تفصيل قد يتبع ذلك..
أريد أن لا أمحى ، أن أظل سارة بشخصيتها التي تعبت كثيرا لأحافظ عليها ، أريد أن أظل مميزة ، ولا يصبح محمد بقلبي وعقلي فوق كل شيء..
وقفت وكأنها تنفض تفكيرها عنها ، أمالت رأسها وحملت شعرها الطويل لتسدله على كتفها وقالت وهي تمشطه بيديها:
لا أريد أن أفكر بالأمر كثيرا ، أنا أعرفني جيدا ، سأحبه جدا لأنه يستحق بالفعل ، لكني لن أنسى نفسي لأجله ، سأسرق من تفكيري الذي يجعلني أسير نحوه وأنظمه لأبتعد بالقراءة ، سأبقي بيننا بعض المسافة ، سيكون الأقرب لي ، لكني لن ألتصق به حتى يمل مني فيضعني تحت ذراعه ، وينظر أمامه ، سأظل شقية ، وأتعبه بمطاردتي ، سأفر منه كثيرا ، وأعود له كثيرا ، وأظل أنا سارة ، ويظل هو بعيني محمدي..
كانت الأغنية على المذياع تقول بهذا الوقت:
اللي بيشكي حاله لحاله..
واللي بيبكي على مواله..
أهل الحب صحيح مساكين..
صحيح مساكين..
ابتسمت سارة وقالت بصوت مسموع: اووه صدقت والله "صحيح مساكين.."
ذهبت لخزانتها تناولت دفتر مذكراتها ، وأخرجت كوبا رفيع العنق وواسعا من الأعلى ، سكبت فيه بعض العصير ، ووضعت بعض البسكويت المحلى الذي تحبه بطبق صغير بجواره ، ثم حملتهم والدفتر لطاولة المكتب ، أنارت ضوء الكتابة ، وأطفأت بقية الأضواء بالغرفة..
أمسكت قلم الحبر السائل وأخذت تكتب:
ها قد وصلت لمفترق العمر الأول ، عامي الواحد والعشرين
العام الأخير لي هنا في بيت عائلتي التي أحبها..
كبرت كثيرا بهذا العام ، أكثر بكثير مما يجب ، لقد أحببت!

هذه المرة سأناقض كل شيء كنت أكتبه بالسابق ، فلقد اكتشفت قلبي ، وسمعت نبضه القوي جدا ، وأنصت!

وللحظة ما تشكلت أنا داخل فقاعة نبضي ، حتى تغيرت ملامحي ونضجت بشكل مختلف ، هذه المرة كل شيء اختلف علي ، أفكاري وأحلامي وأهدافي ، الحب أخذ من وقتي الكثير ، فمثلا بدلا من أن أخطط لقراءة رواية ، قد أكتب أنا رواية وأسميها "حب محمدي.."

وبدلا من أن أفكر كيف سأقصي الناس عن طريقي ، سأبدأ بمجاملتهم ، إعداد الحلوى لإستضافتهم واستقبالهم ، بدلا من أن أنظر لوالدتي بنظرة التعجب من صبرها وطول بالها ، سأبدأ بتقليدها بكل شيء..

حتى أحاديثي مع والدي ستتغير ، فبدلا من أن أسأله عن العلم والدراسة والمجرات ، سأسأله عن ما يواجهني بالبيت..

وحتى وسيمي الذي رافقني لسنين وكان بطلا لمذكراتي ، سأستثنيه ، وأستبدله بشخص حقيقي يحمل قلبا!

سأكف عن الراحة الطويلة والنوم بلا حساب ، سأكف عن حمل حقيبة ظهري صباحا والركض نحو ما أريد حرة بلا أن أحسب لأي شيء حساب..

لا أدري بحق كيف سيبدو غد ، لكني متأكدة من أن كل شيء من الآن فصاعدا سيكون له شكل مختلف ، فسارة الصغيرة ، ستصبح في العام المقبل امرأة ، وكل ما أتمناه أن أكون أيضا امرأة بملامح مختلفة ، مميزة ولا أشبه أحدا..

وكل ما أخشاه اليوم أن أتغير..

فيتغير محمد ، ويتغير هذا العشق العظيم الذي رزقني الله إياه

فلا أجد سبيلا للعودة مجددا كما كنت بالسابق..

سعيدة أنا رغم خوفي بكل شيء يحدث حتى هذه اللحظة ، وسأظل أدعو الله وأشكره طوال الوقت كي يديم هذه النعمة علينا ، وجل دعواتي ألا يفرق بيننا ، فقد كنا صالحين تحابينا به وخفناه بكل لحظة حتى يومنا هذا ، لا أدخل الله بيننا حراما ولا شائبة تفسد علاقتنا..

أحب هذا المكان ، أهلي ، جيراني ، مدرستي ، وصديقاتي ، وكل ذكرياتي المعتقة بجدارنه ، أحب شرفتي التي لطالما شاركتني سهري وأغنياتي ، وهذا الوادي الذي أمامي الذي لطالما ملأته أحلاما وأمنيات ودعوات..

ولكني متأكدة أني سأحب المكان الذي سيجمعني بمحمد أيضا ، رغم حتمية اختلاف المشاعر وتباينها ، لكني أشعر أن الحياة التي تنتظرني ستكون جميلة ، إن أراد الله وجمعني به وأدام علينا نعمه..

اممم.. كالعادة لا أعرف أن أكتب بتسلسل هنا ، ولا أجيد الختام ، أحب أن أكون مبعثرة على هذه الأوراق كأنها حضن والدي..

لقد أصبحت الساعة الآن الثانية عشرة وأربع دقائق ، فكل عام ونفسي لله وملائكته أقرب..

كتبت التاريخ والساعة ، ثم أقفلت الكتاب ، طرقت أختها الباب ، فتحت لها فضمتها أختها بحرارة وقالت: كل عام وأنت معنا وبيننا ، وأنت مع محمد بحب أكبر وأعظم ، كل عام وأنت لكل من تحبينه ويحبك ولله أقرب

ثم قبلت وجنتيها ورأسها وقالت: لا حرمني الله منك..

فردت عليها: ولا منك يا قلبي..

قالت لها أختها سأتوضأ وأعود لنقيم الليل سويا..

وهكذا ظلتا بين تلاوة للقرآن وصلاة حتى أذن الفجر فصلتا ونامتا ككل ذكرى ولادة لإحداهن..

***

-17-

تمر الأيام سريعا لكن ببطء شديد ، حين يغيب عنا من نحب ، حين تغزو قلوبنا نفحات شوق ولا نجد من نشتاق لهم حولنا..

ببطء كمن يحاول النوم مغمضا عينيه ، لكنه يتقلب في فراشه عبثا ، فيعيش نبضه مع عقرب ثواني الساعة ، بانتظار الصباح ونور النهار..

وسريعا كمن يمر بحافلة في شوارع المدينة ، يرى كل شيء ، لكن دون أن يتمعن بشيء ، دون أن يدرك شيئا أو يعقل شيئا ، هو فقط وقت مضى وصور تمت رؤيتها بالعين المجردة فقط..

فنجد أنفسنا غارقين بنبضنا شوقا ، ومغمضين أعيننا عن كل شيء حولنا ، بانتظار تلك اللحظة التي تعود لقلوبنا الحياة بعودة من نحب ، فتزهر قلوب عقولنا وتعود لنا قدرتنا على العيش بصورة طبيعية ، بكامل حواسنا وإدراكنا..

ذهب الصيف واختفت الشمس تماما ، حتى في وضح النهار الغمام يملأ سماء المدينة ، وسارة تحاول أحيانا أن تتناسى كل شيء ، وأحيانا أخرى تترصد للذكريات فتستحضرها عمدا ليؤنس طيفه قلبها..

عنيدة هي إذا ما انتصبت لا تنحني ، وإذا أملت على قلبها قواعد عقلها تجد جوارحها كلها تنساق لأوامرها ، حتى تكاد تفقد أجزاء من قلبها لفرط شوقها وفرط حزمها ، فتصبح قاسية وجافة جدا!

قال محمد عشرا أو عشرين يوما ، وها قد مر على غيابه أكثر من شهر ولا يزال موغلا بغيابه ، لم يتصل ولم يرسل شيئا ، القلق عليه بدأ بالتفاقم مختلطا بقلق أعظم بأن لا يكون لديه عذرا يقدمه لغيابه..

كان قلبها يرتجف منتصبا على قدميه ، تدعو الله ألا يكون مكروها قد أصابه ، وتفكر في احتمالية أنه لم يحدث له شيء لكنه سيغيب أكثر..

أنهت محاضراتها ، وأخذت كوبا من القهوة الساخنة وتوجهت سيرا نحو الجسر الذي سبق والتقت بمحمد عليه لأكثر من مرة ، سارا عليه سويا ، وتوشح ببعض العناد وبعض الغيرة والشقاوة ، كان المطر غزيرا جدا ، الجميع يفرون لداخل المباني..

في السابق كانت الإناث تخشى أن تعبث الأمطار بشعرها وملامح وجهها المرسومة بمساحيق التجميل فقط ، بينما اليوم بات الذكور أكثر خشية منهن ، فقد يتحول ذاك الشعر المسرح بعناية والذي أخذ من وقتهم ساعات من التجفيف صباحا

لأعشاش طيور ، ناهيك عمن باتوا أيضا يرسمون ملامحهم كما الإناث تماما بمساحيق التجميل..
أما سارة ، فتساقط المطر بالنسبة لها عبارة عن أجراس سعادة وشغف ، فما أن ترى المطر قد بدأ بالتساقط حتى تراها تركض نحوه وقلبها يرقص على سيمفونية تساقطه ، إنه عشقها الأزلي..
إنها لا تخشى البلل ولا اختلاف ملامحها ، بل ولو خيرت لتمددت على طول شوارع المدينة كلها كي لا تفوتها قطرة مطر واحدة ، كيف لا وقد ولدت في ليلة ممطرة كهذه ، لقد كان إيقاع المطر الصوت الأول الذي أدركته في طفولتها قبل صوت والدتها والأذان..
بالعادة لا أحد يكون عند هذا الجسر ، فكيف سيكون المكان بهذه الأجواء الماطرة!
لقد كانت سعيدة جدا ، لكنها تمطر من الداخل بغزارة كما تفعل الأمطار ، تسير محاولة ضبط أقدامها التي تكاد تركض أو تقفز فوق المطر ، حتى وصلت الجسر فركضت نحوه ، وكأنها ضمنت أن لا أحد سيراها هناك ، رمت حقيبة ظهرها الجلدية على الأرض جانبا ، ووضعت الهاتف بجيبها ليظل متصلا بسماعات أذنها اللاسلكية ، التي تسمع عليها..
أخذت كوب القهوة بيدها وجلست على سياج الجسر الحجري ، ترفع رأسها للأعلى وتغمض عينيها ، تفكر بمن لا يحتاج تفكيرا ليحضر ، وليكون الوصف أدق فإنها لا تبذل مجهودا ذهنيا ، لا تتساءل ، ولا تبحث ، إنه كل شيء داخلها تقريبا ، هو الوسط الذي ينتج أفكارا ويلغي أخرى ، الفراغ ، الأرضية ، الأساس ، هو كل ما يحدث الآن بتوقيت سارة الماطر..
تبعثرها الموسيقى ، ثم تجمعها ذبذبات صوت فيروز ببطء وهي تقول:
"كنا نتلاقى من عشية
ونقعد على الجسر العتيق
وتنزل على السهل الضبابة
تمحي المدى و تمحي الطريق"
مغمضة عينيها ، الصمت يتعمق بها ، المطر يزداد غزارة ، قلبها يزداد ضبابا وتكمل فيروز:
"ما حدا يعرف بمطرحنا
غير السما و ورق تشرين

ويقل لي بحبك أنا بحبك
ويهرب فينا الغيم الحزين"
فتحت سارة عينيها ونظرت نحو الأفق بصمت..
"يا سنين اللي رحتي ارجعي لي
ارجعيلي شي مرة ارجعي لي
وانسيني ع باب الطفولة
تا أركض بشمس الطرقات"
خانها صمتها فغنت معها بصوت مسموع:
"يا سنين اللي رحتي ارجعي لي
ارجعيلي شي مرة ارجعي لي
ورديلي ضحكات اللي راحوا
اللي بعدها بزوايا الساحات
بتذكر شو حكيوا عليي
لما نطرت وإنت نسيت
وصار الشتي ينزل عليي
وإجا الصيف و إنت ما جيت"
قفزت عن السياج ومشت ببطء ، أطفأت السماعة ، لتنصت للمطر ، وتغني هي على ألحان قلبها كيفما شاءت ، كانت تجر قدماها جرا و تغني:
تزكر آخر مرة شفتك سنتا..
تزكر وقتا آخر كلمة قلتا..
وما عدت شفتك ، وهلأ شفتك
كيفك إنت ملا إنت..
بديت القصة بأول شتي ،
تحت الشتي حبو بعضن
وخلصت القصة بتاني شتي..
تحت الشتي تركوا بعضن..
حبو.. بعضن..
تركوا.. بعضن..
يا جبيبي شو نفع البكي
شو إلو معنى بعد الحكي..

ارتدت حقيبتها وسارت لتعود إلى البيت وهي لا تزال تغني بصوت ينخفض ويرتفع بحسب المكان:

بس أما تيجي وأنا أحكيلك علي جرى..

وأمسح دموعي بمنديلك ، علي جرى..

علي جرى من مراسيلك ، علي جرى..

حينما وصلت البيت ، وجدتهم متجمعين حول الموقد ، ألقت السلام مبتسمة وأخبرتهم بشغف عن جمال المطر سريعا ، ثم دخلت لتبدل ملابسها بينما تجهز الخالة غداء سارة الشتوي المفضل "شوربة العدس .."

انتهى يوم العائلة سريعا وخلدوا للنوم بينما سارة لم تنم ، ككل الليالي التي سبقت هذا اليوم خلال الأسبوع ، جلست بقرب النافذة ، بجوارها كأس شاي أخضر ساخن ، وبيدها كتاب لأشعار منتقاة من أفضل قصائد الشعراء أهدتها إياه صديقتها..

فإذا باتصال هاتفي من رقم غريب يظهر على شاشتها ، توجست قليلا ثم فتحت الخط دون أن تقول شيئا ، فقال الطرف الآخر :

-السلام عليكم..

لم تجب سارة ، لكنها أقفلت الكتاب ، ورقت أجفانها فأسدلت أهدابها ببطء..

فقال :

-مرحبا..

سارة..

بلعت سارة ريقها وذبذبات صوته علها تتمكن من الرد بعد طول ظمئها ، نعم لقد كان محمدا..

تلعثمت أنفاسها وتنهدت بصمت

فقال : ردي علي! أتسمعيني!

فتحت عينيها وتمالكت أنفاسها ثم قالت بصوت منهك جاف : أسمعك..

صمت قليلا شد على قلبه ثم قال : اشتقت لك..

أبعدت الهاتف عنها ، وتنفست سريعا ، ململمة كل أطراف قلبها ثم قالت:

الحمد لله على سلامتك..

قال محمد: أعرف أنك منزعجة لتأخري..

أنا آسف بحق.. تعطلنا قليلا فاضطررنا للتأخر أكثر ، ولا اتصال بالمنطقة ، قبل يومين وصلت أهلي ، وكنت مرهقا جدا من السفر والعمل ، ثم استعددت لسفري مجددا ، ومنذ ساعة تقريبا وصلت المدينة ، دخلت الشقة للتو واتصلت..
فقالت سارة بسكون: أها.. جيد
تنهد محمد وقال: سارة!
قالت سارة منهية الحديث: لا بأس محمد..
الحمد لله على سلامتك
أنا مضطرة للذهاب الآن ، بعد إذنك..
فقال متلهفا: إلى أين ؟
قالت: نتحدث غدا..سأنام
لم يجب محمد ، تنهدت ثم صمتت للحظات وأغلقت الخط..
أمسكت الهاتف بقوة بيديها ، ثم رمت به على سريرها
حملت كوب الشاي ، وفتحت النافذة ، فارتشفت من الكوب بصمت كوني..
كانت هادئة جدا ، متمعنة بالفراغ ، بالسماء ، بالليل والنجوم ، وبالسكون..
داخلها فضاء مملوء بالكواكب التي تسير ببطء شديد ، إنها في أشد لحظاتها سكونا وهدوءا..
أما محمد ، فقد كان متلهفا جدا لحديثها ، ينتظر منها سؤالا حارا ، عتابا ، وأشواقا كان ينتظر أي شيء إلا اعتذارا بهذه الطريقة..
لم يوضب محمد أي شيء من أمتعته ، بل حتى لم يغير ملابسه ، رمى بنفسه على الفراش دافنا وجهه بالوسادة ، محاولا الهرب من كل شيء ، فغفا لشدة إرهاقه..
مرت الليلة بسكون مخيف ، حتى أصبحت الساعة الثانية والأربعين دقيقة ليلا ، استيقظ محمد ، وكأنه لم ينم بعد أبدا ، منهكا أكثر ، قلب جسده حتى بات مستلقيا على ظهره ، أمسك هاتفه ، اتصل عليها مجددا ، لم ترد ، كرر الاتصال عبثا أرسل لها:
"أيعزيك لو كان اتصالا من غريب يخبرك أن محمدا قد مات يا سارة!
لقد التهم الشوق أفئدتي ، وصمتك زاد في ذلك إمعانا"
قرأت سارة الرسالة ، وأقفلت الهاتف محاولة النوم متوسدة كتف وسيم الدمية ، إعصار تتهاوى أجنحته بمنتصف صدرها ويضغط على رئتيها..
حاولت تجاهله مغمضة عينيها ، لكن يديها أمسكتا الهاتف دون وعي وكتبت له:
"كنت أنتظر سببا مقنعا لأتقبلك وأقبل علي..

حذفته وكتبت :

"ولو أنك أتيت فلم أكن موجودة ، مالذي سيعزيك حينها"!

وحذفته مرة أخرى ، ثم أغلقت الهاتف وقررت أن تتجاهله هذه المرة..

لحظات ، فأرسل لها

"والله أحبك جدا..

حقك علي "!

قرأت رسالته الثانية فكتبت :

"من يحب يعتذر من المواقف كلها ، ليطمئن قلبا يعلم أنه يحيا به..

لست مشتاقة يا محمد ، فقد تلاشى الشعور كله بعد عذرك أنا آسفة "..

أرسلته ، فاتصل عليها بعد أن أرسل: "سارة ، لو سمحت دعيني أتحدث"

الرنة الأولى.. الثانية

وقبل أن تنتهي الثالثة فتحت الخط دون أن تنبس ببنت شفة

فقال محمد:

اووه..

سارة اسمعيني

أعرف أن العتب في قلبك قد طغى على أشواقك كلها ، وأعلم أني سيء جدا بنظرك ، وأني لا أستحق حبك..

لكن ، لكن والذي نصب السماء بغير عمد ، لم يغب ذكرك عن بالي لحظة واحدة ، طوال الوقت أنت بكل شيء حولي ، دعائي ، أحلامي ، صلواتي ، حتى في عملي وتعبي وحزني وجهك وملامحك طيفا وشخصا لم تفارقني..

صمت قليلا ثم قال: سارة لا تحمليني مشقة صمتك ، عاتبيني ، اسأليني وتفهميني..

سارة..

ألم تشتاقي إلي!

نزلت دموع سارة سريعا ، دون أن تشعر ، لقد كان جسدها كله يعتصر ، ورغم ذلك ، ظلت عقدة لسانها معقودة بقلبها المملوء بعتابها

فقال بحزن وخيبة :

أعتذر على الإزعاج غاليتي

تصبحين على خير..

سلام
وأقفل الخط..
اختنقت سارة والإعصار الذي غزاها أرخى أذرعه بانتفاضة واحدة فعصف قلبها وهوت كل قواها التي تزعم ، لقد كانت لشدة شوقها تهرب منه ، تخشى أن تعاتب فتبكيه ، وتخشى أن تصفح له فتظلم قلبها الذي ذاق لوعة الغياب ، لقد أرادت أن يقول عذرا تسد به ثغرات قلبها ليزهر مجددا ، لقد كانت تقاوم بكل ما أوتيت من قوة ، لكن ارتجافة جسدها خانتها مدت يدها للهاتف واتصلت عليه..
فتح محمد الخط بقلب مسلوب ، انتظر صوتها لكنه لم يحظ إلا بصمت ، كانت تغمض سارة عينيها بشدة ، وتقبض على قلبها بكل ما فيها ، لكن قلبها المشتاق لم يكن ليقبل أن ينام محمد وثمة سبيل إليه حزينا مشتاقا..
قال محمد: لن أهون عليك ، أعرف ذلك..
أرخت قبضة جفونها وقالت وهي لا تزال مغمضة عينيها ، بصوت أشبه بالهمس:
وكيف..
هان عليك قلبي!
قال محمد بعد أن انتفض من الفراش مقتربا من النافذة:
سارة..
بربك لا تقسي علي هكذا ، والله إن الشوق استبدل الدماء بعروقي بعشقك ، لقد كنت أريد أن أراك أن أسمع صوتك أن أحادثك ، كثيرا ما مر الليل وشوقي يخض دمائي إليك ، لكن الظروف والله كانت صعبة ، لم أستطع السفر لأخبرك أني سأتأخر أكثر وأترك العمل ، ظننت أني سأتأخر يوما أو اثنين ، لكن الأمور لم تسير وفقا لتوقعاتي
قاطعته قائلة: وحين وصلت أهلك يا محمد!
كيف تمكنت من أن تدعني..
تغيرت نبرة صوتها للبكاء فقطعت نفسها لحظة ، ومسحت دموعها بيدها ثم أكملت:
إن كان الأمر بالنسبة لك مجرد عذر يترتب بالحروف ، فها أنا أقبل عذرك..
ليس لأنك قلت ما يكفي ، بل لأن قلبي يؤلمني ويريد أن يركن إليك..
كانت الدموع تنهمر من عينيها تتعثر بها وتكمل قولها ، لكنها شرقت بدموعها فسعلت ، بينما محمد فقد انهارت قواه وتسيبت ركبتاه ، فسقط على السرير

جالسا ، لا حول له ولا قوة أمام دموعها ، تختنق سارة فتتمزق رئتاه وجعا ، لكنه بلسان مشلول عاجز ، سارة تبكي الآن بحرقة بسببه..

قال محمد بصوت مختنق: اهدئي..

تنهد وصوت خرخشة بصدره ثم قال متمعنا بهمسه: ليتني مت..

فقالت سارة قبل أن يكمل وهي تبكي: اسكت..

اسكت بربك وتعال إلي بسكوت تام ، لقد أضناني غيابك يا محمد وأنا لم أعهد من قبلك شعور الشوق ، ولم أعرف يوما طعم دموع الليل ، ولم أشم يوما رائحة وسادتي وقد أغرقتها دموعي لأجل أحد.. لم..

لم أتخيل أن أجلس لساعات أتمعن في طيف أحدهم واستنجده ليحضر ،

أن أمسح عرق قلبي ، وأسكته بتخيل مفتعل ، أو أعطيه حقنة مهدئة من الذكريات لينام مطمئنا..

كانت الدموع تنزف من عيني محمد ، فكلماتها أشعلت وقود شوقه ، سكتت سارة قليلا ثم نادت :

محمد.. محمد..

قال وقد تغيرت نبرته: معك ، معك يا قلبي

قالت: أو تغيب ثم تعقر روحي بصمتك!

لقد.. لقد اشتقت.. لصوتك

قال وهو يحاول جذب الهواء ليغير نبرة صوته: أو يحق لمن يُبكي من أحب أن ينطق!

لا كلام لدي يا سارة ، إلا أني والله تمنيت لو أنني مت بحق ، فجئتك بعذري محملا لتقبليني بصمت بلا عتاب..

لقد أخطأت بحق ، لكني لم أستطع أن أحادثك حين وصلت هناك ، لن تعذريني أعرف

لكنني كنت مشتاقا بقدر عمق هذا الليل وكآبته ، ولو أسعفني قلبي قليلا وأعانني على الصبر ، لما قبلت بغير فجر أطرق به بابك وأراك ماثلة أمامي لأشفي غليل شوقي منك

أنا آسف..

قالت سارة: محمد لا تقل هذا بربك

أنا الآسفة ، أعذرني أنا لا أجيد البوح بما يكمن في صدري ، فقد أختنق شوقا وأظل واقفة أمامك بلا أن يرف طرفي إليك..

إني مبلية ببرود ملامحي وعمق مشاعري فاعذرني بربك
قال: هل سامحتني..
قالت سارة وهي تغمض عينيها وتصرخ بداخلها الحروف قائلة " أولدي خيار أمامك يا محمد!":
لا تحتاج لقولي لتعرف ، إني لا أملك من أمري شيئا أمام عظيم شوقي..
قال محمد وهو يمسح دموع عينه: اذن امسحي دموعك وابتسمي لي..
مسحت دموعها والابتسامة قد ارتسمت وحدها ، ثم قالت وهي تتنفس وكأنها تأخذ النفس الأول في الحياة: هاه ، لقد ابتسمت.. قال مشاكسا إياها: أريني..
قالت بنبرة مرحة: هاا
قال: لا لا أكثر ، أريني.. أريني
فضحكت سارة وقالت: يكفي!
قالت ممازحا: مادامك عدت للأوامر ، إذن سأطيعك ، فلا سبيل لي غير ذلك أمام أمرك..
ضحكت سارة مجددا..
فقال محمد راميا حمل ظهره على سريره: يا رب هذه الضحكة.. كل البشر خلقوا من نطف العلق ، أما أنت فوالله ما خلقت إلا من نطفة المسك..
قالت سارة بخجل : اسكت..
ضحك ولم ينطق بحرف كما طلبت ، وبعد لحظات نادته ، فلما أجاب قالت: أين ذهبت!
قال: سكت..
قالت: اسكت عن حديثك المعسول أقصد ، لكن تكلم..
وألقت هي بدورها جسدها على السرير ، فقال: مشتاق يا سارة..
يا إلهي لو أنطق الآن ماذا سأقوول..
شعرت سارة أن محمدا سيقول ما لن تحتمله نبضاتها بعد كل هذا الغياب ، ولم تشأ أن يفيض قلبها بحبه فتذعن لحروفه مستسلمة ، فقالت: اممم ، لا تنطق إذن.. لننم ، أشعر بارتخاء شديد..
وهمست بداخلها " لقد رد الله على قلبي محمدي"
أغمضت عينيها ، وقد فعل ذلك فلم يدر كلاهما كيف نام ، لم يشعرا بشيء أبدا ، لقد طفت أجسادهما على سطح أمواج بحار شوقهما ، باسترخاء وهدوء تام..
***

-18-

من قال أن الصباح بزوغ شمس ، ونور يتسلل لعتمات السماء !
من قال أن الصباح شيء عادي واعتيادي ممل جدا ، روتيني جدا ، ومكرر بطريقة مزعجة!
تمر أيام كثيرة علينا ، ولا نزال مغمضين أعيننا تماما ، نحاول إغلاق الستائر وإقفال الأبواب جيدا على قلوبنا وعقولنا ، ننام ونفيق والصباح لا يعني لنا أكثر من بدء دوام أو عمل شاق ، نجر أنفسنا جرا فيه حتى يعود الليل ثانية ونسكن فيه ، لكننا وبلحظة ما ، بليلة ما ننام فيها على ظهر أمواج أحلامنا ، نستيقظ وندرك جيدا ما معنى أن الصباح قد جاء ، حينها تتجاوز الأشعة لا النوافذ المغلقة فقط ، بل وتخترقنا تماما حتى تصل إلى مكان النبض تماما ، فتتوهج صدورنا أملا وفرحا وسعادة ، هو نهار واحد يشعرنا وكأننا لم نبصر يوما صباحا قبله ، حينها فقط يمكنك أن تبتسم للشجر والطير ، للمرآة ولكل من حولك ، وتقول بكل تمعن "صباحي اليوم خير.."
وهذا ما حدث تماما حين استيقظ محمد صباحا بكل نشاط ، وكأن حديثهما البارحة قد نفض عن قلبه وجسده كل مشقة الأيام التي مرت ، كان نهارا عن ثلاثين نهار ، حتى أن نبض قلبه كاد لفرط تزاحم نبضاته يحمله نحو السماء ليحلق مع الحمام..
أرسل لسارة رسالة:
"صباحي أنت..
والله لا خير في صباح لست فيه
أحبك"
استيقظت سارة على رسالة محمد فردت عليه ، بعد أن جلست وشربت الماء:
"لقد غاب عني صباحي طويلا وحين عدت لي عاد..
صباحي أنت"
كان الجميع نائمين في بيت سارة ، في تمام الساعة الثامنة صباحا.. أعدت لنفسها الفطار مع مشروب ساخن وجلست لتتناوله بقرب النافذة ، شمس خفيفة ، ونسائم هواء باردة تحمل ندى أمطار غزيرة في الليلة السابقة ، رائحة التراب والمطر وفيروز تغني على الراديو:
حبيتك بالصيف.. حبيتك بالشتي
نطرتك بالصيف.. نطرتك بالشتي

وعيونك الصيف وعيوني الشتي
ملقانا يا حبيبي
خلف الصيف وخلف الشتي
مرقت الغريبة.. عطيتني رسالة
كتبها حبيبي.. بالدمع الحزين
فتحت الرسالة.. حروفها ضايعين
ومرقت أيام.. و غربتنا سنين
وحروف الرسالة..محيها الشتي
حبيتك.. بالشتي

فتحت كتابها الذي قاطع قراءته حضور محمد البارحة ، وأخذت تقرأ بتمعن ، سرقتها القراءة مما حولها ، حتى استيقظت عائلتها ، نادتها والدتها لتأكل ، فاعتذرت قائلة: لقد أفطرت صباحا..

فارتفع صوت والدها يقول لأخيها أسامة : قل لها لا شأن لنا بفطورك ، تعالي هنا نريد أن نراك

جاءت سارة وهو يتحدث ضاحكة من خلف الصور فقالت: والله أكلت!

أقرأ بالمقدمة التي أعطيتني إياها لابن خلدون..

فأشار لها بيده وهو يمضغ الطعام ويرفع حاجبيه ، أن تعالي إلى هنا ودعي أي شيء من يديك..

فجلست وهي تضحك وتقول: هاا جلست..

كانت ملامحها متوردة ، وفي عينيها بريق سعادة يحتفل بالحياة ، قال والدها متوعدا: ماشي مااشي

ضحك الجميع

فقالت وهي ترفع حاجبيها بتعجب: مااذا!

قال: تعرفين أن محمدا قد جاء ولا تقولي.. ماشي مااشي

احمر وجهها وارتبكت ثم قالت: امم بالليل ، لقد.. تحدثنا..

لكن من أخبرك!

هل اتصل بك!

فقال ممازحا بفخر: أو تظنين أنه يأتي هنا لأجلك أنت فقط ، نحن أيضا أصدقاء..

قالت وهي تضحك: يا سلام..

قال المهم ، سنخرج اليوم لنتغدى في المزرعة احتفالا بعودته سالما فقد أقلقنا عليه ، أمك ستعد الطعام وأنت تجهزي
فقالت أختها الصغيرة: وأنا ! !
فقال مستدركا: أنتن الاثنتين تجهزا سريعا سنخرج..
سننطلق بعد صلاة الجمعة بإذن الله..
كادت تقفز سارة فرحا ، لكنها أمسكت انفعالاتها وهزت رأسها بعقلانية ، ثم تسحبت لغرفتها وقفزت من شدة الفرحة ، وانطلقت لخزانتها تجهز ملابس جميلة لتراه بعد كل هذا الغياب..
ارتدت جلبابا بني اللون ، طرف أكمامه واسع بعض الشيء ، وحجابا أزرق ، بينما العائلة كلها غارقة في توضيب أغراض الرحلة ، كانت سارة تحادث نفسها وتنظر لنفسها بالمرآة بصمت تام ، تنظر في عينيها وتوصيهم بألا تبكيان أمامه اليوم مهما حدث ، وتوصي لسانها لتقول له "أحبك " بل وتتدرب على ذلك فتقف أمام مرآتها وتقول بسرها وهي ترى ما يفوق قدرتها على التعبير بعينيها: أحبك.. نعم أحبك ، أحبك كثيييرا ، نعم نعم أحبك
ثم تضحك على نفسها باستحياء وتجلس على سريرها ، تمسك وسيما وتخبره بأنه قد عاد ، وتقول له: ليت بإمكاني أخذك معي لتراه ، والله أحبه ، أحبه جدا
ثم يسرقها الشرود مجددا فتنظر للمرآة وهي تفكر: لقد نسيت شكله لكثرة شوقي له ، ومحاولاتي لاستحضاره ، أيعقل أن يكون قد تغير شكله ، هل أصبح أكثر سمرة ، هل حلق شعره ، هل بات أكثر نحلا مما كان..
وصل والدها من الصلاة ، والجميع قد تجهزوا ، فانطلقوا لبيت محمد ، وحين وصلوا كان محمد يقف بالأسفل مكتفا يديه ، ومتكئا بحقيبة ظهر على باب العمارة ، يرتدي بنطالا و حذاء رياضة وكنزة سوداء ، لها ياقة كياقة القميص ، مشدودة على عضلات يده التي باتت أكثر بروزا ، وحقيبة ظهر رمادية ، شعره أسود متوسط الطول مسرح للخلف ، بأذنيه سماعات لاسلكية ، يرتدي نظارة شمسية عاكسة ، وبيده ساعة سوداء
كانت سارة تجلس بجوار النافذة ، قبل أن تبدأ عينها برؤيته ببضع أمتار ، توترت فأمسكت يد أختها وقالت هامسة لها بأذنها: سيغمى علي حين أراه..
لا أصدق ، أن محمدا قد عاد مجددا ، لا أدري ماذا سأفعل حين أراه بحق..
قاطعت حديثها أختها وهي تهز يدها بعنف وتشير له بنظرها ، استدارت واعتدلت بجلستها ، نظرت إليه وهي تعصر يد أختها عصرا ، حتى توقف والدها فانتبه محمد

لحافلته ، فأزال السماعة من أذنه وخلع النظارة متقدما نحو الحافلة يعطي نظره لعمه ، بينما عقله وقلبه وكل شيء حي بداخله راح يهفو ليضم سارة ، قبل عمه واحتضنه بحرارة ، فقال العم:
الحمد لله على سلامتك
لقد أخفتنا عليك يا رجل..
علل له محمد مرة أخرى سريعا ، فصعد العم الحافلة ودعاه ليصعد بجوار عمته..
سلم محمد على عمته وقبل يدها فقالت له: ألف الحمد لله على سلامتك ، لم تهدأ فتاتك لحظة واحدة في غيابك..
فابتسم وأخيرا تمكن من النظر إليها ، بينما نظرات سارة كانت متعلقة به جدا ، و تلاحقه باهتمام بالغ..
وقف على مقربة من نافذة الحافلة ، وألقى السلام ، فردت عليه همسا وعيناها تناظر عينيه بلا أن ترمش حتى ، مع ابتسامة شوق ذابلة ، وحنين مفجع ، فمد يده ليسلم عليها ، لكنها لم تحرك يدها ، فرفعت أختها يدها اليسار نحو النافذة ، فسلمت عليه دون إدراك..
قال له عمه مستعجلا إياه: هيا يا محمد..
تعال هنا ، عقد حاجبيه بوجهها مداعبا إياها وكأنه يريد أن يقول لها "أفيقي.."
جلس محمد مرتديا نظارته العاكسة يتحدث مع عمه وهو جالس بجواره على مقعد الكرسي ، وعيناه معلقتان بسارة ، التي تنظر للنافذة تارة وله تارة ، وتتكئ برأسها على كتف أختها تارة أخرى..
في منتصف الطريق نزل العم من الحافلة ليبتاع خبزا ، أصر محمد أن يذهب هو ، لكن العم رفض متحججا أنه لن ينزل عمته من الحافلة لكي ينزل بمكان مملوء بالرجال كهذا..
حينها حرك محمد المرآة لتصبح وسيطا حقيقيا بينه وبين سارة يراها وتراه ثم رفع النظارة عن عينه ، وقال: ها يا سارة كيف حالك..
ضحكت سارة وقالت وهي تعدل جلستها ، متخبطة بين الهروب من نظراته وعناقها: بخير الحمد لله
فنظر محمد لعمته وقال: تحدثي معه يا عمتي ليجلسني بالخلف حين نعود ، أنا أجلس بجوارها بالبيت عندكم ، فلماذا يمنعني هنا..
ضحكت عمته وقالت بقلة حيلة: والله هذه مشكلتك تحدث أنت معه بخصوصها ، أنا لا أصدق أنه متساهل معكم لهذه الدرجة..

قال محمد وهو ينظر لسارة: متساهل!

فضحكت سارة وأختها ، فقال محمد لأختها وهو يتهرب بعينه: كيف حالك ، وكيف حال دراستك ؟

قالت: الحمد لله بخير..

فقال: على الدوام يارب..

ثم سأل عن أسامة ، فأخبروه بأنه نائم ، فقال ممازحا: أيقظوه الآن لينام بالمزرعة..

نزل العم على أدراج الفرن ، فنظر محمد لسارة وكأنه يريد أن يودعها فبحلقت سارة بعينيه وهي تومئ له بالرفض ، فعقد حاجبيه رافعا أحدهما ، فأشارت للنظارات بيدها ، وهزت رأسها ، ففهم أنها لا تريده أن يرتديها ، فأسدل جفنيه وهز رأسه لها ، وضع النظارة وأعاد المرآة لوضعها السابق ، فصعد العم ثانية وعادا يتحدثان بنهم ، وسارة معلقة عينيها بالمرآة لا ترفعهما إلا حين ينظر نحوها ، فتتظاهر بالانشغال..

حطوا رحالهم بالمزرعة ، كان الجو لطيفا جدا ، الجو دافئ ونسائم الهواء عليلة..

جلس العم ومحمد ، بينما ذهبت الخالة وبناتها ليحضرن الغداء فورا قبل أن يبرد ، بينما أسامة كان يتفقد الكلاب ويتمشى بالمزرعة..

وضع الطعام واضطر محمد للبقاء بجوار العم ، إذ خجل أن يطلب منه الجلوس بجوارها ، قال محمد: الله ما أشهى الطعام من يدك يا خالة ، والله طعامك له لذة مختلفة..

فقالت سارة مندفعة بعفوية: أنا حضرت السلطة..

ثم خجلت وضحكت مستدركة موقفها ، فضحك عليها الجميع ، وقال محمد: سلم الله يديك.. لكنا نريد أن نتذوق طبخة كاملة من تحت يديك لنرى إن كنت ماهرة أم لا..

فقال العم: معه حق ، من الآن وصاعدا لن نعزمه إلا حين تطبخين أنت..

فضحكت سارة وقالت بسخرية: إذن لن نعزمك إلا على الفطور..

فقالت الخالة : وأي فطور.. بيض مسلوق لأنها لا تجيد قلي البيض ، و كل شيء معلب تقوم بفتحه فقط ، حليب وتسخن الخبز.. وتريدنا أن نسميها الشيف سارة بعد ذلك..

ضحكوا عليها

فقالت سارة مدافعة: لا وأجيد طهو المعكرونة بالصلصة والأندومي

فصفق محمد لها وقال ساخرا: الله ، أفحمتيني بقولك..

يبدو أنني سأضطر للطهو بدلا عنك إذن..

قال العم: ستفعلها مجبرا حين تجوع ، أو تشتهي شيئا ، اسألها كم مرة حرقت لي الطعام بالبداية ، وكم مرة وضعنا الطبخة جانبا وأكلنا زعترا وزيتا في النهاية ، وكم مرة طهوت أنا عنها..
فقالت الخالة بسخرية لتدافع عن نفسها: لا تصدقه ، كل ما في الأمر أن والده كان شيفا يعمل في أميركا ، فيطهون الطعام بطريقة غريبة ، وعمك له ذوق صعب بالطعام ، فأنا كنت أتظاهر بعدم قدرتي على طهو الطعام كي يطهوه هو أولا..
أما عن حرق الطعام فكنت أتعمده حين يغضبني ، أو يصر علي لأطبخ له طبخة ما..
ضحك العم وقال: اسمع تعلم أمرا واحدا إياك أن تجبر امرأة أن تحضر لك شيئا ، عليك أن تستعطفها لتطبخ لك ما تريد خصوصا إن كانت الطبخة مكلفة ، أو كنت مشتهيا إياها ، فإن أعدتها لك بحب ، تذوقت نكهة الحب بالطعام ، وإن لم تفعل..
قال أسامة مقاطعا: أكلتها محروقة
علت ضحكاتهم فقالت أختها: لذلك إذن كلما رأيت والدتي تطبخ تدخل تمازحها وتغازلها..
تنحنح العم وقال وهو يضحك : قل خيرا أو لتصمت..
وقف محمد وهو يضحك قائلا: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين ، أدامها الله عليكم بالصحة والهناء..
فقال له العم: أكمل يا رجل..
قال: شبعت والله ، أبدلكم الله خيرا منه بالجنة..
فقالت الخالة: صحتين وعافية
قال: على قلبك..
توجه نحو تنك المياه الذي كان يغسل يديه منه فلم يجده ، فقال:
كيف سأغسل يدي !
قال العم لسارة إذ شبعت هي الأخرى: صبي عليه الماء بنيتي من الجرة المرتكزة على جذع الشجرة..
وقفت سارة وأحضرتها لتصب على محمد ، فما أن أنزلتها ، حتى انسكب الماء عليه ، فقال:
رائعة أنت..
ضحكا وغسل يديه ، فلما أنهى قال لها: تعالي اغسلي يديك أيضا ، سأصب عليك الماء..

فقالت متهربة: لا لا شكرا سأغسلها بالداخل..

بعد دقائق أذن أذان العصر

فرفعوا الطعام وصلوا ، ثم أعدت الخالة القهوة بكاسات كرتونية ، وأعطت كل واحد فنجان قهوته ، ذهب أسامة وأخته ليتمشيا بالمزرعة ، فقالت الخالة للعم بعد أن أشار لها محمد لتتوسط له بأن يمشي مع سارة: الله ما أجمل الأجواء هنا ، تعال نمشي سويا ، ومحمد تجول مع سارة بالمزرعة قليلا

قال العم: لا ، لا دعينا جالسين هكذا أفضل

قالت الخالة وهي تشد يده: هيا يا رجل ، أريد أن أخبرك أمرا مهما..

فضحك العم وقال: أمر مهم ها..

ثم نظر لهما وهو يهز رأسه وكأنه قد فهم الخطة قائلا: ما رأيكما سيد محمد وست سارة..

ضحكت سارة بخجل ، بينما قال محمد وهو يحك رأسه ويرفع أحد حاجبيه مبتسما: أرى أن الأمر مهم كذلك..

فضحكوا جميعا وقال: حسنا ، تجولا سويا ، لكن لن نتأخر قبل أن تغيب الشمس كونا هنا ، لتصليا المغرب ونتحدث سويا..

فهز محمد رأسه ، وقال وهو يحمل كوب قهوته بيده ويضع الأخرى بجيب بنطاله: أكيد ، أكيد بإذن الله

ذهب العم والخالة ، فنظر محمد لسارة وابتسم ، مشيرا لها برأسه ، نظرت له ثم أخفضت نظرها وابتسامة طفيفة على ملامحها..

لم يرغب محمد بمحادثتها ، بالوقوف أمامها بأن يسألها عن حالها ، كان يتمنى أن يضمها فقط دون أي كلمة وبكل صمت..

لكن بعض الرغبات لا خيار لها سوى أن تقف بكل انضباط بخانة الأمنيات ولا تتجاوزها ، بالرغم من أنها تعتبر زوجته ، وبالرغم من أنه قد ضمها في حفل خطوبته واقترب منها ، لكن هذا البعد يعجبه ، ولوعة فؤاده بحضورها يستلذ بها أكثر بكثير من تلك اللذة التي سيجنبها من ضمها ، إيمانا منه أنه كلما طال وقت التمني ، وزادت صعوبة الطريق للوصول ، زادت قيمة المتمنى وعلا شأنه ، ومن ثم أصبح للوصول إليه لذة أخرى ، أعظم بكثير مما نناله في لحظة الرغبة ، سار محمد قبلها وهو يفكر بالأمر ، وهو يقوم بارتداء سترته..

أما سارة فكان قلبها يسير بقدميها يخفق مع كل خطوة حتى يكاد ينتزع قلبها من مكانه ، كانت تريد أن تقترب منه ، ثم تديره نحوها وتظل تحملق فيه بلا أن

تنطق ، كانت تريد أن تراه وتراه حتى تسترد روحها بعضا من صحتها وتعلو مجددا للسماء ، كان تفكيرها يمنعها من السير سريعا ، كانت خطواتها بطيئة جدا ، تسير وتجر روحها المنهكة لكثرة الشوق خلفها..
توقف محمد بعد أن أصبحت قريبة منه ، فتح يده لها وقال دون ان ينظر بعينيها: هنا..
قالت: م.. ماذا
قرب يده من يدها أمسكها ثم سار بقربها محاولا ألا يلتفت لها ، وهاربا من أن ترى شيئا مما يحدث به ، لو نظر لها الآن..
بلا تدرج ارتفعت حرارة سارة عاليا ، وقفز قلبها الذي كان يسير مختبئا خلف أقدامها ليطير للسماء ، شعرت سارة بالدوار ، ومعدل نبضاتها قد زاد بسرعة ، حتى بدأت تسمع طنين النبض بأذنيها ، لم تقل شيئا ، لكن محمدا شعر بها ، فحاله لم يكن أفضل بكثير من حالها ، إنما كان يتشبث بقلبه وعقله ليتمكنا من استيعاب الأمر والتصرف بطريقة مهذبة ولائقة ، وهو يدعو الله بسره أن يثبته ويحميها منه ، ومن جنونه وطيشه بلحظة كهذه..
لم يلتفت لها رغم شعوره بحرارة يدها وارتعاشة جسدها الصغير الذي تقلص حجمه أكثر في غيابه ، سار ببطء ، وكأنه يمنح نفسه وإياها فرصة ليهدأا قليلا..
كادت سارة تسكب القهوة من يدها ، فشعر بها محمد وأخذها من يدها بأطراف أصابعه ليصبح الكوبان بيده ، بينما لا يزال هو ممسكا بيدها ، أصبحت سارة أمامه مباشرة ، نظرت له بجفول ، فابتسم لها وقال: هاتي عزيزتي سأمسكها عنك قليلا..
لم يتمكن من تجاهل نظراتها ، لكنها سرعان ما أغمضت عينيها وتداركت الأمر ، مدعية أن لا شيء قد حدث..
تركت سارة الكوب ، فأمسكه محمد وعادا للسير ، ثم سحبت يدها من يده وقالت مدعية المزاح: لا أستطيع أن أمسك بشيئين معا ، أعطني الكوب..
ابتسم محمد وقال مناولا إياها كوبها: نعم رأيت ذلك ، لأنك لازلت صغيرة..
أمسكت كوبها بذات اليد بينما وضعت يدها التي أمسكها محمد بجيبها فقد كانت مشلولة تماما لا تقوى على فعل شيء وقالت بصوت منخفض: لست كذلك..
لم يكن جوابها ينم عن عنادها أو شيء مشابه لكل مرة ، فقد سمعه محمد يخرج من قلبها ، وكأنها تقول لا يمكنني التوازن وأنت معي..

قال محمد بعد أن أخذ نفسا ، بنبرة مرحة لينفض هذه المشاعر الغريبة عنهما: هاا أخبريني كيف حالك؟ ماذا فعلت في غيابي؟ هل افتقدتني أم أنك لم تشعري بشيء..

ثم تعالي هنا يا مجنونة ، من أين لك كل هذا الجمال قبل يوم ميلادك!

قالت سارة مستنكرة كثرة الأسئلة ، غير مدركة من أين عليها أن تبدأ الإجابة: سؤال ، سؤال هل سأجيبك عليهم كلهم مرة واحدة!

ثم نظرت إليه وهي ترفع حاجبها معترضة وأتبعت:

لكن أي جمال! وهل كنت جميلة يومها فقط!

ضحك محمد بشقاوة ، شرب من الكوب ثم قال وهو ينظر لها بطرف عينه: بلى ، بلى

ثم قال بشغف: لكنك كنت جميلة بطريقة غريبة جدا ، ملامح وجهك كانت منسجمة جدا مع الألوان ، وابتسامتك!

كانت رائعة بحق..

فقالت وهي ترفع حاجبيها بتعجب: كاانت!

قال مستفزا إياها: نعم ، حين كنت صغيرة.. الآن أصبحت عجوزا..

ضحكت وقالت ببرود: عجزت لأني عرفتك..

ردد قولها مستهزئا ثم قال: سأقتلك ذات يوم على أجوبتك هذه

ضحكت باستفزاز وقالت: والله لا أكذب..

نظر إليها فقالت وهي تمسك أطراف سترتها بيديها لتتدفأ:

أنا والله لم أبك قبلك لأجل أحد قط ، حتى أني والله أذكر كيف كنت أدعي البكاء ادعاء لرغبتي بأن أجرب شعور الحزن..

فقط كنت أبكي حين أطلب من والدي شيئا ويرفضه وهذا حدث مرة أو مرتين في حياتي كلها..

أما حين عرفتك ، هه ما شاء الله..

قال وهو يرفع حاجبيه باستغراب: أيكون محمد هو السبب بدموعك بالنهاية يا سارة..

فاستدركت سارة الأمر قائلة: فقط حين تغيب ، لا تفعل ذلك مجددا..

تغيرت ملامح محمد فجأة ، وتلبد وجهه فقال وهو يرفع أحد حاجبيه وينظر لكوب القهوة: أنا أعتذر..

قالت سارة وقد ملأها الضيق: يووه محمد ، لا تتحسس مما أقول ، أنا أتحدث بعفوية ، والله لن أنطق إن بقيت هكذا بحرف واحد..
أو لا تعلم ما أنت عليه داخلي..
صمتا الاثنين ، ابتعدت سارة عنه قليلا وهي تنظر للجهة الأخرى وتراقب الأرض وأسراب الحمام ، بينما هو كان منشغلا بمراقبتها فقط..
توجهت نحو كومة الصخور ذاتها التي جلسا عليها بالمرة السابقة ، فاقترب منها محمد وجلس على بعد شخصين وقال :
أيمكنني أن أسألك سؤالا !
قالت دون أن تنظر له: تفضل..
قال :
كنا قد اتفقنا قبل أن أسافر ، أن هذه الفترة ستجعلنا نعرف ما قيمة كل واحد منا لدى الآخر ، فهل غيابي أحدث في حياتك فرقا!
أمسكت الكوب بكلتا يديها ثم رفعت رأسها نحو السماء وزمت فاهها وقالت:
امممم ، أكذب عليك لو أجبتك بلا ، وسأكذب عليك حين أجيبك بنعم..
سارة التي تقف أمامك الآن باتت فتاة أخرى ، صحيح أني لا أزال كما أنا بهيكلي ، لكن شخصا ما تجذر بأيسري ، لقد لاحظت الاختلاف حين غبت ، وتحسست وجودك حقيقة بداخلي ، وحين عدت بلحظة واحدة ، أزهرت بك مجددا..
بالطبع ثمة فرق ، لكني لا أجيد وصفه بحق..
ثم رفعت أحد أكتافها بقلة حيلة ، وأشارت له بيدها قائلة: ماذا عنك أنت ؟
قال وهو يعبث بعرق لشجرة الزيتون بيديه :
ماذا عني أنا..
اوه ، لاأدري ماذا أقول لك بحق..
نحن الرجال نشعر أكثر بكثير مما يخيل لكن ، لكن لا شيء يساندنا لننطق ، نحن نرغب بالبكاء لكن البكاء يصد عنا ، نرغب بالفرح لكن الضحكة تصد عنا ، نرغب بالنساء لكن النساء تصد عنا..
نحن نرغب دوما لكننا محوصلون تماما لا يمكننا الفرار مما يحوصلنا مهما سعينا لذلك..
اشتقت لك كثيرا ، كما فعلت..
أعرف ذلك دون أن تخبريني بشيء ، أعرف أنك بكيت ، والبكاء أمر طبيعي جدا لا عيب فيه..

لكنني اشتقت وتلوعت وأنا أبتسم ، احترقت في غيابك وأنا صامد أمام كل من يمرون بي بابتسامة زائفة ، قناع ألبسني إياه مجتمعي رغما عني ، فإن بكيت سقطت وأصبحت امرأة!
نعم اشتقت لك وجدا ، لم أر في غيابك سواك في كل الوجوه والأشياء ، في تفاصيل يومي ، نومي وصحوي ، لكن لأكون صادقا معك لم أبك سوى بسجودي ، ولم أحلم بك سوى مرة واحدة ، وانشغلت عنك كثيرا ، وحاولت الهروب كثيرا ، لكني كنت أفشل دائما ، نحن الرجال مجبرون على ارتداء ثوب البلادة كي لا ينزع عنا ثوب الرجولة الشرقي..
قاطعته سارة قائلة: وهل يتوجب على المشتاق أن يبكي ؟
ابتسم ونظر لها ثم أعاد بصره للعرق مجددا: لا يتوجب ، لكنها تحمل عن أكتافنا حملا ثقيلا جدا..
إن الدموع في لحظات الشوق ، وسادة تقدم لمرء متعب أرهقه كثرة العمل والجد..
قالت: لقد كنت أنام حين أبكيك بحق!
قال: لقد كانت دموعك تلك تستحضر كتفي ، هنيئا لك بما لم أفلح أنا به..
وقف محمد وقال: دعينا نمشي..
قالت بكسل: دعنا جالسين ، الجو بارد..
ضحك وقال: بربك ، لا أجيد الإطالة بالجلوس..
قالت: طيب..
اممم أريد أن أسألك سؤالا أنا أيضا..
قال: تفضلي..
قالت بتأن: الآن أنت بت تعرفني جيدا ، كما أنا أعرفك..
هل ترى أننا سنكون متفقين مستقبلا ، أم أننا سنتعثر كثيرا حتى نستقر!
وهل ما يحدث بيننا يحدث بين كل الخاطبين!
ابتسم محمد ابتسامة باردة وقال: اسمعيني عزيزتي ، بالنسبة للاتفاق وما أعرفه عنك وما تعرفينه عني فبالطبع هذا يكون أول أساسات البناء ، لكننا لا نزال لا نعرف شيئا مما ينتظرنا غدا..
كل ما أعرفه أنك وإن كنت سيئة فأنت أفضل امرأة فوق هذه الأرض ، لذلك أنا مستعد للموت معك حتى آخر لحظة بحياتي..

أما سؤالك عن إن كان ما يحدث بيننا يحدث بين كل الخاطبين أم لا ، فسأجيبك بسؤال آخر هل كل الخاطبين يمنعون نفسهم حين يكونون وحدهم مثلنا ولا رقيب لهم سوى الله ، خوفا من الإثم
هل كلهم يقدرون على كبت جماح رغباتهم ، والوقوف على هذا البعد بينما تملأهما الرغبة بأن يضما بعضهما البعض!
قالت سارة نافية الأمر: أنا لا أرغب بذلك
نكس محمد رأسه وحك رقبته قائلا وهو يبتسم: ولا أنا..
قالت سارة بجدية: أنا أؤمن جدا أن العلاقات تظل طاهرة سامية مبنية على حب حقيقي حتى تتدخل الأجساد بينها ، فإن بدأ أحدهما بسلسلة الجسد وتقبلها الآخر ، ستكر حلقات الجسد كالمسبحة ، حتى لا يظل منها شيئا ، فتركن جانبا ، إن لم يكن بأقرب سلة مهملات ، فستكون بأحد الأدراج العتيقة..
قمة الحب وسموه ، حين تكون الأرواح من تتشارك كل شيء ، وتوثقها القلوب والكلمات
أحب محمد نظرتها للأمر فقال لها: مميزة أنت يا سارة بحق ، لا ينضب تميزك أبدا ، أكون معك وأعرف أني سأنبهر من أي شي قد تقولينه أو تفعلينه ، أنت ساطعة جدا ، ومميزة جدا
إياك أن تتغيري يا سارة..
نظر إليها وقال مستفسرا بعد أن أخذ من يدها كوب قهوتها وشرب منه: هل تحلمين بليلة زفافك ، وتفاصيل الاحتفال..
أم أن الأمر لا يفرق معك كثيرا!
سحبت كوبها من يده مجددا ونظرت له وكأنها تستحلف له وقالت: إياك أن تسحب مني شيئا معي ، أنهيت حصتك..
ضحك محمد وقال: أوه يا لئيمة ، بدلا من أن تقولي صحة وعافية على قلبك ، ألسنا شخصا واحدا!
قالت وهي تنظر إليه بطرف عينها المغلق نصفها: لا طبعا ، كيف نكون شخصا واحدا ونحب بعضنا البعض!
قال محمد مركزا ومصغيا لما قالته: و.. ماذا! ، أعيديها..
قالت بتأتأة: يعني أننا اثنان وكل واحد يحب نفسه
اعتدل برأسه وهز أكتافه ضاحكا دون أن يخرج صوتا..
فقالت متهربة منه : احم..

اممم لا أحلم بالزفاف بحد ذاته ، ولم يكن يوما أحد أحلامي ، لا يهمني جدا بقدر ما تهمني حياتي بعده معك أنت..
لا أفكر كم سأبدو جميلة به ، ولا شكل المركبة التي ستحملنا ولا شيء مما سيحدث بذلك اليوم ، لكني حتما سأحب أن يكون كل شيء رائعا جدا ، كنت أرى هذا الأمر سخافة طوال عمري ، لكن حين أفكر بالأمر بحق ، فهي قد تكون ليلة واحدة في عمري أعيش فيها شعورا مماثلا ، أن يقام احتفال كامل ودعوات رسمية لي أنا..
قاطعها قائلا: قد!
نظرت إليه وهي تضحك: نعم ، قد من الممكن ألا نتفق ونتطلق وأتزوج مرة أخرى ، لا نعرف ما تخبئه الأيام لنا..
وقف محمد مشدوها وهو يرفع حاجبيه ويفتح يديه: مجنونة أنت ، وتقولينها لي حتى قبل أن أتزوجك!
أخذ يضرب كفيه ببعضهما البعض وهو يقول:
يا سلام عليك والله ، أنا أعرف أن المخطبوين يعدون بعضهم أنهم لن يتفرقوا حتى آخر يوم بحياتهم ، ومع ذلك نسمع ألف حكاية عن متزوجين تفرقوا بعد عام أو أشهر حتى..
وأنا تقولين لي أني قد أتزوج بعدك من الآن!
ضحكت سارة على شكله وهو يكاد يلطم منها ، وقالت: بالعكس يا مجنون ، هؤلاء الفتيات لأنهن يكذبن ويقلن أنهن لن يذهبن مهما حدث ، يظن الرجال أنهن صادقات ويكتشفن بعد ذلك أن كل ما كان مجرد كلام ، أما أنا فواقعية جدا ، إن كنت رجلا بحق ، سأبقى وإن لم تكن سننفصل بكل تأكيد..
قال محمد بغضب: سارة يكفي ، يكفي بربك ، والله لست معقولة بحق..
صمت لحظة ثم قال: وكل الذي فعلته لأجلك! تنسينه بلحظة لو أغضبتك!
زمت سارة فاهها باستياء وقالت: بالطبع لا ، ما هذا الغباء الذي تفكر به ، كل يوم نتشاكس أنا وأختي بالبيت ، ونختلف ، نتشاجر ونتصالح ، سأتركك لشيء تافه كهذا يعني!
كن منطقيا..
قال مهتما: وما هي الأسباب التي ستدفعك لأن تفكري بالانفصال..
قالت: أولا لم أقل سأفكر بالانفصال إنما قلت قد وقد تفيد التشكيك هنا لا التحقيق..

ثانيا ما قد يجعلني أطلب الانفصال ببساطة أن تسقط من عيني كرجل أشاركه حياتي ، تخون ، تكذب ، تضرب..
تلك الأشياء التي أعي جيدا أنك لن تفعلها ، ولو أني أرى فيك شيئا صغيرا منها لما قبلت بك على أية..
نظر إليها بنفاذ صبر وقال: إذا لا داعي لاستفزازي أكثر..
لن ننفصل أبدا
ضحكت وقالت وهي تهز رأسها: حااضر يا سيدي لن ننفصل أبدا..
نظر إليها بطرف عينه وقال: أعانني الله عليك..
ضحكت وقالت: أتفق معك بذلك.. آمييين
زفر هواء قد اضطرب بداخله بوسط فوضاه ثم قال: لا حول ولا قوة إلا بالله..
قالت سارة وكأنها تحاول الهرب من مزاجه الذي على ما يبدو أنه قد تعكر: أوشكت الشمس على الغروب أنعود ؟
قال محمد: لا ، حين تغرب..
ثم أعاد التفكير بالأمر وقال: أو دعينا نعود ، قبل أن تقضي علي بفكرة أخرى..
ضحكت سارة من قلبها ، فضحك وهو عاقد حاجبيه وقال: تعشقين استفزازي
حاولت إمساك ضحكتها بوضع يدها على فمها ، هزت رأسها بشقاوة ، ثم عادت للضحك من جديد..
فتحلحلت عقدة حاجبيه أمام جمال ضحكتها وعفويتها ، وظل ينظر لها ، حتى اضطربت ضحكتها وخجلت فقالت: احمم ، شكلك لطيف وأنت غاضب..
ضحك وقال: لطيف ها..
ظل يتأملها قليلا حتى توقفت عن الضحك ثم قال لها: أحبك
خفضت رأسها وقالت وهي تعبث بحجابها كعادتها بارتباك: ا..وأنا
فقال مؤكدا: وأنت ماذا ؟
ردت بلعثمة: م..ممثلك!
فأتبع باستغباء: أي!
نظرت له دون أن ترمش ، ثم أبعدت نظرها وهي تطبق شفاهها: لا تستغب ، أنت تعلم..
فضحك بشقاوة وقال: حسنا.. قوليها..
أزاحت نظرها عنه وهزت كتفيها قائلة: لن أقول..
رفع حاجبه وهو ينظر لها ثم قال وقد عز عليه أن يطلبها منها دوما: كما تشائين..

أخذ نفسا عميقا ثم أزاح وجهه عنها وأتبع:
علي أن أطلبها منك كل مرة ، وأن أتحايل عليك حتى تنطقين بها ، حتى بعد غيابي شهرا كاملا ..
لا فائدة..
نكس رأسه وقال وابتسامة باردة على وجهه: دعينا نعود..
شعرت بالضيق من نفسها ، أرادت أن تقول لكن لسانها الثقيل ، يخونها كالعادة في أكثر المواقف شعورا وصدقا ، قالت له: أنا لن أعود ، عد وحدك..
مشت مبتعدة عنه قليلا وجلست على حافة صخرة جافة مرتفعة قليلا تطل على الأراضي المجاورة بالقرب من المنزل ، وضع محمد يديه الاثنتين بجيبي بنطاله وسار نحوها ، ثم جلس بجوارها على مسافة شخص..
قال: بت أسأل نفسي كثيرا ، لما ألح عليك دوما في قول هذه الكلمة ، وأتمنى سماعها منك ولو مرة واحدة ، مصرا على إعادة ذاك الشعور الذي خلقته لأول مرة داخلي..
خطبتنا قاربت على إتمام الثلاثة شهور ، ورغم ذلك أشعر وكأني رجل غريب تماما عنك ، أشتهي أن أرى شعرك ، أن تمسكي يدي ، أن تقولي " أحبك" ، أن تفعلي أي شيء يشعرني أني أصبحت زوجك شرعا ، أنا أدرك أنك مختلفة جدا ، وأتفهم موقفك من الأمر حتى أني لم أطلب منك صورة لك بشعرك ، وحين نكون وحدنا أخجل إن أمسكت يدك وأشعر أني بذلك أقترف ذنبا..
لكني حقاا والله بت أصلي وأدعو أن يحنن الله قلبك علي ، أنام وأنا أحلم بك ، وأول ما أراه في صحوي ، صوتك وصورتك وابتسامتك البريئة التي تغنيني عن كل شيء ، في داخلي أشياء كثيرة تتزاحم على شفاهي لأقولها!
لكن!
أخذ نفسا ثم قال باستياء :
أتدرين يا سارة
والله كلما حضرت إلى هنا ، أحضر قصيدة لأقولها لك ، وأكتب على ورقة ما أريد إخبارك به ، لكنني كلما قابلتك رأيتك لا تقابليني سوى بالصمت ، وردود مختصرة ، أشعر بالخجل من نفسي فتضيع حروفي كلها أمام جمودك..
أنا لا أحبك
أنا...
أخذ شهيقا عميقا ، ثم نفثه دفعة واحدة وأتبع:

أنا لا يمكنني إنصاف نفسي أمامك ، لا يمكنني أن أرتب حرفين إذا نظرت لي والله حين أراك ذرات جسدي كلها تقشعر وتكبر باسم خالقك وخالق هذا الحب الذي يجتاحني بالكامل..
ظلت بسكونها ولم تنطق بشيء ، كانت تضع يديها على الأرض وكأنها ترتكز بهما وهي جالسة بجواره على بعد خطوة ، وحين أنهى قوله رفعت يداها ونفضت عنهما التراب وأدارت وجهها للجهة الأخرى..
نظر لها ، ولما رآها تصد عنه بهذه الطريقة قال: أنا لا أود أن أسمع منك شيئًا مزعجا بربك ، دعينا نعود ، وإن رغبت ألا تريني مرة أخرى بحياتك يمكنك أن ترسلي لي رسالة حين أذهب بذلك !..
لن أرتجيك كي لا تفعليها ، لكني سأتوسل لله أن يودع في قلبك جزءا ضئيلا من الحب الذي أودعه في قلبي لك ، فلا تفرقين بيننا
وضعت يدها على مدامع عينها ومسحت ما يكاد يسقط من دموع عينها..
خيم صمت للحظة
ثم تنفست باضطراب إثر دموع كادت تتجلط في حلقها ، وهي تمنعها من السقوط أمامه ، مختبئة منذ غيابه ترغب لو تصرخ به دمعة دمعة وتريه ما حجم حبه في قلبها..
ولما أعلنت الدموع تمردها سقطت بلا أن تأبه بأمرها ، فغطت وجهها بكفيها وبكت بحرارة..
التفت لها سريعا ، وقال : سارة!
سارة.. ما بك! قلبي..
بربك أخبريني ما بك ، أنا أعتذر
لم أقصد ذلك ، أقسم لك لم أقصد ، أنا السبب ؟
أليس كذلك ، أنا السبب..
كان يريد أن يضمها
يا الله خذ بروحي الآن..
ليتني مت قبل أن أراك هكذا
مسحت دموعها وقالت وهي تشير بيديها محاولة شرح الأمر ، بينما تحاول مسح دموعها بالأخرى:
أنا لا أبكي منك
أنا أبكي لأني أفعل ذلك بك

نظرت إليه وهي تزم فاهها ، وتحاول أن تأخذ كمية أكسجين كافية لقول ما تريد ، ثم أتبعت :
يا محمد..
أنا لا أقول أحبك حين أشعر بها حقا ، لأن لساني قد يشل إثرها بجرعة بوح زائدة ولا أقولها حين لا أشعر بها لأنني لا أحب أن أنافق في شعوري.. لكن أنا أيضا أجلس أمام مرآتي لساعات ، أحادثك وأخبرك بكل شيء ، وحين تهاتفتني ، أتلعثم ، صوتك يتغلغل بي ويمنعني من الرد..
أدارت وجهها عنه ونفثت كل ثقل صدرها ثم هزت رأسها وقالت:
أنا لا أجيد البوح أبدا
لساني ثقيل ، ونبض قلبي أثقل..
لم أكن أتخيل أن أشعر ذات يوم باضطراب لهذا الحد لوجود شخص ما بحياتي.. أن أشعر بحب حقيقي ، شعور لم أعرفه يوما ، وخوف أكبر من فقدانه..
حين ضممتني ليلة سفرك ، بت ليلتها كمشلولة الأطراف على سريري ، وأقسم لك أني ليلتها لكثرة المشاعر لم أشعر بشيء!
أنا أعلم أنك تراني بليدة جدا ، وتستنكر في كل مرة أنتفض منك إذ تمسك يدي ، وأرد باقتضاب إذ تغازلني
رفعت أكتافها بقلة حيلة وأكملت :
لكني..
أخاف جدا..
وأرتجف جدا من حبي لك
فكلما زاد حجم الحب داخلي ، تراني أنكمش عنك أكثر وأكثر بلا شعور..
نكس محمد رأسه بحزن ، بين الرضا بالأمر واستيعابه له ، وبين رغبته بأن يكون على الأقل هو مستثنى من جمود بوحها ، وعناد قلبها
نظرت إليه بروية ونادته :
محمد..
رفع بصره نحوها
فقالت:
أنا.. أنا ....أ.. حبك وجدا جدا .
ابتسم محمد لها ، رفع أحد حاجبيه وهو يناظر عينها ثم ضحك ووضع يده على وجهه ، رفع يده ببطء ثم أعاد ظهره للخلف مستلقيا على الأرض وهو يقول :

يااااااااه

فضحكت هي واشتعل وجهها حمرة من رده

فأعاد ظهره واعتدل في جلسته ونظر لها قائلا :

صحيح أنك لا تنطقين إلا مرة بالعام ، لكن حرفا منك يكفيني لألف سنة

أنا أعششقك

أعششششقك يا سارة

لا بوسع الأرض ولا بقدر ما خلق الله من البشر

بل بقدر اتساع الجنة كلها وعظمة نعيمها..

جاء أخوها أسامة يناديهما: سارة.. محمد ، يقول لكما والدي هو بانتظاركما..

فقالت سارة: ها نحن قادمان..

نهضت سارة ونفضت التراب عن جلبابها ذو اللون البني المحروق وعدلت حجابها بينما ظل محمد جالسا على المطل يأرجح قدميه..

قالت له بتعجب: هيا!

نظر لها وضحك ، ثم قال بشقاوة: لن أبرح هذا المكان حتى تقوليها مرة ثانية..

قالت بتهكم وإهمال: لتظل هنا إذن..

وذهبت وهي تبتسم ، فقفز من مكانه سريعا ولحقها ، وهو ويضع إحدى يديه بجيب بنطاله ، والأخرى يحك بها ذقنه..

قال: امشي ببطء ، أريد أن أقول لك شيئا..

كتفت يديها وقالت: أها

فقال: إياك أن تضحكي..

فضحكت ، نكس رأسه وضحك ثم خفض صوته وغنى :

هذا اللون عليك يجنن يشبه لون عيونك

نظرات العالم ما اتطمن

خايف ليحسدونك..

نظرت له وعلامات الصدمة على وجهها وقالت وهي تضحك: أتجيد الغناء! لا وصوتك جميل!

فضحك وقال خافضا صوته إذ وصلا لمجلس العائلة تقريبا: والله لا أدري..

لكن ربما!

التفت لها وقال وهو يرفع حاجبيه: يقولون أن الحب يصنع العجائب..

***

-19-

" تأخرتما "

هذا ما قاله العم لهما ، وهو يرفع أحد حاجبيه ممازحا إياهما ، فضحك محمد وقال: والله يا عم قلت لها دعينا نعود ، لكنها من أصرت..

بحلقت سارة به ، فرفع حاجبيه بشقاوة وأتبع: لم أكن أريد ذلك لكنها أجبرتني وهكذا ، أنت تعرف سارة..

نظرت له سارة بطرف عينها وأمالت زاوية فمها باستخفاف وجلست ثم قالت: هذه هي ، أنت تعرف سارة..

جلس محمد والعم على المقاعد بينما أخت سارة وأخيها غادرا المجلس ليتحدثا بعيدا عنهم ، بينما كانت الخالة تضع الشاي على الحطب وتعبث بالجمر بعصى خشبية رقيقة

قالت الخالة: المهم دعونا نتحدث بتفاصيل الزفاف تبقى قرابة الثلاثة أشهر ولم تبدؤوا بعد بتأثيث المنزل ، كما أنكم لم تحجزوا الصالة أيضا ، أرى أن الوقت يمر سريعا ، لا نريد أن يداهمنا الوقت باللحظات الأخيرة..

قال العم مطمئنا إياهم: لا بأس سنتمكن من فعل كل شيء على راحتنا لا يزال معنا متسع جيد من الوقت..

قال محمد: المشكلة ستكون أننا سنقيم الحفل هنا أم هناك ؟

لا يعقل أن أحجز طائرة لعائلتي لتشاركني فرحتي ، ولا يعقل أن لا أتزوج ولا يحضر الحفل أحد من العائلة..

قال العم: الصالة ستكون هنا لأنها للعروس ولك ، لكن يمكنك أن تسافر بعد ذلك مع سارة وتقيم حفلا صغيرا للإناث مع عائلتك ، وزفة كبيرة لك مع أقاربك وأصدقائك ، وهكذا تكون قد حللت القضية..

ولا داعي لأن يحضر سوى أفراد عائلتك المقربين ، فبالحالتين لن يدخل الصالة عند النساء إلا والدك ، وعند الرجال سنكون نحن أهلك وسيكون حضور أخوانك محمودا..

حاول محمد استيعاب كلامه ، لكنه قال بلا تفكير: لن يدخل الصالة إلا أبي!

لكن ماذا عن إخواني ، أيسافرون لأجل حفلتي ويظلون بالخارج!!

قال العم بحزم: أتريد أن يدخل إخوتك على عروستك ويرقصون أمام النسوة بالحفل!

بالطبع لن يدخل سواك ووالدك ، وكل محرم عليها ، أي أخوالها وأعمامها وإخوانها..
قال محمد: كلامك على العين والرأس يا عمي ، من أخبرك أني سأقبل أن تنكشف سارة عليهم ، وهي للآن لم تنكشف علي..
لست ديوثا يا عم ، ووالله الهواء الذي يمر بها ويداعب حجابها يقتلني غيرة ، لكن أنا أعرف أن ثمة لباس شرعي ترتديه العروس ، أمام الرجال..
نظر لسارة وقال: أليس كذلك!
كانت سارة سعيدة بقوله المعتق بالرجولة ، فلما سألها ارتبكت وقالت بلى وعي: نعم نعم
قال العم: يا بني ، لا داعي لدخول الرجال صالة النساء ، سيرقصون معك وتفرح كما تشاء خارج الحفل..
قال محمد: ورغم ذلك فالدخول لصالة الاحتفال له قيمته لدينا ، وأخشى أن أقول لإخواني شيئا مما تقول لي فينزعجون ولا يأتون ، خصوصا أن في الأمر سفرا من بلد لأخرى ، كما أن ذلك لا يعارض شرع الله ولا عرفنا السائد..
قالت الخالة مؤيدة لقول محمد: أنا أرى ذلك أيضا ، العروس ستتحجب وترتدي شيئا شرعيا على رأسها فلا تنكشف أمامهم ، وبذات الوقت سيكون محمد مع عائلته ويأخذون صورة تذكارية سويا..
وانتهى النقاش بعد طوله باقتناع العم بفكرة محمد ، وبعد ذلك قرروا أن يبدؤوا مع بداية الأسبوع بتأثيث منزلهم ، وتجهيز سارة مع والدتها ما تحتاج من ملابس وحاجيات ، على أن لا يخرج محمد مع سارة تحت أي ظرف ، إلا والعم معهما..
ركبوا الحافلة ليعودوا للمنزل ، فطلب محمد أن يجلس مع سارة بالخلف ، لكن العم رفض بأسلوب مرح وأجبره على الجلوس بالمقدمة..
بدأ محمد يشعر أن الأحلام الهشة بدأت تكتنز ، وأن ثمار صبره قد أوشكت على النضج واقترب موعد قطافها..
كان يفكر بسارة ويتأملها طوال الطريق إذ كانت تنظر للسماء بهدوء ، بينما الرياح كانت سربعة جدا طوال الطريق ، فتغمض عينيها تارة وتسرح بهما تارة أخرى ، متكئة برأسها على زجاج النافذة..
أوصلوا محمدا ثم توجهوا نحو منزلهم ، كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل..

خلد الجميع للنوم مباشرة ، أما سارة فبدلت ملابسها ، وأطفأت ضوء الغرفة لتنام ، استلقت على سريرها ووضعت وسادة عالية أسفل قدميها لتشعر بالراحة ، ثم أمسكت الهاتف وفتحت على موقع الفيسبوك لترى آخر الأخبار الجامعية ..

فظهر لها أن محمدا "نشط الآن"

ابتسمت سارة للشارة ، وأرادت أن تقبلها بعد كل هذه الغيبة..

فتحت على صفحته فوجدت منشورا جديدا منذ نصف ساعة ، أخذت تقرؤه بعمق ، وقد كتب فيه:

"أخبريني بربك

كيف أحبك بهذا الشكل!

بهذا العمق ، بهذا الوقت ، وهذا الفرق..

بقرب النافذة تجلسين تطالعين القمر وأطالعه فيك ، تتأرجح أنفاسك بهدوء داخلك ، وتغرقني بدوامات فوضى الشعور

أناديك ، ودون الإجابة أراك تقبلين علي بكل ما فيك ، وتتسللين لكل خفاياي برفق ، ثم تلهين بمشاعري كما تلهو راقصة الباليه بذيولها ، تتوازنين وتنهارين ، وأبقى أنا ذاك المحور المنحوت على خاصرتك الذي يتقلب معك كيفما تقلبت ، لكنه يظل متمسكا بمكانه بكل ثبات..

أخبريني بربك كيف أحبك لهذا الحد!

كشلة خيوط صوفية ، تكر مشاعري وتنسل أمام حضورك ، وغيابك بجنون هستيري ، لا شيء يوقفها سوى زمن سقوطي الحر حتى تفرغ خيوطي ولا يتبقى من مشاعري شيئا سوى هذا الوتد..

أحتاجك لتلمليني ، وتعيدين لي بعضا من مشاعري كي لا أنفذ..

#خربشة_بلامعنى"

أحبت سارة حرفه الفوضوي فردت عليه قائلة: وإن أتيتك ولملمت مشاعرك ، أتصبح ذات معنى!

قفز قلب محمد من مكانه ورد عليها: لمليني ببطء ، وشتتيني فيك مجددا ، لقد أدمنتك..

قرأت سارة رده ، وكالعادة خجلت وحذفت تعليقها ، فأرسل لها محمد على الرسائل: يا خجولة..

ارتبكت سارة من رسالته ، لكنها كابرت وكتبت له: لم أخجل طبعا..

لكن تعرف أني لا أحب أن تكتب شيئا كهذا أمام الملأ..

رد عليها :

سارة

كفاك تعقيدا للأمور ، ما المشكلة فيما كتبت!

أنت زوجتي شرعا وخطيبتي بحلال الله

حبيبتي أمام الله وملائكته وجنه وإنسه

فلم لا أحبك علانية وأخفي ذلك بسري!!

كتبت له سارة :

أعلم ذلك ، وأعلم أن ذلك من حقك

لكني لا أحب!

أنا يا محمد لا أحب الأشياء المتاحة للجميع ، لا أحب الاجتماعات العامة ، ولا المهرجانات الضخمة ، لا أحب أن أشبه أحدا ، أن أكون مجرد عددا مضافا لقائمة ما..

أحب أن تحبني سرا ، وأن لا تمسك يدي أمام الجميع ، أن تراني من بعيد وأراك فنبتسم لبعضنا البعض خفية ، أن يرانا الناس عاديين جدا ، بل وأقل من ذلك ، فلا تسلط الأضواء حولنا ، لا يراقبنا أحد ولا يشعر بنا أحد ، ونكون بالحقيقة أكثر الأشخاص سعادة وشغفا وحبا..

أؤمن جدا أن كل شيء ، كل لحظة ، وكل كلمة تقال سرا تكون أعمق وذات نكهة مميزة ، نكهة معتقة بالصدق ، لا مجال فيها للنفاق..

توقفت قليلا ثم أتبعت:

كما أنني لا أحب أن يقرأ أحد كلاما يدور بيننا نحن الاثنان على وجه الخصوص

كان محمد يقرأ كلامها مبتسما ، فلما قالت ذلك كتب:

تغارين!

قالت: لم أغار ؟

قال : مثلا أن تحبني إحداهن ، فتصبح لدي معجبات وهكذا..

وأرسل لها وجها تعبيريا يتفاخر بنفسه

فأرسلت له وجها تعبيريا يدل على استفزازها مما قاله ، ثم أتبعت: لا تكن سخيفا ، بالطبع لن أغار..

لكن لا علاقة لهم بنا ، نحن حالة استثنائية ، لا أحب أن تقارن الأخريات بين علاقاتهم وعلاقتنا ، ويبدؤون بالبحث والتساؤل عنا وعن أحوالنا ، لن أخبر أحدا

يوما بشيء تفعله لي ولن تفعل أنت كذلك ، نحن فقط سننظر لمن حولنا ونتعلم كيف نتجاوز أخطاءهم ونتفاداها..
إني فقط أؤمن جدا بقوله عليه الصلاة والسلام: أتموا سرائر أعمالكم بالكتمان..
كتب لها وهو مبتسم بحيرة من منطقها العجيب :
أتعرفين بم أفكر الآن!
كتبت: بم!
فرد: بأنك كثيرة علي..
لا يمكنني أن أستوعب فكرة أنك كلك ستكونين لي وحدي!
أنت باذخة العمق والتأثير ، صعبة الفهم والتفسير
وأنا بسيط جدا
فأنى لي أن تكوني أنت زوجتي ؟
إن العجز الحقيقي الذي أعيشه ، هو أني لازلت لا أصدق أني أسير معك ، أتحدث معك ، أراك..
لا وفوق ذلك تبتسمين لي وتحاوريني ، والآن نتحدث
سنبدأ بتجهيز "بيتنا"
وستذهبين للسوق لشراء ملابس لك وأنا من سيراك بها
ثم ستصبحين زوجتي
وتشاركيني كل تفاصيل حياتي
سأعود للبيت وأجدك هناك قد أعددت لي شيئا لآكله
ستسمعيني وتدعميني وتحاربين كل يأس داخلي
لماذا ؟
لماذا أنا تحديدا قد أحظى بك! !
لست أخفيك ، أفكر كثيرا بهذا الأمر كلما شعرت أن الوقت يجعلني أقرب منك..
وأخشى
أن لا يحدث شيء مما أفكر فيه ، كل شيء يسير بيننا بتناغم وتفاهم ، لا مشاكل ولا شيء مزعج أبدا
الأمر يخيفني بحق ، لأن الفرحة لا تتم ، ولأن الأشياء لا تكتمل ، أخشى من الآتي كثيرا وأنا معك لأني بحق لن أحتمل خسارتك..
انزعجت سارة من قوله جدا ، فكتبت له :

أولا لست كثيرة عليك ، فقد صمت عن الحرام دهرا ، وأنت تعلم أن القابض على دينه بزمننا كالقابض على جمرة من نار..
وتعلم أن الله يبشر الصابرين وأنه مطلع على ما في القلوب..
أنت تعلم أن رجلا آخر قد تزعجه فكرة حجابي أمامه طوال الوقت ، ولن يحتمل شروط والدي وتشديداته الحازمة..
أن نكون سويا لوقت طويل ، ولا تفكر حتى بالاقتراب مني أو قول كلام لا يليق..
أن نتحدث هنا وحدنا وسرا ، ولم تفكر أن تطلب صورة لي وأنا حلالك ، أن تغض بصرك وأنا لا أراك ، أن تدعي الله لي وأنا لا أسمعك ، أن تبذل قصارى جهدك لإسعادي ، أن تكون بارا بوالديك مطيعا ، تهتم بإخوتك ، تحترم والدي وإخوتي
أنت رجل بمعنى الكلمة
فلماذا لن تستحقني ؟
أعلم أن هناك الكثير مما لا أعرفه عنك ، ولست أحلف على بشر تطأ قدميه الأرض ، لكني أعرف نفسي جيدا ، وأعرف أني لم أعص الله لحظة ، وأني بارة بوالدي ، فلن يضع الله بقلبي من لا خير فيه ، أنت تستحقني دون أن أعرف أي تفاصيل أخرى عن حياتك ، لأن الله قد ساقك لي قدرا ، وأنا فتاة متوكلة على الله لأقصى حد..
فإن كان فيك شر لا أراه ، سيكون ابتلاء من الله لقلب مؤمنة ، سأحبك بالله وسأسعى لأنال الجنة بك..
أما عما قلته بشأن الفرحة التي لا تتم ، فلا أخفيك لقد فكرت بذلك في بادئ الأمر وقد أتعبني طول التفكير به
لكني وبعد التعمق ومحاولة ربط الأمر بالله ، وجدت أن هذه نعمة ، والله جل وعلا قال في كتابه: "بالشكر تدوم النعم" ، وبآية أخرى قال: "ولئن شكرتم لأزيدنكم" لذلك ألجأ لتخصيص وقت من يومي مع صلاة الفجر أدعو الله فيه لك ولي بأن ييسر أمرنا ، وأشكره وأحمده على كرمه ونعمه..
إن الفرحة لا تتم على الغافلين يا محمد
"ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا"
أما نحن ، فوالحمد لله وبالرغم من ذنوبنا التي لسنا معصومين منها ، ولربما ذات مرة عصى أحدنا الله سرا واستغفره ، لكنا لم نعص أمر الله ولم نكابر عن المعصية..

كما أننا لم نستعجل شيئًا لنعاقب بالحرمان ، بل صبرنا كثيرا وامتنعنا عن الحرام زمنا حتى يسر الله الأمر لنا وجزانا بما صبرنا خيرا ألم يقل في كتابه "وسيجزي الله الصابرين "
سأظل أدعو الله وأحمده ليلا ونهارا وبالطبع لن يكفي الشكر كله مهما بلغ ولو مجرد جزء بسيط من نعمه علي قبل أن يأتيني بك ، فما بالك بعدها..
لكنه هو الخالق العظيم ، ونحن بالنهابة لسنا إلا رجلين تحابا بالله وسنفترق بإذن الله كذلك..
لذلك لا أحب أن أفكر بك تحديدا من نهاية الأمر ، بل أراك خالدا معي فإن غبت عني وأصبحت بين يديه ، وذاك أشد البلاء ، فسأجتهد بكل ما أوتيت من شوق لألقاك والفردوس مجمعنا بحضرة نبينا وأولياء الله الصالحين..
أرسل لها محمد نقطتين أي أنه موجود لكن اللسان عاجز عن قول شيء ثم أتبعهما بـ:
لا تعقيب..
فقط سأخصص لك صلاة العشاء والقيام بطوله لأشكر الله عليك وأسأله ألا يشفيني منك ، مهما وصل حد إدماني لك
أنت جنة الأرض ونعيمها ، فإن جزاني الله بجنته وأكرمني بك ، ستكون المعجزة بحق ، بأني أعيش بذات الوقت جنتين..
كان تزامن أذان الفجر مع كلام محمد ، فلما أنهى حديثه استأذنها للصلاة ، وكذلك هي قامت لتصلي الفجر ، وفي لحظات انتظارها لاتصاله ثانية غلبها النوم ، فلما عاد ولم يجد شارتها ، أرسل لها:
دعوت الله بأن يجعلني خير رجل لأجلك..
لأقول لك كل يوم قبل أن تنامي تصبحين علي ، وأنا لك كل الخير..
***

-20-

بدأ مهرجان الاستعداد للحفل ، إذ بات العم يتفرغ كل مساء ويأخذ سارة وأمها لبيت محمد ثم يتوجهون سويا للأسواق ، كانت سارة قد اختارت تفصيلة غرفة نومها بيضاء اللون وبسيطة الشكل ، بلا قماش وبلا نقوش ، مجرد سرير أبيض كبير لاثنين وخزانة بيضاء كبيرة مع ملحقين صغيرين بجوار السرير وملحق جانبي طويل بعض الشيء والملحق الخاص بالمرآة الكبيرة..

كانت سارة تجلس بجوار محمد بالخلف بينما والدة سارة بجواره ، أعجب محمد التصميم البسيط الذي اختارته سارة ، وانتقاؤها للون محايد كالأبيض لم يكن مزعجا بالنسبة له ، لكن ما استنكره محمد أنها طلبت منه تصميم سرير إضافي منفرد بنفس الشكل تقريبا ، ومرآة طويلة إضافية على حسابها الخاص..

قال محمد مستنكرا: ما هذا الهراء! لا تكرري هذه الجملة مرة أخرى ، كل ما لي هو لأجلك طبعا ، لكن فقط أخبريني لم ؟

قالت وهي تخفض صوتها: أريد هذا الشيء وكفى ، لا شأن لك ، فقط أريدك أن تطلبه أنت كي لا يسألني والدي..

قال: سارة!

أخبريني فقط..

ستضعينه في الغرفة الأخرى يعني!

قالت: سأشرح لك الأمر فيما بعد ، فقط أنت اطلبه وأنا سأدفع له..

نظر لها بعتب ممزوج بالغضب وقال :

أكثر عزيزتي ، كرريها أكثر!

قالت: لا أقصد والله.. فقط....

قاطعها قائلا: لا بأس لا بأس عزيزتي

أريني ما اخترته الآن لغرفة الضيوف قبل أن نصل

فعرضت عليه التصميم وأحبه جدا ، لكنها طلبت أن تكون الألوان مختلفة ، فقد أرادت أن يكون لون الخشب ذهبيا معتقا ولون القماش خمريا..

كان محمد يوافق على كل ما تنتقيه سارة ، إيمانا منه أن البيت عالم خاص بالزوجة ، فالرجل يقضي وقته بالعمل خارج البيت ، فإن عاد لملكة راضية عما فيه ، سعيدة بمملكتها ، توجته ملكا وأسعدته ، خصوصا أنه قادر على ذلك الآن فمن يدري قد تتغير الظروف للأسوأ ولا يقدر على توفير كل ما تشتهيه وتريده غدا..

أظهر إعجابا شديدا بطريقة تنسيقها للألوان واختياراتها ، مما أشعر سارة بمتعة حقيقية وجعلها تحاول أن تدقق أكثر في تفصيلة الأثاث ونوعيتها ، وبنفس الوقت تشعر بالحرج منه إذ يبدو الأمر وكأنه يشتري شيئا لها هي ، لا لبيتهما ، لأنه لا يعارضها بل وعلى العكس يشجعها على كل شيء..

بغضون شهر ونصف تقريبا كانت غرفة النوم وملحقاتها ، وغرفة الضيوف جاهزتين ، إضافة إلى تجهيز جزء لا بأس به من ملابس سارة ، كان الوقت يمر بسرعة بالغة ، وضغط شديد بين الدراسة والدوام والذهاب للسوق مع والدتها لانتقاء ملابسها ، والعودة ليلا والحديث مع محمد حول أقمشة الستائر والسجاد التي كان محمد يذهب لشرائها وحده بعد أن تختار سارة من بين عشرات الصور ، التصميم الذي يعجبها..

تقدمت سارة لامتحانات الفصل النهائية ، وكانت تسهر طوال الليل مصرة ألا تؤثر الأوضاع الراهنة على معدلها ليظل بتقديره الجيد جدا ، وبالفعل كانت تطفئ هاتفها وتغلق على نفسها الباب جيدا ولا تفكر بشيء حتى تنجز المادة فإن أنهتها أرسلت لمحمد لتطمئنه وتنام ، فيوقظها فجرا لتصلي وتكمل مراجعة دروسها مما حال دون رؤيتهما لبعضهما البعض لمدة لا بأس بها..

وفي آخر امتحان لها ، ذهب محمد إليها على الجامعة ليوصلها للبيت ، إذ كان وقت الامتحان متأخرا ، والبرد شديد..

لم يخبرها بذلك كي لا تلتهي بوجوده عند بوابة مكتبة الجامعة التي تدرس غالبا في داخلها عن دراستها ، وقضى وقته بين شراء شيء ساخن يشربه تارة ، وبين الجري حول المكان وهو يضع بأذنيه أغنيات متنوعة لمطربه المفضل تامر حسني ، وبين الجلوس وفرك يديه ببعضهما البعض..

صارت الساعة الخامسة وخرجت سارة من مكتبة الجامعة ترتدي جلبابا أسود طويلا ، مغطى بشعر أملس ذو لمعة جميلة ، وحجابا أسود قاتما ، تحمل حقيبتها بإحدى يديها والهاتف بالأخرى مرتدية قفازين سوداوين ، وتسير بحذائها ذو الكعب المتوسط نحو قاعة الامتحان ، أحب محمد شكلها ومظهرها ، وأحب أكثر أنه أيضا يرتدي حذاء وبنطالا وسترة سوداء بالصدفة..

سار خلفها ليوصلها دون أن يتحدث معها والسماعات لا تزال بأذنيه ، لكن أثناء الطريق أشار شاب لسارة بيده ، وظل ينظر لها حتى بعدما ذهبت ، تبخر عقل محمد ، وكاد يضرب الشاب..

نزع السماعات عن أذنيه وسأله: عفوا!

حضرتك من أين تعرف تلك الفتاة ؟
قال الشاب: أي! الآنسة سارة!
قال وهو يصر على يديه: هاا
قال الشاب: لا أعرفها ، فقط تشاركنا بمبادرة وكانت هي المنظمة لها ، فقط حييتها!
قال محمد وهو يحاول أن يتشبث بذرات عقله: حسنا ، بالمرة القادمة حين تمر ، لا تحييها..
أفهمت ؟
قال الشاب: لماذا من تكون حضرتك ؟
بدأ غضب محمد على وجهه وقال له بنبرة مختلفة: أفهمت!!
قال الشاب: لن أفعل ، لن أفعل
ثم قال باستخفاف: على جمالها..
كان محمد سينسحب ، لكن كلمته الأخيرة كانت كضغطة زناد مسدس ممتلئ..
عاد محمد له وأمسك يده بقوة حتى كاد أن يكسرها ، والشاب يصرخ باعتذارته متأسفا ،
فتركه محمد وعقدة حاجبيه بنصف وجهه ثم قال: أظنك فهمت الآن..
قال الشاب: فهمت.. فهمت
تركه محمد وسار وراءها لمبنى الامتحان ، فكانت في الداخل..
ظل يدعو لها ، حتى خرجت
وقفت على الباب والطالبات الأخريات حولها ، وعلى ما يبدو أنهم كانوا يراجعون الإجابات ويتحدثون حول الامتحان ، الليل كان قد حل تماما ، السماء تهطل بقوة ، ولا نور سوى أضوية أعمدة الجامعة ، ونور خافت في السماء من القمر..
سارت سارة وحدها ، أخرجت هاتفها ، وشبكته على سماعتها اللاسلكية ، وأعادته للحقيبة ، ثم أخرجت السماعة ووضعتها بأذنها أسفل حجابها ، ثم عادت مجددا للعبث بالسماعة وهي بداخل الحقيبة..
لحظات وقطع صوت الأغاني ، رنة هاتف محمد الذي كان يضع سماعته اللاسلكية أيضا ، فتح الخط وبقي بعيدا بمسافة لا بأس بها..
ألقت عليه السلام كالعادة ، وأخبرته أن الاختبار كان جيدا ، ولا بأس به ، وختمت بقولها: أووه بالكاد أتجمد بحق ، المطر غزير جدا..
قال: أأتيك..
قالت: ياريت ، تعاال

قال: حسنا سأجهز نفسي وأنزل لك ، نصف ساعة وأكون عندك..
قالت وهي تضحك: مجنوون أعرفك تفعلها..
بالطبع لا تفعل أهنالك عاقل يخرج من بيته في هذا الوقت..
اسمع .. سأطمئن عائلتي وأعاود الاتصال بك مجددا..
مع السلامة
فقال منهيا المكالمة: مع السلامة
اتصلت سارة بوالدتها ، وأخبرتها أنها متوجهة للبيت الآن كي لا يقلقوا عليها ، أخرجت الهاتف لتتصل بمحمد ، فإذا بصوته بجوارها ، يضع قبعة السترة على رأسه ويقول: بمن ستتصلين ؟
ذعرت سارة لما رأته ، ففرت فاهها وظهرت كل علامات التعجب على ملامحها ، وقفت متسمرة في مكانها ، فضحك عليها محمد وقال: بالطبع لن أدعك تعودين للبيت وحدك في هذا الوقت..
قالت سارة وهي تشير بيدها وتسير بسرعة: مجنون ، مجنووون ، والله مجنون
أسرع ليواكب خطواتها ضاحكا وقال لها: الجو سيء جدا لذلك لم أتمكن من النزول للسوق اليوم ، فقلت فرصتي لأراك ، وأشاركك طريق عودتك ، ثم سأعود للبيت مجددا
قالت سارة باستنكار: ستوصلني للبيت!
فأجاب مؤكدا: بالطبع ، يا حبيبتي ، أنا منذ الثانية عشرة أنتظرك على باب المكتبة ، رأيتك حين خرجت مرتين لتشتري شيئا ساخنا ، ورأيت ذاك الغبي الذي لوح لك بيده.. انصدمت ، لكنها تظاهرت بالاستغباء وقالت: أي!
فقال وهو يهز رأسه: تغابي ، تغابي.. على العموم ، كسرت له يده ليتعلم كيف يلوح لك بيده مرة أخرى..
وقفت بدهشة وقالت: محمد! ... تمزح.. هل فعلت له شيئا ؟
أدار وجهه عليها ونظر لها نظرة نفاذ صبر وقال: يستحسن ألا تسألي..
ثم مشى قائلا: أسرعي عليك العودة إلى البيت..
مشت سريعا وقالت: هو فقط كان معي في أحد
فقاطعها: المبادرات وكنت أنت المسؤولة والمنظمة..
أعرف!
وهل كل من عرفنا أو تعاملنا معه يحق له أن يحادثنا!
قالت: حياني فقط..

قال: وماذا لو أوقفك ؟
هل كنت ستدعينه يتكلم وتذهبين !
قالت: لن يفعل عزيزي ، أنت لا تعرف من سارة هنا
قال: ولأنك سارة لم أقل لك شيئا ، لكن على من يقربك أن يحتمل غيرتي
قالت: لا تكن سخيفا ، تغار من الهواء..
لم يفعل شيئا يدفعك للغيرة
قال: يا سلام..
ومن أخبرك أن الغيرة تعني عدم التزام منك أو تصرف خاطئ يشعرني بالغضب.. هه..
هذا شعور لا أتمنى لك أن تري نتائجه ذات يوم..
الغيرة التي ترينها ما هي إلا نسائم هواء تلتفت لك أثناء سيرها ، فتحبك ، أو تطيل المكوث أمامك ثم تكمل سيرها..
فقط هكذا ، أن ينظر لك أحد بلا سبب منطقي يخرسني ، أن يقول حرفا ولو مادحا بك ، لا داعي له ، أو ليس بمكانه..
وأكمل مستهزئا :
وهذا ما لا شأن لك أنت به ، شعور لن تتمكني من استيعابه لأنك لازلت صغيرة ، ستفهمينني حين تكبرين..
قالت: أكبر منك..
كانا قد وصلا محطة الحافلات وقف ونظر لها من الأعلى وابتسم باستخفاف ، نظرت إليه وقالت وهي تضع إصبعها على رأسها: عقلا عقلا
ضحك وقال: حسنا يا أم عقل أنت ، اخفضي صوتك ، فضحتنا..
فضحكت سارة وقالت: احمم ، أنت من استفززتني
قال وهو ينظر لها بحب: احم احم
فرددت خلفه: احم احمم
وضحكا.. وصلت الحافلة فصعدا سريعا ، جلست سارة بجوار النافذة ، بينما جلس محمد بجوارها ، قالت له:
طبعا لا تحادثني وأنت بجواري أبدا..
نظر إليها بتعجب شديد ، فقالت: لا تتعجب ، وأنت بهذا القرب لن أتمكن من النطق بحرف واحد..
ضحك محمد وعلامات الذهول جلية على وجهه وقال: على ما يبدو أنني سأضطر

في نهاية المطاف لرمي نفسي أمام شاحنة بسببك والله..
أنا لا أصدق متى ستجيء تلك اللحظة التي أراك فيها دون أن تقلبي لي عقلي بتحذيراتك وأوامرك الغريبة هاته..
ثم هز رأسه بنفاذ صبر وأتبع:
هانت هانت ، لم يتبق لك سوى أقل من شهر ونصف..
ماذا بيدي سوى أن أصبر
ضحكت سارة وأدارت وجهها نحو النافذة وابتسامة خفيفة مرسومة على خدها ، وقالت مومئة بيدها: لا يزال أمامنا عمر ، من يدري..
وتوقفت ابتسامتها بعض الشيء..
ظل ينظر لها بصمت ، والخجل كان جليا واضحا رغم المكابرة ، فوجنتاها تحولتا تدريجيا للون وردي ، لكن ما أربك محمدا ، هو عزوفها التام عن الحديث ، وكأنها منزعجة من أمر ما..
اتكأت برأسها على ظهر المقعد ، وكتفت يديها بصمت شديد ، وظلت تنظر للمرآة ، كان محمد يجلس بجوارها على أقصى الكرسي ، وكأنه شاب غريب ، للحظة ما شعر بانقباضة في صدره ، وشعر دونما أن تقول شيئا أنه السبب بانزعاجها لأنه جلس بجوارها ، خشي أن يكون قربه منها مؤذيا لها ، فقال وهو ينزل يد المقعد ويهم بالحركة: أستأذنك سارة ، أنا سأجلس هنا..
نظرت له سارة وقالت باستنكار: لم!
قال مبتسما بنفاق: هكذا.. لا شيء..
زادت حدة البؤس بعينيها ، نظرت له ، ثم أغمضت عينيها وقالت: افعل ما تشاء محمد ، لن أطلب منك أن تفعل ما لا تحب..
صر محمد بيده على الهاتف وقال بعدما أرخى قدميه في مكانه واتكأ على ظهر الكرسي:
لماذا أشعر أني أزعجك دوما ، مهما فعلت!
لقد جئت هنا لأحادثك ، فطلبت مني الصمت..
والآن سأذهب ليقل توترك ، فتقولين أن بقائي بجوارك ما لا أحب!
نظر إلى الناحية الأخرى وقال: بحق..
نظر إليها بعد أن اعتدل في جلسته: حين أكون معك لا أفهم شيئا!
قالت سارة وهي تنظر لأصابع يديها: لا أعرف يا محمد ، لم أفعل ذلك بك ، رغم يقيني العظيم بحبك ، شعور الاطمئنان الذي أشعره حين أكون بقربك يخيفني ،

أخشى أن أفرح بك فتتلاشى ، أخشى أن أؤمن بوجودك فأشبك ذراعي بذراعك ثم تختفي ، أو يتغير حبك لي..
قال: سارة!
فرفعت نظرها له وقاطعته قائلة: أو تظن كل تلك الفتيات اللواتي سرقت ضحكاتهن ممن أحببن ، كن يدركن ما سيحدث فيما بعد..
أخذت شهيقا ثم تنفسته ببطء وهي تنظر للشارع: لقد سلمن قلوبهن لهم بلا أي حساب ، وتلاشى كل الحب فجأة..
عاودت النظر ليدها التي ترتدي فيها محبسها وقالت وهي تمسك به: أخشى أن ينتهي الحب حيث يجب أن يبدأ !
قال محمد بهدوء: على الأقل دعينا نعيش الآن..
هزت رأسها مومئة بالرفض ، فأكمل: إن كان الغد سيسرقنا للبؤس فلماذا نسترجيه الآن..
لست أعلم ما تخبئه لنا الأقدار ، لكني أراك عائشتي ، أريد أنام على قدميك حين أموت ، شابا كنت أم عجوزا
أنا لا أطلب منك أن تسلميني قلبك بالكامل ، لكن دعي لي بصيصا من الشعور أتسلل داخلك منه ، ودعيني أريك أنني لن أتغير..
سارة أنت لست أي فتاة بحق ، أنا طوال الوقت مبهور بك ، بفكرك ، بطيبك ، جنونك ، وشكلك..
أقسم بالله ، وأنا لا أقسم إلا لأمر عظيم ، إني لا أسجد سجدة واحدة لا أشكر الله فيها عليك ، كل ما أفعله ، وما سأفعله حتى آخر نبضة بحياتي لا أكافئك على ساعة أقضيها معك..
كل شيء لا يساوي جلوسي بهذه الساعة وأنت تديرين وجهك لي هكذا ، فلا تعاقبيني بجفائك ، حاولي أن تشاركيني قدر ما تستطيعين فيك لهذا اليوم ، الخوف من الآت لن يغيره ، فقط سنعيش ما نخافه مرتين..
ابتسمت سارة بامتنان ونظرت له ، ثم أخذت تعدل حجابها ، وبخاطرها لو تطلب منه أن يضع يده على كتفها وتختبئ تحت جناح ذراعه باكية حمدا لله على نعمته التي تعجزها وتختصر بحبها الذي يزهر بقلبه..
فقال محمد مغيرا لسياق الكلام بنبرة مرحة: ها هاا..
وأخيرا تمكنت من الجلوس معك وحدنا ، لتخبريني عن سر ذاك السرير..
ضحكت سارة ونظرت له ولا يزال بعض من آثار الخجل على وجهها

فأتبع قائلا:
إياك أن تقولي بأنك جعلتني أفصله من أجل وسيم!
ضحكت أكثر ، وهي تهز رأسها مصدومة بما قاله..
فقال وهو يضحك بتقطع اندماجا مع أنغام ضحكتها:
مصيبة! أستحضرين أسامة ليعيش معنا!
ضحكت أكثر..
وقد امتلأ قلب محمد حبا وعشقا وشغفا بضحكتها ، متظاهرا أنه يحاول سماع إجابتها ، فقالت وهي ترتب الحجاب على صدرها وتحاول وزن كلامها: احم احمم
فردد وراءها: احم احم
ضحكت وقالت وهي تشير له بيدها لينتظر: لحظة..
وأخذت نفسا ملأت به رئتيها وعاودت نفثه لتحل عقدة لسانها..
ثم قالت بعد أن بلعت ريقها: اسمع ، سأخبرك لكن عدني أولا أنك لن ترفض ولن تضحك ، ولن تخبر أحدا بما سأقول!
قال: والله.. أن لا أخبر أحدا ، مقدور عليها..
أما ألا أضحك وألا أرفض ، فلا أعدك..
فقالت بتكبر: أصلا لا أنتظر رأيك..
فقال رافعا حاجبيه: والله!
فضحكت ضحكة خاطفة وقالت بعناد: نعم..
هذا السرير يا عزيزي..
فقاطها: أها
فقالت وهي تضحك: لا تقاطعني ، هكذا سأظل أضحك
فمسح بيده على فمه ، أي أنه لن ينبس بحرف واحد ، فأكملت: سنضعه بغرفتي الخاصة..
انفلت لسانه قائلا: يا حبيبي ، لك غرفة ولي غرفة!
قالت: دعني أكمل..
قال وهو يرفع حاجبيه: تفضلي سيدتي
قالت: غير غرفتنا وسريرنا المشترك ، الغرفة الثالثة ستكون غرفة لي ، سأضع فيها سريري هذا ، وكل حاجياتي ككتبي ودفاتري وصناديق الذكريات خاصتي ، سيكون هذا عالمي الخاص لي وحدي ، فأنا لا أتمكن من البقاء مع أحد طوال الوقت..
هكذا سأمل منك

ازدادت حواجب محمد انحناء للأعلى وزوايا شفتيه للأسفل ، فأكملت وهي تحاول ألا تهذي كثيرا: يعني كي أذهب إليها حين أشعر بالملل وهكذا..
فقال محمد: لا مانع لدي عزيزتي بأن تكون لك غرفة خاصة تصمميها كما تشائين ، لكن ما حكاية أن تملي مني هذه!
تفتحت حدقتا عينيها ثم قالت: يعني هكذا معا طوال الوقت ، أنت ستمل وأنا سأمل أيضا ، لم أقل شيئا سيئا..
قال محمد وهو يعدل جلسته ويمسح بيده على وجهه: يا صبر أيوب..
ضحكت سارة ، فقال بنفاذ صبر: أستحق أن يضحك علي أنا والله ، ستصبح زوجتي ، ولم تقل لي أحبك إلا ثلاث مرات بحياتها ، وتريد أن تكون لها غرفة لا أشاركها بها ، وتقول لي لا أريد أن أراك طوال الوقت ، وتخبرني أنها ستمل مني..
أومأ برأسه مبتسما: ماذا ستفعلين بي حين نتزوج بإذن الله
انفجرت سارة ضاحكة وقالت بشغب: أعانك الله على ما بلاك..
وقفت الحافلة على موقف سارة ، فوقف محمد وهو يضرب يديه ببعضهما البعض ويقول:
لا حول ولا قوة إلا بالله ، انزلي ، انزلي عزيزتي..
سار خلفها وقفز من عتبة باب الحافلة حتى جاورها وقال وهو ينظر لها ويهز رأسه: الآن فهمت لم لا تحبين الجلوس مع الآخرين طويلا..
ضحكت سارة وقالت بلا مبالاة وهي تفرك يديها ببعضهما البعض لكثرة البرد: لن يفيدك الكلام بشيء ، فلا تحاول..
ضحك محمد وقال: بردت ؟
قالت: تجممدت ، بردت فقط!
فأوقف عربة أجرة ، وجعلها تركب جبرا عنها رغم قرب المسافة ، فاتصلت سارة على والدها وقالت له أن محمدا أوصلها ، ليصر عليه بالنزول لبيتهم واستضافته ، فاتصل العم على محمد وأصر عليه ليصعد..
دفع محمد الأجرة وأكرمه قائلا له: دعواتك يا عم لنا.. فانهال عليهما بالدعوات الطيبة ، ابتسم محمد لسارة قبل أن يصعدا لباب البيت قال محمد: سننزل في المرة القادمة وأدخل بيتكم ممسكا يدك ، بدلا من أن أقول لك السيدات أولا..
ضحكت سارة وقالت: لا عزيزي إلا على أدراج بيتنا الرجال أولا ، سأسير خلفك..
انفجر محمد ضاحكا وقال: والله صدقت ، نسيت قمة إفريست هذه..
***

-21-

رن محمد الجرس وصعدا ، فلما وصلا الباب ، فتح العم لهما واستقبلهما بالسلام ، قبلت سارة يده ورأسه ، ومحمد بالأحضان ، ثم توجهت سارة سريعا لغرفتها لتبدل ملابسها وتعود بعد أن قالت مستأذنة: سأبدل ملابسي وأعود..

أما محمد فدخل وجلس على ذات المقعد الذي جلس عليه ليلة اتصال عمه له ليحضر بمثل هذا الجو والوقت تقريبا ، بقرب المدفأة ذاتها..

عادت سارة والخالة بيدها كؤوس الشاي الأحمر بالنعناع ، كانت سارة ترتدي سترة شتوية طويلة نيلية اللون تصل لأسفل الركبة تقريبا ، وترتدي أسفلها بنطالا أسودا متوسط الاتساع ، وتضع على رأسها حجابا أبيض ناصعا ، كان محمد منغمسا بحديثه مع عمه ، حتى دخلت سارة وهي تحمل بيدها كوبا أسود تتسامى منه رائحة دفء ، وتجبر محمدا على الالتفات صوبها ، كان أنفها وأطراف أصابعها وردية اللون لكثرة البرد مما زاد جمالها جمالا..

دخلت بالبداية الخالة بهدوء ، وظل محمد مركزا بصره على عمه بلا حراك ، لكن حين تبعتها سارة ، وقد توقفت قليلا عند الباب لتخلع خفها الأسود ، وتراجعت عن ذلك مكملة طريقها ، تبعثر تركيز محمد بكلام عمه ، وابتسم تلقائيا لشدة جمالها ورقتها ، لقد نظر إليها للحظات ، لكنه كان قد طبع شكلها بأكمله بذاكرته بأدق تفاصيلها ، كلون طلاء الأظافر الوردي ، وشكل أزرار السترة ، وكم يكبر حجم قدمها خفها.. فتنحنح العم قائلا: طبعا دخلت سارة ، ومحمدها ما عاد يفهم شيئا..

ضحكت الخالة وهي تجلس على المقعد بجوار العم وتنقل بصرها بين محمد الذي يحك رقبته من الخلف خجلا ويدلي رأسه والابتسامة على وجهه ، وبين سارة المصدومة بعفوية وتنظر لوالدها ووالدتها ، ثم لمحمد وتبتسم ببلاهة..

قالت سارة: كيف!

ضحكوا عليها ، فقالت بعفوية: حسنا حسنا دعوني أجلس..

ذهبت لتجلس بجوار والدتها ، فأعاد محمد رأسه مبتسما وهو ينظر لها وهي تسير أمامه..

فقال لها والدها: أين أين.. اجلسي بجوار زوجك..

صدمت سارة بالكلمة ، فتحت عينيها وكأنها تود أن تسمع بهما بدلا من أذنيها اللتين خانتاها للتو ، أحب محمد الكلمة ، وأحب أكثر ردة فعلها فضحك بصوت خافت ، فقال العم:

هيي ما بك عزيزتي ، هناك اجلسي بجواره ، على المقعد أمامي ، أريد أن أراكما الاثنين..
سكتت سارة وجلست على المقعد المنفصل الذي يجاور محمدا بخجل ، وفورا أخذت ترتشف من الشاي لتذهب عنها بعضا من توترها..
فقال محمد: سأشتكيها لك ياعم ، وها هي جالسة هنا ، أيرضيك يا عم أن أركب معها بنفس المقعد بالحافلة ، وأنا متخذ أقصى يسار الكرسي ، أن تقول لي لكن لا تتحدث معي وأنت بجواري!
لقد جعلتني أبقى صامتا طوال الطريق..
ضحك العم فأكمل: والله كنت أقول بعقلي ، الحمد لله أن عمي لا يعرف كي لا يرسل أسامة ليجلس بيننا ، وحين فعلت ذلك تمنيت لو أنه موجود على الأقل حينها سأجد لنفسي عذرا وأقول اصمت يا محمد حتى تصبحان وحدكما ، ما هذا..
قال العم وهو يضحك: من شابه أباه ما ظلم..
ضحك الجميع وأكثرهم سارة ، لكنها لم تحاول تبرير ذلك كانت مكتفية بالضحك وشرب الشاي..
قالت الخالة: والله جيد أنك أوصلتها لهنا ، رضي الله عليك ، الجو مخيف اليوم
قال محمد ممازحا: والله لم أدر عنه شيئا ، ما شاء الله عنها ابنتك تخيف أكثر..
قالت سارة مغيرة مسار الموضوع موجهة حديثها لوالدها:
المهم لم تسألني كيف كان الامتحان اليوم..
قال العم: نعم صحيح ، كيف قدمت ؟
قالت بحزن: درست طويلا ، ختمت المادة وراجعتها مرتين ، لكني لم أبل بلاء حسنا..
قال العم: خير إن شاء الله!
قالت: اتصلت بي صديقة لي ، تزوجت منذ ثلاثة شهور تقريبا ، وبعد شهر سيكون طلاقهما بإذن الله ، وتشاورني إن كان عليها أن تعطيه فرصة أخرى أم تنهي الأمر نهائيا..
تزوجا عن حب دام لأكثر من خمس سنين ، ولكنه بعد شهر واحد تحول وصار كثير الغضب ، يشتمها ويضربها ويجور عليها..
ثم قالت بنبرة بائسة: لماذا يعادي المرء دقات قلبه حين يملكها !
قالت الخالة: إن ضربها أو شتمها مرة فقد مزق طرف العلاقة ، سيصدر ذلك صوتا مزعجا ، سيلتفت الاثنان له ، لكن بعد ذلك ستظل يد الجائر فيها مصرة على

تمزيقها حتى النهاية ، وسيدفع في الآخر ثمن صبرها عليه وحدها ، وبذلك سيكون ذلك مصيره المؤبد الحتمي لحين ميسرة ، ومن يدري..
قال محمد: لا يمكننا أن نرى الحكاية من جانب واحد ، لابد أنها أيضا تغيرت ، أو لربما كانا كذلك من قبل فقط ما كان يفصل بينهما مسافة ووقت ، لا أحد يتغير فجأة!
قالت سارة: بلى بلى يتغيرون ، كلهم يتغيرون..
ليست حكاية.. اثنتين.. بل ألفا..
قلة قلائل من ظلوا على حالهم ، وبالرغم من ذلك ، لو نظرنا للأمر بعين الحق ، سنراهم تغيروا ، لكنهما الاثنين تغيرا بما يبقيهما على انسجام وتفاهم ، كأن تعزف عنه لتربية أولادها ، ويعزف عنها لتوفير المال والغذاء لهم..
قال العم ، وقد التزم الصمت متعمدا ليسمع الجميع: يا بنيتي ، الأمور لا تقاس هكذا ، ولا يمكننا التعميم لأننا قد رأينا عشرة ، بل وحتى لو كانوا ألفا..
اسمعيني جيدا ، وحاولا أن يصبح ما أقوله بالنسبة لكما مفهوما ، أي أمر تلقائي بالذهن لا يحتاج تفكيرا ليحضر..
أي علاقة تبنى على مخافة الله وحدوده ، هي علاقة راسخة متجذرة لا يمكن أبدا أن تفشل ، لذلك أنجح العلاقات ما جعل كلام الله فيها مردا لكل خلاف طرأ بينهما..
يعني..
وجود مشكلة في أي علاقة ، أمر وارد بطبيعة الحال ، فالأخوة يختلفون ، والأصدقاء ، وحتى الابن مع أمه وأبيه ، لذلك الخلاف لا يعني أبدا أن الشخصين غير ناجحين في إقامة علاقة ، لكنهما يصبحان كذلك ، حين لا يجيدان فهم الاختلاف بحد ذاته ، إن الأمر يشبه تماما أن أأكل جزء تفاحة وأدعها حتى تتعفن ، ثم أضعها على الطولة وأجلسكما بطرفي الغرفة ، سيراها محمد بأنها تفاحة شهية ناضجة ، بينما ترينها متعفنة بالية ، كلاكما على صواب لكنكما تريان الأمر بطريقة مختلفة..
وكذلك في العلاقة الزوجية ، إن تمكن الزوج من استيعاب أن زوجته تحب زيارة أهلها أكثر من أهله لأنها تتصرف معهم على طبيعتها ولا تتجمل أمامهم ولا تحتاج لأن تكون مثالية ، وليس كرها بأهله أبدا ، سيتقبل الأمر ويجد أنه أمر لا يستحق أن تحدث مشكلة بينهما..
لو قال الزوج لزوجته أريد الذهاب في رحلة مع أصدقائي وأرسلك لبيت أهلك ، فاستوعبت أنه مضغوط بالعمل ، والرحلة ستعطبه طاقة لينفض غبار العمل عن

قلبه ، لن تخلق مشكلة على ذلك وتفرط بدلالها عليه الذي يتحول لأمر مزعج ومنغص على كليهما..
التفاهم يعني أن أرى ما تراه وأتفهمه وإن لم أقتنع به كما تفعل أنت ، لكننا نحتاج دوما لمقياس ثابت لنرى فيه إن أخطأ أحدنا أم لا ، علينا أن نوجد أمرا متفقا عليه بيننا ، لأقول لك حين تخطئ بالأمر الفلاني أنك أخطأت فعلا وتكون كذلك..
وهذا المقياس استحالة أن يوجده اثنان مهما وصلا من العلم والحكمة ، بل ولن بتمكن من إيجاده كل الإنس والجن بعضهما ظهيرا للآخر..
لذلك نحن دائما نقول إن الفاصل الحاسم بين أي اثنين كلام الله وحده لا شريك له ، هو علام الغيوب ، الخبير ، اللطيف ، الحكيم ، الرحمن الرحيم..
فقط هو ، لأن كل شيء صواب يحتمل الخطأ ، إلا كلامه فهو صواب مطلق لأنه من لدن خبير حكيم..
فإن ارتكب أحد الطرفين أمرا منهيا عنه ، كان عليه أن يعود لنفسه ويحاسبها ثم يسعى للتوبة عن ذلك ، وإن فعل أمرا مباحا أو حلالا ففي المباحات يكون الأمر نسبيا قابلا للتفاوض ، وبالمحللات فالأمر مطلق الصحة ولا لوم على فاعله ، لكنه أيضا يخضع للتفاوض بالعلاقة الزوجية..
قال محمد: أعتذر على المقاطعة ، لكن ما الفرق بين الحلال والمباح..
فاعتدل العم بجلسته وقال: سؤال جميل..
انظر يا عزيزي..
الآن الأصل بالأشياء الإباحة ، ما لم يرد دليل يوجب بطلان أو فسدان ولا نهي ولا عقاب أو غضب أو لعنة من الله..
سأبسط لك الأمر..
يعني ما حكم أن تشرب الشاي ؟
قال محمد: امم حلال..
قال العم مصححا: بل مباح.. هل ستأخذ أجرا إن شربته؟ هل ستأخذ إثما إن عزفت عنه ؟
بالطبع لا..
وكذلك كل شيء قد يحدث بين الزوجين ، كأن تحب هي قهوة الصباح ويحبها هو مساء..
كأن يقرأ أحدهما كتابا ، ويشاهد الآخر التلفاز..
أن تقول لها قصيدة وتغني لك أغنية..

هذه الأمور كلها مباحة..

لكن الحلال مثلا أن تتزين الزوجة لزوجها ، الآن الأمر حلال وتؤجر عليه المرأة ، لكنها قد لا ترغب بلحظة ما ، وهذا الأمر يحتمل بينكما التفاوض والنقاش لزيادة الإقناع وتقبل الآخر للفكرة..

أما الحرام كأن ترغب هي بخلع حجابها ، فهذا أمر حرام قطعا ، وهنا يكون لك كل الحق برفض ذلك والتشدد برأيك لأن الأمر قد ورد فيه أمر صريح..

قالت سارة: لا أظنها متمسكة بالدين للحد الذي يجعلها ترى الأمور بهذا الشكل ، لكنها أحبته لخمسة أعوام وهما متفاهمان جدا ، فما الذي استجد عليه ليفعل ما فعل..

قال العم: ببساطة يا بنيتي قد كان الشيطان بينهما ، وحين حللا العلاقة قد رحل..

ضحك محمد وقال: أعجبتني جملتك هذه ، قد اختصرت كل شيء..

فأتبع: هذه هي الحكاية التي لا نريد أن نصدقها ، العلاقات يجب أن تكون مقدسة ، لا نقيمها بطريقة غبية عبثية ساذجة ثم نتعجب من منظرها وما آلت إليه..

الأساس الأهم الثقة والتفاهم والمسافة..

فقال محمد: فهمت الثقة وشرحت لنا التفاهم لكن ما الذي تعنيه تماما بالمسافة!

قال ألا تقترب حتى تتلاشى ولا يظل لك هيكل يتعامل معه من أمامك ولو كان بضمك حبا..

وألا تبتعد حتى لا يصغر حجمك ويتعب من يريدك وهو يبحث عنك..

أن تكون قادرا على التوازن فوق حبال العلاقة ، فتتأرجح بين الوجود وعدمه ، ويتأرجح من يحبك بين شغفه بك وشوقه لك..

فيظل فتيل الحب مشتعلا بك ولك ومعك..

أن ..لا تمل ولا تنسى..

***

-22-

حضرت الخالة العشاء وأصر العم على محمد أن ينام عندهم حتى الصباح ، قائلا له: لن أدعك تعود ،هذا البيت أيضا أصبح بيتك ، ونحن أهلك ، الجو مخيف والمواصلات صعبة ، سنسهر سويا حتى الصباح ، ومن ثم تعود لمنزلك..

ومرة أخرى لم يكن بيد محمد شيء سوى أن يقبل بذلك ، خلع سترته وعلقها ، وجلس على السفرة معهم ليتناول العشاء: أنواع مختلفة من المقالي وشوربة الخضار..

قال محمد وهو يثني أكمام قميصه: بالرغم من اختلاف طريقة طهونا للطعام وطريقتكم ، وبالرغم من عدم اعتيادي على هذه النكهات ، إلا أن ابتسامة الخالة وهي تطهو ، تجبر من يتذوق الطعام من يدها ألا يشبع حتى لا يظل أمامه ما يأكله..

ضحكت الخالة وقالت لزوجها: سمعت ، سمعت..

ضحكوا جميعا ، فعقبت: صحة وعافية بني ، بالهناء والشفاء..

أكملت العائلة حديثها حول العلاقات ، فقالت سارة: أتدري ما المشكلة يا أبي..

المشكلة بأن مفهوم الزواج لدينا في ديننا هو الاطمئنان والسكينة ، العلاقة حين تصبح زواجا تختلف كثيرا عن أي شيء قبلها ، وكأن كلاهما ضمن شخصا له ، فتراها هي بدأت تميل له وتتقبل منه كل شيء وكأنه مصير مقترن بها للأبد..

وهو يبدأ بالمقارنات بينها وبين غيرها ، وفجأة يبدأ بالبحث عن علاقة أخرى مدعيا أنها لا تلبي رغباته ، وأنه قادر على الإتيان بزوجة جديدة بأية لحظة..

والمزعج أكثر من كل شيء ، هو أنها فعليا تبدأ بالخوف والحزن وتشعر بأنها مقصرة في حقه ، فتبدأ بمسامحته لو ضربها أو سبها أو شتمها ، والأشد فظاعة أنها قد تلوم نفسها وتقتنع حقا بأنها السبب ، فحين تجده على علاقة مع إحداهن أو يشرع على الزواج تستقبل الأمر وتكتم أطنانا من القهر داخلها..

تنتهي هي ويبدأ هو من جديد مع غيرها ، وحين يعود لها يجدها بانتظاره..

كان الكلام مزعجا جدا بالنسبة لمحمد ، إذ شعر وكأنها ستتعامل معه بناء على ما يقترفه الآخرون من جنسه بزوجاتهم ، فقال بعد أن أنهى مضغ الطعام بفمه: عذرا على المقاطعة ، لكن أنا أراك تحكمين على الأمر من زاوية أنثى ، فماذا لو وسعنا نطاق رؤيتنا قليلا..

ماذا لو كانت تلك الأنثى مهملة بحق ، وبظرف أشهر تحولت لامرأة لا تطاق ، لا تهتم بنفسها ولا تشعر بزوجها وتهمله ، ولا تجعله يبتسم للحظة لكثرة نكدها ومزاجيتها..

أو دعك من هذا..
ماذا عن الإناث التي تتزوج من شخص ، وتظل على علاقة مع حبيبها القديم سرا ، أو تخون زوجها مع ألف رجل دون علمه ، مع العلم أنه مخلص لها جدا..
كادت سارة أن تتكلم فقال العم: أحسنتما بتوسعة الدائرة ، ورؤية الأمر من كل الجوانب..
لكن ما رأيكما أن نختصر الأمر ونتحدث عما يخصنا به..
المشكلة الحقيقية ليست بكل ما قلتماه ، لأن كل شيء قد ذكرتماه يعتبر حالة ، والحالة تحتاج لدراسة وتمحيص جيد قبل أن نحكم فيها..
نحن دوما لا نبحث بالفروع لأن بحث الفروع أمر متعب وكثير التشعب ولا يحصى..
فدعونا نرجع للأصل المستقى من الشريعة..
لماذا نحن نقول دائما أن علينا العودة للكتاب والصحيح من سنة نبينا محمد ، ونتقصى منها إجابات لكل أمر يخطر ببالنا..
ببساطة لأن هذا الكتاب من لدن عليم خبير..
الأمر بسيط جدا ، الآن نحن حين نشتري جهازا ما كيف تستخدمه !
لا يمكننا استخدامه إلا حين نقرأ التعليمات المرفقة وطريقة الاستخدام ، حينها بكل سهولة سنضغط على الزر كذا فنشغله ، والزر كذا فنطفئه...إلخ
وهكذا تماما نتعامل مع الكتاب ، لقد خلقنا الله على هذه الأرض وأوجد لنا أنبياء صالحين في كل زمن ورسالات سماوية لترشدنا للطريق الصحيح كي لا نضل ، ولما كان نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، خاتم الأنبياء ورسالته آخر الرسالات ، حفظ لنا هذا الكتاب من التحريف حتى زمننا هذا وجعله صالحا لكل زمان ومكان ، وجعله قرآنا عربيا فصيحا ، واضح الألفاظ ويسير الفهم ، لنعود له دوما ونحتكم به ، فسبحانه يعلم ما توسوس لنا أنفسنا وهو أقرب إلينا من حبل الوريد..
يعني باختصار يعرف كل صغيرة وكبيرة نخفيها أو نظهرها ولا يخفى عنه مثقال حبة من خردل..
الآن كل العلاقات قبل الزواج بكفة ، وبعد الزواج بكفة أخرى
لذلك نحاول أن نشدد دائما على أسس اختيار الزوج والزوجة ، فأهم أسس الزواج أن يكون مبنيا على الديمومة ، ويركن خيار الفصل حتى يصبح الاستمرار بالعلاقة أمرا مستحيلا ، فالطلاق وإن كان حالا ، إلا أنه أبغض الحلال عند الله..

قالت الخالة: تماما ، اليوم كل من يتزوجون يستعجلون الأمور ولا يحملونها على محمل الجد ، فترى الفتاة تتخلى عن أهلها وعائلتها متمسكة به ، ثم تجر أذيال الخيبة عائدة لعائلتها ، أو ذاك الذي يحارب الدنيا ويكاد يموت ليتزوج فتاة تكون على علاقة بألف غيره ، أو أن الأهل طمعوا بزوج ذي مال غير آبهين بالأخلاق فلقوا منه سوء المعاملة وتكون ابنتهم الضحية..
لكني أؤمن جدا أن الضحية ليست بريئة من دمها ، مهما كان المرء مقيدا ومحكوما فلا إكراه بالزواج ، على الطرفين القبول والموافقة عن قناعة تامة ، ومن وضع مخافة الله بين عينيه وسلم أمره لله سيكون الله معه ويدبر له أمره بالغيب..
قال محمد: الآن أنا وسارة تقصينا الحلال قدر استطاعتنا ، وبإذن الله لم يسلك الحرام بيننا مسلكا ، وبإذنه لن يحدث ذلك أبدا..
لكن كيف سأعرف ما علي فعله لأتفادى ذلك..
لا أريد أن يحدث ما نراه من حولنا ، الأمر مؤرق بالفعل..
فأنا ما عدت أسمع بعلاقة إلا وانتهت بطريقة ما ، إن كانت النهاية فعلية بطلاق أو فسخ للخطوبة أو فراق إن كانوا عشاقا ، أو نهاية مجازية كأن يتوقف النبض بداخلهم للشخص الآخر..
فأكدت سارة على قول محمد: بالفعل..
كان الجميع قد شبع فانتقلوا من طاولة السفرة للمجلس ، أرادت سارة أن تساعد أمها برفع الطعام ، فرفضت أمها قائلة: اذهبي واستمعي لكلام والدك الآن ، هذا أهم..
سأرفعه على مهل..
جلست سارة مجددا على الكرسي المجاور لمحمد..
وطلب العم من الخالة أن تعد لهم شيئا ساخنا ، ولا مانع بالشاي من جديد..
ثم جلس العم على الأريكة وقال:
اسمعاني جيدا ، لا شيء يضمن البقاء للأبد ، لأنها فانية ومصير الأشياء الزوال..
لكن ما سأشرحه لكما الآن هي المعادلة الزوجية باختصار..
الأمر أشبه بالمعادلة الكيميائية: جزيئا أكسجين وذرة هيدروجين تحت ظروف معينة تنتج لنا ذرة ماء..
لم تخلق العلاقة بطرف واحد ، والأساس بها التبادل..
لذلك جعل الله للزوج حقوقا وقبل حقوقه فقد فرض عليه واجبات ، وكذلك الزوجة..

أما ما يحدث اليوم ، فهو تقصير الاثنين بواجباتهما ، وعدم تنازلهما عن أي من حقوقهما ، مما يحدث خللا فظيعا بالعلاقة فتبدو كالطبل مفرغة ومملوءة بالهواء..
غباء كل ما نسمعه من مطالبة المرأة بالمساواة بينها وبين الرجل..
فقد خلقها الله أضعف بنية من الرجل ، فلو ساوى بينهما لما كان العدل..
لقد جعل الله المرأة في هذه الأرض كأنها نواة الذرة وأساسها ، وجعل لها حقوقا جمة تفرض على كل رجل يجاورها كالنفقة التي تفرض في بداية حياتها على والدها وأخيها ثم زوجها وفيما بعد ابنها..
ذلك تكريم ورفعة لها ، وتعويض لها عن قوتها والأشهر التي تعذر بها وحملها ، وغير ذلك من نفسيتها ومزاجيتها التي تتقلب من حين لحين..
مهما بلغت قوة المرأة وعظمتها ومهما علا شأنها ، فتظل تحتاج لشيء عظيم يملؤها بقوة ويشبع مساماتها بحضوره وحبه وعطفه وحنانه ودلاله..
هذا لا إنقاص فيه منها أبدا ، فالماء لا يقلل من شأنه كونه سهل الانسياب ، وتماسك الصخر لا يزيده علوا..
وكذلك الرجل ، فقد عفاه الله من تلك الآلآم التي تتحملها المرأة ومنحه نوعا من الجمود والصلابة ليكون كساق الشجرة غليظا وصلبا ، قادرا على البحث عن أسباب الكسب وتقصيها ، ليكون أجره وكفارته بدلا من الآلام والأوجاع بإسعاد أنثاه أما وأختا وبنتا وزوجة ، وكفايتهم وعدم التقصير بواجبه نحوهم..
وهذا الواجب الذي يقوم به هو بالأساس ما يحتاجه ليعيش ، فالساق إن لم توصل الماء والغذاء من الجذور للأوراق تجف وتتعرى حتى يصبح كسرها أمرا هينا..
هو يحتاج لابتسامتها ولشعوره بأنه قادر على إسعادها وتلبية حاجاتها..
فالمرأة في حياة الرجل كزهرة ما إن تتفتح بين يديه حتى تزهر حياته..
وحين نتحدث عن الزواج تحديدا فالأمر يكون في أوج جماليته ، حين يدرك الرجل أن هذه الزوجة قد تركت من عاشرتهم طوال حياتها وآوت إليه ، وتدرك الزوجة أنه قد ترك الحرام كله واختارها لتكون حلاله ، وأنه من الآن فصاعدا قد بات يحمل على عاتقه كل أمرها ، ويكونان مستعدان لتحمل أي شيء لأجل إتمام هذه العلاقة بالحب والمودة والسكينة..
يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾
فمن لم يدخل الزواج بنفس راضية مطمئنة ، حاملا على الجنس الآخر مترصدا له ليوبخه على أقل ذنب يقترفه لن يفلح في إتمام العلاقة ، من يحاول أن يقارن بين

زوجه وأزواج غيره ، من يبتعد عن دين الله ويحاول أن يتعدى الأعراف وأن يتمرد على كل شيء ، ويخالف ما خلقنا الله لأجله ، بأن تكون هي الزوجة الصالحة والأم المربية ، ويكون هو الزوج الصالح والأب الحاني..

فلن يحققا أهم ما يبنى عليه الزواج ونقضوا السكينة التي ستكون مهد العلاقة ، فحتما سيفشلان حينها وستؤول الأمور لأسوأ المآلات..

قالت سارة معترضة: لكني أرى أن سكينة الرجل بأن تكون المرأة عديمة طموح..

أن لا تطلب منه شيئا وأن تكون هي مجرد ظهر للرجل ، ودرج يصعد عليه ليحقق هو ذاته بينما هي تظل بمكانها..

ضحك محمد وقال: وراء كل رجل عظيم ، امرأة عظيمة..

فقالت سارة: ولم لا تكون أمامه!

قال العم وهو يبتسم: لا تقلقي بشأن هذا ، فإن أخذ الرجل زوجته وهي تعمل وقبلها بذلك فاشترطت أن تظل تعمل وهي متزوجة وقبل ، فلا يحق له إيقافها..

وإن كانت تدرس فكذلك ، على أن يكون مقتدرا ليكمل لها تعليمها لكن إن تزوجها صغيرة أو فتاة بمنزل أبيها ، فيكون كرم أخلاق منه أن يجاورها ويدفعها لتكون امرأة ذات علم وشأن ، فذلك لا يزيده إلا رفعة..

وأكثر من تحب المرأة ، ذاك الرجل الذي يشعرها دوما أنه يريد أن يراها بمرتبة أفضل ، وأنه يسعى لها أكثر مما يسعى لنفسه ، مما يجعلها مطمئنة أكثر بأن بجوارها رجل يفكر بها بحق ومستعد لدعمها بكل ما أوتي من قوة ومال وشعور..

قال محمد : ولا تقلقي بشأني فأنا لا مانع لدي بعملك ولا إتمام دراستك ، ما دمت ستوفقين بيني وبينهم..

قال العم: لكن الجميل ، أن تقدر الزوجة لزوجها ذلك فتكرمه وتحسن له وتقدره ، خصوصا إن كان داعما بناء طوال الوقت ، بينما كل الرجال يسعون للتثبيط من مكانة نسائهم خشية أن يشعرن بالاستغناء والاكتفاء..

وكما جعل الله عملها ومالها لها ، فلا شيء يلزمها بصرف شيء من مالها على بيتها ، إلا رغبة وحبا منها بمعاونة زوجها ، وبذلك تكون قد أحسنت لزوجها ، فيزيدها ذلك فضلا في قلبه ، وأجرا عند الله..

قالت سارة وهي تضحك: حتى وإن لن أعطيه راتبي..

ضحك محمد وقال: لئيمة..

فقالت: طبعا..

سأتعب خارج البيت ولن أقصر داخله معك ، إذن سيكون علي المجهود ضعفين..

لذلك لن أعطيك..
فضحك العم عليهما وقال: كفى بالمرء لؤما أن يقول هذا حقي ولا أتنازل عنه..

طالت سهرة العائلة حتى غفت سارة متوسدة كتف الأريكة ، قالت الخالة مقاطعة حديث محمد مع عمه: انظرا ، لقد نامت..
ضحك العم وقال: هذه هي سارة ، حين يغلبها النعاس لا تأبه بشيء ، لا يمكنها مقاومة النوم..
فقالت الخالة: المسكينة لقد سهرت ليلة أمس على دراستها كثيرا ، لم تنم جيدا.. أعذرها بني..
أما محمد فقد كان غارقا بها ، وكأنه نائم على كفها الرقيق بين يدها ووجهها ، ابتسامة خفية رسمت على فاهه حبا وعيناه لم تتزحزح عنها..
قال العم للخالة: أيقظيها لتنام مكانها..
ولما همت الخالة لإيقاظها تمنى محمد لو يتلاشى كل شيء حوله ولا يوقفه أحد عن تأملها وهي نائمة كما الأطفال بسلام روحها وبراءة وجهها..
هزت الخالة كتفها قليلا منادية باسمها ، ففزعت سارة وأفاقت..
قالت لها الخالة: قومي لسريرك ، هيا حبيبتي
فنظرت صوب محمد الذي لا يزال يتأملها ، وقالت وهي تفرك عينيها بيدها : لا لا أنا مستيقظة..
اقشعر بدن محمد ، وابتسم لها بلا وعي دون أن ينطق
قال العم: دعيها ، ستنام ثانية..
وعاد الحديث لمجراه ، لكن محمدا كان كمن أخذ إبرة مهدئة فقد أذعن مستسلما ومستمعا لحديث العم حتى النهاية..
كان العم مبصرا لما طرأ على محمد وبقلبه يقول: أنى لقلب أن يراها ولا يغرق..
كانت الساعة الواحدة وعشرين دقيقة بعد منتصف الليل ، قال العم: دعونا نخلد للنوم ، لنتمكن من الاستيقاظ على صلاة الفجر ، وإلا ستفوتنا..
أفاق العم ابنته بينما كانت الخالة تحضر الفراش لمحمد ، ومحمد ثغره متبسم يراقب سارة وهي تستفيق ، ومن ثم تحاول التركيز لتذهب لغرفتها ، حتى إذا وصلت الباب ابتسمت لمحمد ولوحت له بيدها قائلة: أعتذر ، لم أنم ليلة البارحة أبدا ، أراك في الصباح..
فهز محمد لها رأسه ولوح لها مودعا..

ساعد الخالة بوضع الفراش ، وترتيب الأواني لتحملهم للداخل ، وشكرهم على ضيافته معتذرا عما صاحب حضوره المفاجئ من فوضى..
فكان رد الخالة: لا تقل ذلك يا بني ، لقد أصبحت واحدا منا..
دخلت سارة لتنام ، بدلت ملابسها وخلعت حجابها ، ثم تذكرت وجه محمد وتخيلت شكلها فابتسمت وكتبت له رسالة:
حين كنت تقف أسفل نافذتي ، لم أكن أتمكن من النوم..
واليوم وأنت معي أسفل سقف واحد أنام بسكينة تامة!
لقد بت أطمئن بحضورك يا محمد..
حين وصلت الرسالة لمحمد كانت الخالة لا تزال تحادثه قرأ الرسالة وتلعثمت الابتسامة على شفاهه أمامها ، لكنه سريعا ما عاد لوعيه وحادث الخالة حتى خرجت من الغرفة..
جلس محمد وقد غطى نفسه بالبطانية وكتب لها:
ليتك تعرفين شيئا مما يحدث لي ومعي..
ليتك ترين كيف تتكورين داخلي كما يتكور الجنين ببطن أمه حين تكونين أمامي ، ثم كيف تتمددين حتى تصيرين جسدي بأكمله جسدك حين تختفين عن ناظري..
ليتك تسمعين صوت نبضي حين تكونين على مرآي ، أو ترينه وتشمين ريح الحب الذي ينبعث منه كلما غبت..
صغيرة أنت كما الأطفال الصغار
ببراءتهم ورقتهم وملائكية أرواحهم
ورقيقة كبتلات الورود
وعظيمة
كعظمة هذا الوجود
ليتك يا سارة تعرفين شيئا ، أو ليت الحروف تطاوعني لأقول لك شيئا ضئيلا مما يختلج الفؤاد في حضورك وغيابك..
ليتني أقدر أن أشرح لك شعور القشعريرة الذي أصاب جسدي اليوم حين كنت نائمة وأفقت وأنت لي تبتسمين..
ولأن كل ما قلته كان من باب التمني فسأرمي حروفي جانبا وأقول لك
أني أحبك يا سارة

أحبك
وكفى..
قرأت سارة الحروف وقلبها كان يرقص شغفا وحبا ، حتى إذا قال عن القشعريرة فانتابها الشعور فنظرت لمسامات يدها وابتسمت..
حاولت أن ترد بشيء لكنها لم تفلح..
ترددت بالاتصال عليه قليلا ، لكنها لم تتمكن من المقاومة..
فتح محمد الخط ولم يقل شيئا ، فقالت سارة: لم أتمكن من الرد عليك هذه المرة..
ضحك محمد وقال: لا أريدك أن تردي ، فقط أريدك أن تعرفي ولو جزءا يسيرا مما يحدث لي..
قالت بخجل: لقد كنت كالغبية
فقال: كنت.. احم احم
ضحكت وقالت: احم احمم
فأكمل: قال غبية قال.. حماك الله حماك الله يا سارة بحق
حماك الله من عيني أنا قبل كل عيون البشر
فقالت مقاطعة إياه بمرح ، لتغير مسار الكلام: كنت تضحك علي ، رأيتك..
قال: أضحك! ، لم أفعل
لقد كنت ثملا من طفولتك لا أكثر..
تحدثا قليلا ، حتى قاربا على إنهاء المكالمة ، قال محمد: سارة
فأجابته: نعم..
قال: لم أهدك أغنية منذ مدة..
لكني سأرسل لك الآن رابطا لأغنية اسمعيها جيدا حتى تنامي..
فقالت له: حااضر
فقال مودعا: حضر لك كل الخير حبيبتي
خجلت سارة وقالت: احمم ، تصبح على خير..
ضحك وقال: بل أصبح عليك وأنت كل أهلي..
مع السلامة..
فتحت سارة على رسائل "الماسنجر" فلم يكن ثمة رسائل بعد ، أخرجت سماعتها من الحقيبة وافترشت شعرها على الوسادة الأضواء مطفأة ، والجو بارد ، والمطر يهطل بغزارة على النافذة ، وسارة أسفل بطانيتها وبجوارها وسيم..

أرسل محمد الرابط ففتحته وبدأت تستمع للأغنية المصرية التي كان عنوانها "تعرفي بحلم إيه ؟" وكانت كلماتها تقول:

تعرفي بحلم ايه دلوقت تعرفي بحلم ايه..
بحلم يكون لي أنا ابن منك
نفضل نحضن فيه..
نظرت عيونه تنسي الهم
نحضن ويفضل فينا يضم
شايفك أطيب آه وأحن
يا حبيبتي يا حبيبتي
يا حبيبتي لما هتبقي أم..
هتبقي أم..
هيبقى شبهي وشبهك
هيبقى عمري وعمرك
هيبقى روحي وروحك
وتجمعوا في قلب ودم..
هيكبر بيني وبينك
وشوفو بعيني وعينك
وأتباها انو على إيدك انت
هيبقى أحسن مني وأهم..

سمعت الأغنية وشاهدت الفيديو المرفق ، فأرسلت له قلبا أزرق ووردة ، وقالت : أريده فقط أن يكون رائعا مثلك أنت..

***

-23-

في الصباح ، ذهبوا لحجز الصالة ، كان الجو دافئا بعض الشيء ، وأمضوا اليوم متنقلين بين صالة وأخرى ، كان محمد قد أوصى عمه أن يأخذها إلى أفضل وأجمل الأماكن لتكون ليلة أسطورية بالنسبة لسارة ، وألا يحاول تقييدها أو ازعاجها بشأن المال ، فلا مشكلة أبدا بالمال إذ أنه قد وفر مبلغا جيدا للصالة..

ورغم ذلك فقد أوصى العم سارة أن ترى صالة جميلة لدى النساء ومميزة وكبيرة العدد ، ولكن عند الرجال لا يهم الأمر كثيرا لأن الحفل لن يكون فيه الكثير من

أهل محمد ، وأن يكون السعر معتدلا ، مؤكدا على أن تستغل المبلغ بأمور أخرى أكثر ديمومة لهما من الحفل ، كالسفر أو شراء مستلزمات إضافية للمنزل..

لم يكتفوا بصالة واثنتين وعشرة ، ولم يحجزوا حتى عادوا للبيت وتحاوروا وقرروا أيهم سيحجزون..

حتى إذا جاء اليوم التالي ذهب محمد لحجز الصالة ودفع المبلغ..

لم يتبق على زفافهما الا أقل من شهر واحد ، عمد العم بهذا الشهر أن يجعلهما أكثر قربا من السابق ، إذ باتا يرون بعضهما البعض كل يوم تقريبا بوجود العم والخالة ، وأحيانا إخوانها ، بين توضيب الفراش وتنظيف البيت ، ونقل ملابس العروس لخزانتها وترتيبهم بها ، وكذلك أدوات المطبخ والأثاث ، وتنسيق القطع بما يتناسب مع المنزل..

قبل أسبوعين تقريبا بدأت سارة بتكثيف خروجها مع الخالة وأختها للسوق لانتقاء فستان زفافها الأبيض وفستان لحفلة الحناء اللذين أعطاها محمد ثمنهما التقريبي لتحجزهما ، وشراء الخالة وابنتها ما تحتاجان للحفل ، أما مصففة الشعر فكن قد رسون على صالون لهن الثلاثة..

أما في أسبوعهما الأخير ، فكانا لا يجدان وقتا حتى للحظة صفاء يتحدثان بها ، سارة مشغولة في ليلة الحناء خاصتها ، وتجهيز نفسها ، والعم مشغول بين مزرعته وحفل سارة الذي سيقام قبل زفافها بيوم للنساء فقط على سطح منزلهم لتكون بمثابة حفلة وداع..

فقد اضطر لإنشاء حمام و تركيب مغسلة كي لا تحتاج النساء للنزول للبيت أثناء الحفل ، وغير ذلك من حجز مقاعد بلاستيكية ومقعد عنابي اللون خاص بالعروس ، وتركيب أحبال للإنارة ، وما آل لذلك مما جعل محمدا يعتمد على المواصلات بهذه الفترة وكثيرا ما يتوه ويسأل حتى يتمكن من الوصول للأسواق وإحضار ما تبقى من لوازم البيت والثريات وشراء المونة ، ومن ثم إعادة الأثاث والسجاد وترتيب البيت ومسح الأرضيات وتلميع الزجاج..

كان الأسبوع الأخير ، الأسبوع الأكثر جهدا على محمد ، والأكثر دلالا لسارة ، فقد كانت لا تخرج من غرفتها إلا لتذهب للمصففة وتعود..

ورغم ذلك لم يكن هنالك أي وقت للحديث بين سارة ومحمد ، فقد كانت عائلة سارة وبنات خالاتها يزرنها وينمن عندها ، وأكثر ما كانا قادرين على فعله وقتها أن يتذكرا بعضهما البعض برسالة كل حين وحين ، رسائل تخلو تماما من الغزل والحب ، فقط يشتكي فيها محمد لسارة أو يسألها عن أمر ما..

وأخيرا..

ارتدت سارة فستانا نيليا محجرا من الأعلى باللون الفضي ، بلا أكتاف ، منسدل الطرف واسعا ، بتنورة متوسطة الانتفاخ ، وجلست بين يدي صاحبة الصالون التي أقامت لها استعراضا ضخما حين جاءتها ، وبدأت بوضع المكياج ومن ثم تسريحة الشعر ، وكلما اعترضت سارة على شيء ، أخرستها بقولها بأنها فاتنة ورائعة...الخ

لكن سارة لم تكن مقتنعة أبدا بذلك ولم تحب أي شيء مما قامت به ، ولسوء حظها أنها كانت قد دفعت لها حجزا لليلتين..

ذهبت سارة للحفل ورقصت مع الجميع ، وقد قال لها الجميع أنها جميلة ورائعة ليطيبوا خاطرها ولكنها كانت بداخلها تشتم نفسها لأنها ذهبت هناك ، وتتمنى لو أنها جهزت نفسها بنفسها ، متأكدة أنها كانت ستكون أجمل وأروع من ذلك بكثير..

أما محمد فلم يتمكن من الحضور لأنه لا يزال لم يشتر بدلة له ولم يحلق ولم يجهز نفسه لزفافه غدا ، فاعتذر من سارة كون الحفلة ستنتهي بعد منتصف الليل..

كان ذلك خبرا جيدا بالنسبة لسارة فلم تشأ أن يراها محمد بهذا الشكل أبدا ، أخبرت سارة والدتها بذلك ، فأخبرت الخالة زوجها ، مما جعله يرسل إخوتها ليأخذوا محمدا من بيته ويذهبوا معه للسوق لينتقي ملابسه ويجهز نفسه..

ولكنهم حين وصلوا وجدوا محمدا غارقا بترتيب البيت وتنظيفه ، ولا يزال البيت عارما بالفوضى ، فدخلوا ساعدوه بذلك حتى قاربوا على إنهاء كل شيء ، فجلس محمد على الأريكة لدقيقة واحدة فنام مغشيا عليه..

أكملا بقية العمل عنه ودعوه ينام قليلا ، حتى جاءه اتصال في تمام الساعة التاسعة والنصف من رقم غريب فأيقظوه ليجيب ، أجاب محمد فإذا بعائلته قد وصلت واستقلت فندقا قريبا من الصالة..

سعد محمد بذلك ، وصدم بأنهما قد أنهيا العمل وأنه قد نام ، قال لهما: والله لا أدري كيف أشكركما ، لو بقيت وحدي لاحتجت ليلتين إضافيتين..

ثم اعتذر عن نومه مبررا بأنه لم ينم منذ ثلاث ليال تقريبا أكثر من نصف ساعة..

وقد أخذا بالضحك عليه إذ قال له أخوها الكبير: هانت غدا ينتهي كل هذا التعب..

وأخوها الأصغر قال: على العموم صورتك وأنت نائم ، سأحتفظ بالصورة ممسكا عليك ، حتى كلما اشتكيت منها ذكرتك بهذا اليوم..

تحدثوا قليلا ، ثم طلبا منه أن يرتدي ملابسه سريعا ليخرجا معه ليشتري بدلته ومستلزماته ، فرح محمد بذلك جدا ، فقد لاقى نصبا من البحث وحده وقطع مسافات هائلة ليصل لكل شيء هنا..

اتصل بأهله وأخبرهم أنه لن يتمكن من الحضور الآن لأنه لم يشتر شيئا بعد ، فأصر إخوانه أن يذهبوا معه للسوق ، وهكذا ذهب محمد وإخوته وإخوة سارة للسوق بسيارة أخو سارة الكبير ، إذ جلس محمد بجواره وجلس الجميع بالمقعد الخلفي ، وأخذوا يغنون له ويصفرون محتفلين به..
من محل لآخر ومن منطقة لأخرى هكذا حتى أنهوا شراء كل شيء ، وأخذوه على الحلاق ليحلق شعره..
فما أن ركب السيارة على الساعة 12:40 حتى دخل بسبات عميق ، وبقي الجميع يضحكون عليه حتى أقلوه لمنزله ، فنزل البيت معه إخوته ليوقظوه غدا ، وعاد أخوا سارة للبيت فوجدا الحفلة قد انتهت وآخر فوج يغادر الحفلة ، ودعوهم وصعدوا للأعلى مع والدهم ، بينما وضعت سارة شالا خفيفا على أكتافها ، وتشاركوا الرقص والاحتفال سويا على أغنيتين أو ثلاثة ثم جلسوا وشربوا سويا قهوة سادة..
قال العم بعد طول حديث حول الحفلة والزوار ، وتكاليف الحفل والضيافة: المهم ، أنكم سعيدون ، وأمضيتم وقتا لطيفا..
دعونا ننزل وننام الآن غدا لدينا حفل آخر ، يجب أن نريح أجسادنا جيدا..
قال أخوها الكبير: الآن أوصلنا العريس وعدنا ، يا إلهي لو رأيتم كيف كان البيت..
ومحمد بالكاد يقف على قدميه..
ضحكوا جميعا فأخرج أخيه الأصغر الهاتف وأراهم صورته وهو نائم بالبيت وبالسيارة بعد الحلاقة..
ضحك العم وقال: حرام هذا الشاب ، لقد تجفف في هذين الأسبوعين..
قال أخوها الكبير: والله بحق ، ما شاء الله عليه رغم تعبه ونصبه ، إلا أنه لا يزال بشوشا طيب الخلق ، وطويل البال..
والصلاة لا يؤجلها لحظة ، يترك كل شيء ويصليها بأول وقتها..
فقال الأصغر موجها كلامه لوالده: لكنه فرح جدا بقدومنا ، ومساعدتنا ، ومن ثم أخذه للسوق ، بالفعل جيد أنك أرسلتنا له..
قال العم مبتسما: محمد رجل كريم ، قليل الشكوى والتذمر ، ولا أهل له هنا ليعاونوه ، علينا أن نشعر به ونعاونه فلقد أصبح واحدا منا ، وكلما أكرمناه أكثر أكرم ابنتنا وزاد احترامه لها ، لأنه رجل لا يضيع معه المعروف..
والله لقد أحببت محمدا بحق وكأنه واحد منكم ، هذا ما لا تفهمه الفتيات ، من حكمة الله إذ جعل موافقة ولي الأمر شرطا من شروط الزواج..

أنا قبل أن أبحث عن عروس لابني علي أن أراها وأتقبلها وأحبها ، وأرى أهلها وأحبهم ، ليتحقق مفهوم السكينة والطمأنينة في الزواج..
لأن ابني لو جار عليها ، سأنصفها أنا منه ولن أرضى لها ظلما ، يجب أن تكون ابنة لي ، قبل أن تصبح زوجته..
وكذلك الصهر ، فإن لم يكن ثمة ألفة وتوافق بين العائلتين ، وشعور مودة بين الصهر وعمه إذ يحترم الصهر عمه ويراه والده ويرى الرجل صهره ابنه ، لن تعيش الفتاة براحة وسكينة بل سرعان ما ستصبح بوسط إعصار ما بين زوجها وعائلتها..
لذلك أنا أصاحب جميع الناس والأجناس والطوائف ، أرافقهم وأناقشهم وأحاورهم..
لكني لا أناسب إلا بشروط دقيقة جدا..
لأن الأمر يستحق التمحيص والتفحص والسؤال ألف مرة ، لأن الله سيحاسبنا على تلك الحياة التي نمنحها لأبنائنا وبناتنا..
بدلت سارة ملابسها واستحمت لتنام ، لكنها كانت قلقة جدا بخصوص مصففة الشعر ، رأت صورها وأخذت تبكي بصوت خافت قالت لها أختها: ما بك!
فأخبرتها أنها لا تريد الذهاب لتلك المعتوهة مرة أخرى ، وأنها تخشى أن تكون غدا بعد كل هذه التكاليف والتعب قبيحة كما كانت اليوم ، حاولت أختها تهدئتها ، لكن عبثا..
جاءت الخالة وناقشتها ، لكنها كانت حزينة جدا ، وقالت إنها إن لم يعجبها ما ستفعله ، ستغسل وجهها وتذهب للحفل دون أن تضع شيئا واحدا على وجهها..
ذهبت الخالة وأخبرت زوجها بما حدث ، فناداها العم..
أخذت سارة تقفز لأختها ، لتذهب هي بدلا منها ، كي لا يراها وعينيها قد تحولتا للون الأحمر..
ذهبت أختها وعادت لها تقول: يريدك أنت..
أخذت تلوح بكفيها أمام عينيها ليصلهما الهواء ، وتهدأان قليلا..
ثم خرجت للعم ، وقد بدا عليها أثر البكاء..
وقفت خلف الصور وقالت: نعم
لم ينظر إليها ، فقط قال لها وهو ينظر للتلفاز: تعالي..
أصبحت أمامه وكادت تجلس على الأريكة فقال لها: تعالي ، تعالي ، وربت على وركه ، لتجلس عليه..
جلست وقالت: نعم ؟

وقد هاج صدرها فبكت بحرارة على كتفه..
أخذ يمسح على شعرها ويمازحها ، حتى قال لها: أنا سأسرح لك شعرك غدا..
سأجعلك أجمل من أمك..
ضحكت سارة وعرفت أن والدتها قد أخبرته بالأمر ، فرفعت رأسها عن كتفه وهي تمسح دموعها قائلة: شكلي كان كالوحوش ، والتسريحة لم تكن جميلة أبدا..
قال لها وهو يضحك: أنت "قمرهن" فكيف لا تكونين جميلة..
والله لو خرجت هكذا وشعرك مبلل ، لكنت أجمل الأميرات..
على العموم ، سأل موجها كلامه للخالة: هل تعرفون مصففة جيدة غيرها ؟
قالت الخالة: لقد حجزنا عندها ودفعنا مبلغا وقدره!
قال: تعرفين مصففة غيرها!
قالت: نعرف واحدة ، لكنها تطلب المبلغ الذي أخذته هذه على الليلتين لليلة الواحدة..
وهذه لن تقبل بإلغاء الحجز أبدا..
قال العم: ولا نريد أن نصلها أصلا..
غدا سأصحبكما منذ الصباح للمصففة الأخرى واحجزي لك ولها على حسابي ، ولا تخبروا محمدا بشيء..
ضمته سارة بحرارة وقالت: لا حرمني الله منك..
قال مبتسما: كم سارة لدي أنا..
هيا صغيرتي ، اذهبي ولا تفكري بشيء أريدك أن تكوني كما الأميرات..
وقفت سارة والدموع بعينيها: سلمت عليه وقبلت يده ورأسه كما تفعل كل ليلة ، لكن بشعور أعظم بكثير ، ثم سلمت على والدتها ودخلت لغرفتها ، وضمت أختها بشدة وقالت: والله إن هذا الرجل لقبس من الجنة ، لو شكرنا الله عليه وحده ليلا مع نهار ، لما أوفيناه جزءا من نعمته علينا به..
ثم ارتدت طقم الصلاة وصلت شكرا لله ، ولم ترفع رأسها من السجدة قبل أن تتم أكثر من عشر دقائق وهي تشكره وتبكي..
حتى أن أختها نامت وهي تنتظرها ، لتتحدث معها قليلا بآخر ليلة لها بالبيت..
***

-24-

ويحدث أن تتحول المشقة كلها بلحظة ، لمجرد كلمات ، مجرد شيء للذكرى ، مجرد ابتسامة وضحكة عابرة..

أن يتحول تعب عام كامل من الدراسة لمجرد نصيحة تستديها لمن يأتون بعدك ، أن يتحول السهر والتعب والهالات السوداء والبكاء بلحظة ما ، لمجرد منظومة من الكلمات المختصرة التي لا يتجاوز وقت ذكرها الدقيقة الواحدة ، حين تصبح الشهادة والعلامات المرضية بيدك ، فتنسى كل شيء وكأنه لم يكن ، مستمتعا بلذة الوصول بعيدا عن أي شيء آخر..

تماما كما ينسى القلب كل لوعة الاشتياق وألم الفراق حين يعود للقاء ملوعه ، غارقا بسعادة ولذة الوصول بلحظة ليصبح غير آبه بكل ما حدث له من قبل..

وهذا تماما ما كان يحدث لمحمد في هذه اللحظة ، السعادة جلية على وجهه ، تملأ قلبه وجوراحه ، والحب في قلبه قد وصل ذروته ، لم يصدق محمد أنه بعد ساعات سيكون معها وستعود معه لبيتهما ليكونا وحدهما ، أنه لن يخجل من الإمساك بيدها من ضمها ، وبأنها لن تحتاط منه وتبعده عنها..

سيراها بلا حجاب ، ولن يبعد عينه عنها خجلا..

ستكون زوجته على سنة الله ورسوله ، ولن يفرق بينهما شيء..

اتصل محمد على عمه قبل موعد الحفل بساعة ليعرف مكان سارة ، ويأخذها بسيارته التي كان قد استأجرها وأوصى عليها لتزيينها وإعدادها ليأخذ بها عروسته..

قال له العم عن المكان ، وأخبره أن لا داعي لذهابه سيحضرها هو للصالة ، ويعودان سويا..

لكن محمدا أصر على عمه مستحلفا إياه أن يدعه هذه المرة يأخذها هو بنفسه ، مؤكدا أن الخالة ستكون معهما ، ثم قال وهو يضحك: الآن هي زوجتي يا عم بالله عليك!

ضحك العم وقال: وإن كانت..

ثم قال: حسنا لتذهب إليهن وتأخذهن ، لا تتأخروا عن الموعد..

انطلق محمد ، ووصل باب الصالون قبل موعد الصالة بساعة تقريبا ، اتصل بسارة فلم ترد فحدث الخالة وأخبرها أنه بانتظارهم ، فقالت الخالة أن سارة جاهزة ، لكنها ستحتاج عشر دقائق لتجهز..

كان الوقت بعد صلاة العصر ، وطبعا وفقا للتوقيت الشتوي لا بد من أن تكون الحفلة بوقت مبكر..

قال محمد للخالة: أيمكنها أن تنزل لي الآن ؟
قالت الخالة: لا يمكنها أن تنزل وحدها وأنا بين يدي المصففة..
فقال: سأصعد لها ، أريد أن نصلي العصر سويا ، قبل أن نذهب للحفل..
فقالت: والله لقد جمعناه جمعا تقديميا وصلينا الظهر والعصر سويا كي لا تفوتنا الصلاة..
اذهب أنت ثم عد ، سنكون قد أنهينا كل شيء بإذن الله..
ذهب محمد لأقرب مسجد وصلى ، حتى إذا ما سجد خر قلبه لله شاكرا والمشاعر قد اختلطت بداخله بين سعادة وفرح بالوصول ، وبين بكاء لله على جزيل فضله إذ أتم عليه نعمته وأجزل عليه بالخير الكثير..
كان المطر غزيرا جدا ، وسارة تقف على باب الصالون بيد أمها لا تعرفان كيف ستنزلان دون أن تبتلا ، أخرج محمد مظلة كان قد وضعها معه احتياطا كي لا يبتل إن أمطرت ، وطلب من الخالة أن تظل مكانها حتى يوصل سارة للسيارة ، أمسكت سارة يده وهي خائفة على بدلتها من أن تبتل ، وهو ممسك بالمظلة ، فرفع محمد بدلتها ، وقام بشبه حملها حتى أصبحت بداخل السيارة لتمر من أسفل المطر بسرعة ، ثم أمسك المظلة للخالة حتى جلست بالمقعد الخلفي..
ثم دخل محمد وقد خرب المطر تسريحة شعره ، أما البدلة ، فكان قد ارتدى معطفا آخرا تاركا معطف البدلة في السيارة..
جلس محمد وأزاح المرآة عليه ليسرح شعره مجددا
قالت الخالة: المطر غزير ما شاء الله..
فقال محمد: أنا سعيد بهذا الغيث ، أظنه بشارة خير لنا..
أما سارة فلم تقل شيئا ، فقط كانت تبتسم
ومحمد ينظر لها بطرف عينه ، خجلا من خالته بالخلف..
استعجل حتى وصل الصالة ، وبعد معاناة أدخل العروس ووالدتها بسلام
حينها خلع معطفه وارتدى البدلة ثم ذهب لغرفة التصوير التي كانت سارة قد سبقته إليها وخلعت الغطاء عن رأسها..
لم تكن غرفة التصوير هذه تشبه الغرفة السابقة ، ولم تكن سارة تشبه سارة بأية حالة سبقت..
طرق محمد الباب فوجد سارة تقف على المرآة ، شعرها مرفوع فوق رأسها مشكول بتاج كتاج الملكات ، وفستان أبيض له شاحط من الخلف ، ترتدي على أكتافها

شيئا كالمعطف لكنه قصير فقط يغطي اليدين ، ذو كم واسع ومشكول بالخرز بطريقة جذابة جدا..
تعلقت عينا محمد بسارة ، وكأن كل ما حوله ظلام ولا يرى سواها هي فقط ، كانت تمد يديها أسفل شعرها تحاول تعديل الطرحة..
بقي محمد متمسمرا بمكانه حتى التفتت إليه وأشارت له وهي تقول ساعدني..
اقترب محمد مسرعا فقالت له: أغرس هذا المشبك بشعري ، لا يمكنني أن أتحرك جيدا بهذا الفستان..
ضحك محمد وفعل ذلك ثم قال: هاااقد فعلت..
فقالت وهي تبتسم: شكرا..
نظر محمد لها نظرات غريبة ، وضحك
فقالت وهي تتهرب منه بالنظر إلى المرآة: ماذا!
قال: في الخطوبة كنت باذخة الجمال كالطاووس واليوم باذخة الرقة والأنوثة كالإوزة..
ضحكت سارة ، فدخلت المصورة..
ألقت التحية ثم باركت لهما ، وهي تجهز الإضاءة والكاميرا كانت تستفسر عن مدة الخطوبة وأعمارهما ، فحين أخبروها أنهم خاطبون منذ ستة أشهر ، قالت: جميل ، يعني أنكما لن تتعباني بالتصوير..
سألت سارة عن السبب فقالت: يعني لستما غريبين على بعضكما البعض..
نظر محمد وسارة لبعضهما البعض وابتسما
فأمسك محمد ربطة عنقه وقال بصوت منخفض: احمم..
بدأت جلسة التصوير ، وكانت سارة قد عزمت ألا تبدي خجلا كبيرا كما المرة السابقة ، محاولة إقناع نفسها أنها زوجته الآن فلا بأس..
كانت الصور كلها تسير على ما يرام سوى ما يتعلق بالنظرات ، فنظرات محمد اليوم كانت تختلف كثيرا عن أي يوم سبقه ، فما أن تنظر له حتى يحمر وجهها وتبتسم بلعثمة أو تضع يدها على وجهها ، فكانت معظم الصور عفوية جدا ، وسارة في قمة خجلها وارتباكها..
طلبت منه أن يقبلها على جبينها ففعل ، وعلى خدها كذلك ، في حين أن سارة كان جسدها يقشعر خجلا كلما اقترب ، ثم طلبت منها أن تقبله على خده ، فابتسم محمد ظنا منه أنها لن تفعل ذلك ، مترقبا بكل شوق أن تفعل..

نظرت له سارة ووجهها يتقد وحرارتها قد بلغت الأربعين ، لكنها اقتربت منه وقبلته على خده بالفعل..
فلما أنهت المصورة الصورة ، كانت سارة ترتجف بالكامل بينما محمد كاد أن يقع مغشيا عليه..
قال محمد للمصورة: الصورة لم تكن جيدة ، عليك أن تكرريها..
نظرت سارة إليه بذهول وهي تضع يدها على خدها لتخفض حرارته ، فصورتهما المصورة ، لقد كانت الصور العفوية لهما أجمل من كل الصور المفتعلة ، حتى أن المصورة عقبت بآخر الجلسة: لم تكن صورا لكما ، بل صورا لخجلكما..
بالفعل حماكما الله ، أجمل عريسين والله
بدأت أغنية ماجدة الرومي:
"طلي بالأبيض طلي يا زهرة نيسان
طلي يا حلوة و هلي بهالوج الريان"
فتح باب غرفة التصوير ويد سارة معلقة بيد محمد والأخرى تمسك بها الفستان..
ولما قالت الأغنية :
"واميرك ماسك ايديكي و قلوب الكل حواليكي
و الحب بيشتي عليكي ورد وبيلسان"
نظر محمد لسارة وليدها ثم ضحك..
فقالت سارة له : محمد بربك لا توترني بنظراتك يكفيني ما أنا فيه الآن..
ثم أكملا السير على أنغام الأغنية بابتسامتهما والكل يحيطهما بالنظر:
قلبي بيدعيلك يا بنتي بهالليلة الشعلاني
يا اميرة قلبي انتي سلمنا الامانة
ما تنسي أهلك ياصغيرة
بعينينا ما صرتي كبيرة
ضلي معنا و طيري وطيري ع جناح الامان
شعي متل هالطرحة يا أغلى البنات
صلي تعيشو بهالفرحة لباقي الحياة
و ربي من السما يباركن
كيف ما توجهت يرافقكن
بايام الصعبة ينصركن
ع كل الاحزان

قلك نعم من قلبه و فرح كل الناس
رديها ع قلبو حب و شعلاني احساس
ومنقلك مع السلامة
روحي تحميكي الكرامة
تبقى محابسكم علامة
للحب و الحنان

قبل أن تنتهي الأغنية ، صرت سارة على يد محمد وقالت بصوت مسموع له: اووه ما هذا الشعور..
ضحك محمد وقال: والله لم أجرب يوما شعورا بهذه الغرابة بحق..
فقالت: سأبكي..
نظر إليها وقال وهو يضحك: أجليها الآن..
بدأت أغنية رقصة العروسين الخاصة ، أطفئت أضواء الصالة كلها ، وظل الضوء مركزا عليهما ، وضباب يملأ الساحة كأنهما يرقصان بين الغيوم..
كانت الأغنية من اختيار محمد ، لم يقولا شيئا أثناء الرقصة إذ قال محمد لسارة:
دعي الكلمات تراقص قلبك ، كل حرف فيها لك
وأخذ يغني معها بصوته لسارة :

يا حبيبي من حبي فيك
لا هتكلم ولا غنيلك
من اليوم ده هحبك حب جديد يخليني حبيبي أدعيلك
يا حبيبي من حبي فيك..
لا هتكلم ولا غنيلك
من اليوم ده هحبك حب جديد يخليني حبيبي أدعيلك
الله يباركلي فيك يا أغلى من عينيا
الله يخليني ليك و اجيبلك الدنيا ديا
الله الله حبيبي
الله الله
يحميك حبيبي يا عمري يا غالي
ويخليك ليا

انا هو قدامك وبين اديك..
انا كلي علشانك وملك ليك..
انا هو قدامك وبين اديك..
انا كلي علشانك وملك ليك..
سألت قلبي
بيحبك قد إيه ؟
وقاللي قلبي ده حب جديد عليه
سألت قلبي
بيحبك قد إيه ؟
وقاللي قلبي ده حب جديد عليه

ثم رفعها من خاصرتها نحوه ودار بها بسرعة.. حين قالت الأغنية

" الله يباركلي فيك يا أغلى من عينيا
الله يخليني ليك و اجيبلك الدنيا ديا
الله الله حبيبي الله الله يحميك حبيبي
يا عمري يا غالي ويخليك ليا"

فعلقت يديها حول رقبته.. بينما علا الصراخ والتصفيق من حولهما..
ثم أنزلها بهدوء ولا تزال كلمات الأغنية تغني ، لكنها لم تتمكن من إتمام الرقصة سريعا ، فقد شعرت بالدوار وظلت ممسكة بيده وهي تنظر للأرض حتى تتزن..
فانتهت الأغنية وعادت الأضواء ليرقصا رقصة عادية ، وبالرغم من أنها كانت خجلة جدا ، لكنها لم تتمكن من الانسحاب لأن أخوات محمد ووالدته ووالدة سارة علو منصة الرقص وأخذوا يرقصن معهما..
أما محمد فكان يصفق لسارة ويضحك وهي غير قادرة على رفع أهدابها والنظر إليه ، فإن كادت أن تنظر له احمر وجهها وهربت بعينها منه نحوهم..

سارت الحفلة ، وانكسر حاجز الخجل قليلا فعادت سارة للضحك والمزاح مع محمد وقد لكمته بيدها لأنه لم يخبرها أنه سيفعل ذلك ، حين استراحا على المقعد..

جاءت العربة التي تحمل كعكة الاحتفال العظيمة التي يجب أن يقطعها العريسان مع أنغام أغنية:
يا حبيبي شوف
بقى عندي كم سنة..
معاك كل لما بكبر بحس إني بصغر سنة..
والعمر مهما يعدي
ويبان علي التعب..
حفضل أتعب عشان ترتاح..
يا عمري أنا..
والأيام معاك بقى ليها شكل وطعم تاني..

رقصا قليلا محمد يمد أحد ذراعيه ويصفق ويضحك على سارة التي كانت ترقص بالسيف ، ثم أمسكت سارة السيف ويد محمد فوقها وقطعا الكعكة ، فأحضروا لهما لقمتين ليطعم كل واحد منهما الآخر ، وكأسين ليشرب كل واحد منهما الآخر وأخيرا اللقمة المشتركة التي يأكل منها الاثنان ، فرفضت سارة كما رفضت في المرة السابقة..
فقال محمد رافعا صوته وهو يضحك: لا والله سنأكلها هذه المرة..
فقربت سارة فمها من القطعة ولكنها لم تستطع أن تأكل..
ضحك الجميع عليهما ، ثم شربا من الكأس ذاتها..
وبعد ذلك أحضروا الدبل وتلبيسة العروس على أنغام أغنية فيروز "أنا لحبيبي وحبيبي إلي" بطبق أبيض زجاجي كبير ، على رأسه إوزتان تحملان دبلتيهما..
اقتربت والدته منه ووالدتها منها ، وساعدوه بتلبيس العروس ذهبها..
وأكملت الحفلة سيرها ، بين رقص وتصوير..
وفجأة دون سابق تخطيط لا من سارة ولا علم لمحمد ، قالت سارة لمنظمة الحفل دون أن يسمعها محمد: أأجد لديكم مكبرا للصوت!
قالت المنسقة: أظن ذلك..
لحظات وسأرى لك ذلك ، لم!
قالت سارة: أريد أن أغني أغنية بلا موسيقى..
بعد قليل عادت وبيدها مكبر الصوت ، وقالت منسقة الأغاني: دعونا نسمع أغنية بصوت العروس لعريسها..

ارتبكت سارة بعض الشيء، فهذه المرة الأولى التي تغني أمام جمع كهذا من الناس، لكنها فعلت ذلك لأنها كانت تقول حين كانت صغيرة أنا لو تزوجت سأغني كل الأغاني بصوتي..

كما أنها أرادت أن تفاجئ محمدا كما فاجأها بالخطوبة بإلقاء القصيدة..

وقفت سارة أمام محمد ولحنت بداية ألحانا هادئة ثم غنت مقطعا من أغنية أم كلثوم أمل حياتي :

وانت معايا يصعب علي
رمشة عينيه
ولا حتى ثانيه..
يصعب علي
ليغيب جمالك..
ليغيب جمالك ويغيب دلالك..
دلالك ولو شويه..
قد كده
بشتاق إليك..
قد كده ملهوف عليك..
نفسي أندهلك
ب "كلمة"
ب "كلمة"
ماتقالتش لحد تاني
كلمة قد هواك ده كله
كلمة قد هواك ده كله
قد أشواقي وحنانى
كلمة زيك..
كلمة زيك..
واللي زيك فين ؟
دا أنت زيك ما اتخلقش اتنين..

تقرفصت الكلمات بحلق محمد ، وازدان وجهه حبا بين عبق الخجل ، ولون الزهر الذي تفتح بوجنتيه السمراوين ، ابتسامة تقول كل القصائد بلحظة ، ونظرات عينه التي لم ترف أبدا حتى أنهت الأغنية فوقف مصفقا لها ، ولولا خجله لحملها ودار بها ، أو لربما قبلها..
لكنه لم يستطع فعل شيء سوى معاودة الجلوس أمام الحضور ، فعادت سارة وجلست بجواره وهي تضع يدها على وجهها لكثرة حرارة وجهها وخجلها..
كان محمد ينظر لها ، وكل شيء فيه يبتسم لها ، التفتت له وهي تضحك وقالت وهي تصر على أسنانها بمرح: كيف كان صوتي !
ظل ينظر إليها ويضحك ، دون أن يجيبها..
فقالت وهي تشد كم قميصه: قل!
قرب أذنه منها مدعيا أنه لم يسمعها فقالت: كيف كاان صوتي!
فقال لها: أجمل مرة أسمع فيها صوتك بحق
قالت: بحق!
قال: أنت اليوم أجمل بكل المقاييس..
قالت: احم احمم
فضحك وقلدها..
حان وقت دخول أهل العروس من الرجال ، فانصرفت النساء من عائلة محمد أخواته ووالدته لحمامات النساء لارتداء ملابسهم الشرعية ، وكذلك الخالة أم سارة
كان على رأس الرجال عمها الكبير ، ثم ترتب الأعمام خلفه واحدا تلو الآخر حتى انتهوا السبعة ، فكان العم والد محمد ووالد سارة وأخوانها الثلاثة ، أما أختها وأمها فكانتا تقفان بجوارها..
حين اقترب دور العم والد سارة ، قالت منسقة الصوت هذه الأغنية من والد العروس وإخوانها للعروس..
فكانت الأغنية التي يغنيها دوما العم لابنته:
هلا يا واسطن البيت
والأشراف عمدانه
هلا يا عين أبوها وضو ديوانه..
لم تكن تنوي سارة البكاء أبدا ، ولطالما كانت تستسخف هذه الدموع ، فهي بالنهاية لن تسافر ، ولن تغادر العائلة ، وستزورها كل يوم كما كانت ولن تغيب عنهم أبدا..

سلم العم على محمد وابتسم له وربت على كتفه ، فقبل محمد يد عمه لأول مرة ، ومن ثم ضمه العم بشدة وكأنه يريد أن يوصيه على ابنته ونور عينه..
ثم قال له: بربك دارها من الهواء كما كنت أفعل ، لقد منحتك نصف القلب والله..
قال محمد: أو تشك بذلك يا عم! ابنتك في بؤبؤ عيني..
ولما وصل لسارة ألبسها إسوارة من ليرات الذهب وخاتم فقبلت سارة يده وخديه ثم رأسه ، فأمسك وجهها وقبل رأسها..
اقتحمت حرارة أنفاس العم حينها ولعثمة الهواء بصدره وجهها فتجمرت عينيها سريعا وضمته بكل قوتها وأخذت تبكي بشدة ، أما العم فقد كانت المرة الأولى منذ أن عرفته الخالة للآن التي تتجمع فيها الدموع بعينه ، فقد كانت عينه عصية جدا لا تدمع ، ورغم كل ذلك لم تسقط الدموع ، بل ظلت مجرد التماعة بعينه ، وقد ارتسمت ابتسامة على وجهه تلخص كل معاني الأبوة ، فهدأها قائلا: سامحيني بنيتي لو قصرت فيك يوما..
أتمنى أن أكون قد أحسنت لك باختيار محمد زوجا..
مسح دموعها والعائلة كلها قد انفجرت بكاء أختها وأمها وأخيها الصغير ، أما إخوانها الكبار فقد تجمرت عيونهم ، واختلف لونهم ليصبح ورديا كمن كان يبكي ، لكنهم لم يفعلوا ، أما محمد فقد نزلت دمعة من عينه ومحاها بيده سريعا ، كي لا يلاحظه أحد..
نظر العم لمحمد ، فقال لها: على فكرة ، محمدك هذا يحبك كثيرا ضعيه بعينيك ولا تجنيه كما تفعلين بأبيك وعائلتك..
ضحكت سارة والعم ومحمد ، ثم وقف بجانبها وبدأ بضم زوجته وابنته الثانية ، فقال لأختها وهو يمسح دموعها: قلت لمحمد قد أخذت نصف قلبي ، أو تبقين نصفه الآخر يبكي!
فضحكت أختها وقالت الخالة معترضة: هنيئاا..
فقال واضعا إياها تحت ذراعه: ولو! أنت الروح بحد ذاتها..
قبل إخوانها يدها وألبسوها الثلاثة خواتم من ذهب ، أما الصغير فكان قد أعطاه إياه العم ، ليشعر برجولته كما إخوته..
ثم أخذوا صورة تذكارية مع العائلة كلها..
وبعد ذلك خرج الرجال ولم يظل سوى العم وإخوانها ، فارتدت سارة حجابها وغطت نفسها لتدخل عائلة العريس ، ولم يسمح العم سوى لإخوانه وأعمامه

بالدخول ، أما أولاد عمه وغيرهم فمنعهم من الدخول ، وأخذوا صورة أخرى معهم..
وأخرجهم محمد بعد ذلك دون أن يرقصوا معه داخل الصالة بناء على اتفاقه مع عمه..
بعد دقائق خرج الجميع من الصالة ، كان الجو ماطرا وباردا جدا ، فأحضر محمد معطفه وألبسه لسارة ، ثم أنزلها أسفل المظلة حتى ركبت بالسيارة..
ثم أعاد المظلة لخالته وأخت سارة حتى تنزلا وتصلا لحافلة العم ، وبعد ذلك ركب الجميع ليوصلوهم حتى يدخلوا بيتهم ويودعوهم..
كانت الحفلة من السادسة مساء وحتى الثامنة..
ركب محمد سيارته بجوار سارة ، وقد ذكر اسم الله ، ثم نظر للمقعد الخلفي وكأنه يبحث عن شيء ما
قالت سارة: عم تبحث !
ضحك وقال: لا أبحث ، لكني لا أصدق أننا وأخيرا وحدنا ، انظري بربك انظري..
ضحكت سارة وقالت: مجنوون..
زمر له العم ليتحرك أمامهم..
فضحك محمد ورفع يديه مستسلما: سأتحرك والله..
وضحكت سارة أكثر على محمد..
سألت سارة محمد عن البيت وهل أنهوه أم لا ، فأخبرها بكل ما حدث معه بالأسبوع الأخير وكيف كان يقضي اليوم بأكمله ، دون أن يفعل شيئا سوى صلاة وتنظيف ، ثم أخبرها بما حدث حين ساعده إخوتها ليلة أمس..
ثم قال لها: أحلى ما بالأمر أن أخواي ناما ليلة أمس ببيتي ، وأصرا أن يتفرجا على البيت ، انبهروا بذوقك وأعجبتهم غرفة الضيوف تحديدا ، لكنهم جعلوا مني مهزأة حين رأوا غرفة النوم المنفصلة خاصتك ، وكل لحظة يستحلفوني لمن هذه الغرفة ، أهي لي حين تطرديني من غرفتنا ، أم لك لتتهربي مني ، أم لضرة سأحضرها للبيت
فضحكت سارة عليهم وقالت: ستعتاد على الإحراج بسببي فدعك من ذلك ، أنا أفكاري غريبة..
فقال محمد: الله يستر..
قالت سارة: وهل ناموا عليه ؟
فقال: أغلقت الباب بالمفتاح وأخذته بجيبي قبل أن أنام ، ناما على الأريكتين بغرفة الجلوس..

وصلوا باب البيت ، فنزلت الخالة والعم فقط أنزلاهما وحين أرادا أن يدخلا بيتهما قال العم لهما: اذكرا اسم الله ولتدخلا بقدمكم اليمنى..
ولما دخلا وضعت الخالة الطعام بالمطبخ وقالت لهما أحضرنا هذا الطعام لتأكلاه الآن لابد أنكما جائعان..
وباركا لهما مرة أخرى ثم قال العم: لقد كتبت في هذين المكتوبين وصيتين إحداها لك والأخرى لك ، اقرآها حين يكون لديكما وقت فتأملاها جيدا وحاولا أن تتعلما مما فيها وتطبقاه في حياتكما ليباركها الله ويديم عليكما هذه النعمة
بارك الله لكما وبارك عليكما وجمعكما على كل خير..
فضم محمد عمه وقال: لا حرمنا الله منك يا عمي..
ثم قبل يد خالته وقال: أنت بركتنا..
ودعاهما وغادرا
فخلعت سارة حذائها وحجابها ودخلت لغرفة الجلوس ، قال محمد هل أحضر الطعام ، لا بد أنك جائعة..
دخل ليحضر الأكياس ، فلما عاد وجد سارة قد فتحت الظرف ، وبدأت تقرأ بوصية والدها..
اقترب محمد منها قال لها: سارة ، لن نقرأها الآن ، سنأكل ونصلي ، ثم نخرج لمكان ما ونقرأ هذه الوصايا هناك..
نظرت سارة لمحمد وقالت: أريد أن أذهب لمكان مرتفع جدا ، أشعر أني أريد البكاء..
قال محمد وهو يبتسم: سآخذك إلى حيث تشائين ، الوقت مبكر وأنا أرغب بالمشي معك ، والتحدث معك تحت المطر ، أعلم كم تعشقين المطر ، لذلك سيكون أول يوم لي معك تحت المطر..
فرحت سارة بذلك جدا ، وقالت: أنا أحبك جدا محمد
فقال: مرة واحدة..
احمم ، لو كررتها مرة أخرى سأحملك كما أنت للخارج بلا أن تبدلي ملابسك حتى..
فضحكت سارة عليه وقالت له: أنا لن أتمكن من الأكل وأنا بهذا الشيء ، سأبدله وأعود لنأكل ونصلي..
قال محمد: سأنتظرك..

كان محمد يعرف أنها لن تتمكن من ارتداء ملابس عادية أمامه حتى تعتاد عليه وهي كاشفة الحجاب عنها ، ففستانها كان بالأساس مكشوفا لكنها ارتدت سترتها طوال الحفل خجلا منه ، ورغم ذلك قال لها: أأساعدك بشيء !
قالت له بحزم: لا شكرا..
وأغلقت على نفسها باب الغرفة..
وحين خرجت بعد نصف ساعة تقريبا كانت قد استحمت وارتدت حجابها وجلبابها ، ثم وضعت معطفها الأسود جانبا ، فقال لها محمد: نعيما حبيبتي..
فقالت سارة: أنعم الله عليك..
جلست بجواره وقالت: محمد كنت سأطلب منك أمرا..
قال لها: ها عزيزتي تفضلي..
قالت: أعرف أني محللة عليك الآن ، وأنني شرعا وعرفا أصبحت زوجتك ، لكن..
فقاطعها محمد: لكنك لن تتمكني من التكشف أمامي..
نظرت سارة له باستنكار ، فقال: أشعر بك قبل أن تنطقي ، لا يمكن أن يحرج أمر سارة بهذا الشكل إلا هذا..
وأنا لن أطلب منك ذلك..
سارة..
عليك أن توقني أني أحبك أسمى بكثيير من أن يكون حبا لجسد
أنا متورط بضحكتك ، بغمازتك الخفيفة هاته التي تظهر حين تكونين سعيدة بحق ، بنظرات عيونك ، بتفكيرك ببراءتك وطفولتك وحتى بأفكارك المجنونة..
لكن لدي شرط واحد
قالت سارة بابتسامة وعينيها تتلألآن: ما هو !
قال: أن لا يزيد ذلك عن الثلاثة أشهر ، سنعتبرها فترة تعويض عن فترة خطوبتنا لنخرج سويا ونسافر ونتشارك السهر والحديث واللعب وكل جنوننا ، ثم سنقيم حفلة أخرى سرية بيننا ونتزوج.. اتفقنا ؟
قالت سارة: إن شاء الله
قال محمد : هاا !
قالت وهي تضحك: إن شاء الله يعني إن أحيانا لذاك الوقت..
فقال محمد وهو يفتح أكياس الطعام إن شاء الله..
***

-25-

لم يكن الأمر سهلا على سارة ، خصوصا أنها لهذه اللحظة كانت ترتدي الحجاب عليه ، ولم تنكشف قبل ذلك على أحد من الرجال سوى إخوتها..

ولأن محمد كان يستوعب عمرها وخجلها وأفكار سارة الغريبة تحديدا ، لم يمانع بذلك أبدا وتمكن من تفهمها ، بل وكان ذلك فرصة ليستوعب محمد أن سارة قد أصبحت بحق زوجته ، وأنها ستكون له ومعه طوال الوقت..

خرج محمد إلى السيارة قبل سارة ونزع كل الورد عن السيارة ثم أنزلهم للبيت ، بعد أن بدل محمد ملابسه وصلى إماما بسارة فجمعا بين صلاتي المغرب والعشاء..

وضع الورد جانبا ، ونزل أمسك يدها وأقفل باب البيت ثم خرجا بسرعة من البناية نحو السيارة..

كان محمد مسرعا ، فوقفت سارة وقالت: تبارك الرحمن..

فجرها محمد وهو يقول: ليس هنا ، الآن دعينا نركب السيارة ، وحين نصل للمدينة الرياضية افعلي ما تشائين..

فركبت سارة السيارة بجوار محمد ، وكلاهما يرتدي ملابس سوداء..

قال محمد وهو يضع الكيس البلاستيكي جانبا: أهم شيء هذه الوصايا..

قالت سارة بشغف وهي تنظر من النافذة :

محممد. .

لا أصدق أنك ستخرجني بأول يوم لي معك للمطر..

قال محمد وقد أمسك يدها:

إني أغار من حبك للمطر..

لذلك أريدك أن تعديني به ، لقد أودعت عقلي بالبيت وخرجت معك اليوم لأحتفل مع المطر بك..

وصل محمد المدينة الرياضية ، وبالغالب لا أحد يزورها بهذا الوقت ، وخصوصا بأوضاع جوية كهاته ، كانت سارة بقمة سعادتها وكأن حبات المطر تراقص قلبها منتشية بصوتها وهي ترتطم بزجاج السيارة ، وكأنها تريد أن تتجاوزها وصولا لسارة ، واحتفاء بها..

نزل محمد وسارة ، قال محمد لسارة: لن نأخذ هذه الوصايا معنا ، فالمطر لن يبقي شيئا..

قالت سارة: نعم نعم ، واخلع ساعتك ودبلتك ، وأنا كذلك

لا نريد أن يعيقنا شيء عن مراقصة المطر..

قال محمد باستغراب: كأنك ترغبين بالغوص ، لا السير تحت المطر..
قالت سارة وهي تضحك: هيا ، لا تسأل كثيرا وتعال معي..
فتحت باب السيارة ونزلت ، بدأ الأمر كالغباش أمام ناظرها ، أغمضت عينيها ، ثم نظرت لمحمد وضحكت وقال وهي تشير له بيدها لينزل: هيا تعال..
تركت سارة هاتفها داخل السيارة ، فضحك محمد لما هم بالنزول وهو بيده ، وضعهما بالكيس خلف الكرسي وسحب المظلة بيده ونزل..
اقترب منها وهو يضحك: اووه ترنخت..
فقالت سارة وهي تضحك بصوت مرتفع ليسمعها: دعك من هذه ، من يعشق المطر بجنون عليه أن يدعه يتغلغل في مساماته لا بملابسه فقط..
قال محمد: لا لا ، دعيني هكذا قليلا ، سأتفرج عليك..
أنا أحب الركض أسفل المطر ، لا يمكنني الوقوف هكذا طويلا..
قالت سارة: حسنا هيا
قال: ماذا!
قالت وهي تسحب المظلة عن رأسه وتغلقها: هات هذه عنك ، واخلع حذاءك..
ضحك محمد وقال والمطر يتسرب في ملابسه ويضرب وجهه: بربك..!
خلعت سارة حذاءها ووضعته أسفل صخرة بمكان شبه جاف وركزت المظلة هناك ، ثم خلعت معطفها الثقيل ورمته بجواره ، فما وجد محمد نفسه إلا ويفعل مثلها ، وبعد ذلك أمسكت بيده وقالت: هيا!! نركض..
ركضا سويا وهما يضحكان بأعلى صوت..
تعبت سارة وتوقفت فجأة وهي تضحك بهستيرية وتقول: اووه تعبت..
فاقترب منها محمد وقال: أتشحنين أنت بالمطر!
ضحكت ووضعت يدها على كتفه وقالت وهي تحاول أخذ نفسها: بصراحة نعم..
ضحك محمد وقال: حين يشتد المطر تسرعين وحين يهدأ تهدئين وحين بات رذاذا توقفت!
قالت سارة وهي تسير نحو مقعد خشبي: اووه ، ما شاء الله عليه ما أسرعك أنت..
جلس بجوارها وقف أمامها تقريبا وقال: أركض ضعف هذه المسافة بخمس مرات وحدي ولا أتعب.. فكيف وأنت معي!
أخذت سارة تسعل بقوة ، فجلس محمد بجوارها ووضع يده على ظهرها وقال بقلق: يحميك الله..
ما كان عليك خلع سترتك هناك ، هذه الملابس خفيفة جدا..

توقفت عن السعال وقالت: لا لا ، فقط أسعل لأن نفسي انقطع ، لم أركض هكذا منذ زمن..
ثم ضحكت وقالت:
وكما قلت المطر يشحنني ، حين يتوقف أبدأ بالشعور بالبرد..
خلع معطفه ووضعه فوقها وقال: ليس ثقيلا ، لكنه سيصد عنك هذا الهواء..
قالت سارة: لا لا ستمرض أنت!
ضحك محمد وقال: يا ريت..
فنظرت اليه باستغراب ، سرح شعره بأصابعه وقال وهو يضحك: أمزح..
لا تقلق علي أنا يحمى جسدي بعد الركض ، لن أمرض بإذن الله..
لفت سارة نفسها بسترته جيدا ، ثم قالت: اممم ماذا سنفعل الآن..
قال محمد: ما تشائين..
نظرت حولها بالشوارع المظلمة وقالت: ليتنا نجد بائع قهوة هنا..
أحب رائحة القهوة وطعمها بهذا الجو..
قال محمد: يوجد بالخارج على الشارع الرئيسي..
أأذهب سريعا ، وأعود لك!
قالت سارة: نعم نعم..
فقال لها: حسنا سأعود سربعا..
هم بالذهاب فسألها: أتريدين شيئا معها!
قالت: إن وجدت شوكولا غامقة أحضر..
فقال: من عيني..
ركض بعيدا عنها قليلا ، فنادته سارة بصوت مرتفع ، توقف وركضت نحوه..
قالت له بارتباك والخوف جلي على ملامحها: غيرت رأيي سأسير معك ، لن أظل وحدي هنا..
ابتسم وقال لها بشقاوة: امم ، تخافين..
قالت بسرعة: لا..ن.. نعم قليلا ، ثم نظرت للمكان وقالت: انظر.. لو كنت وحدك ستخاف..
ضحك ووضع يده على كتفها وهو يسير بجوارها وقال مهدئا من روعها: صحيح صحيح..
نظرت سارة له وقالت: ما أطولك..

ضحك محمد وقال: والله!، على أساس.. أنت قصير، وأنا حين أرتدي الكعب أصبح طولك..
قالت سارة بعناد: ولا زلت أصر على ذلك..
صمتا قليلا، ثم قالت سارة: ما رأيك أن نلعب لعبة حتى نصل للبوابة..
قال: نعم، ولكن ما هي!
توقفت عن السير وقالت له وقد انسحبت من أسفل ذراعه: أنا أسألك سؤالا، وأنت تعدني أنك ستجيب بصراحة تامة، ثم يأتي دورك لتسألني وأجيب..
ثم أطلب منك طلبا مجنونا وعليك أن تنفذه، وبعدها تطلب مني وأنفذ..
قال محمد: الله جميلة جدا.. فلدي أكوام من الأسئلة لديك، لكن لم أفهم فكرة الطلب هذه..
فقالت سارة: ستفهمها مع اللعب، هي اسمها هكذا، صراحة جراءة..
يعني مرة نتصارح، ومرة نختبر جرأتنا..
فقال محمد: اهاا تبدو مسلية، هيا لتبدئي أنت..
قالت: حسنا..
ثم أخذت تفكر بصوت مسموع: امممم سؤال سؤال سؤال..
ثم قالت بصوت حذر: سأسألك، لكن احلف لي بالله أنك لن تكذب، أو تختصر نصف الإجابة! فنصف الحقيقة كذب أيضا..
قال: والله سأقول الحقيقة كاملة، اسألي..
قالت وهي تنظر على أعمدة الأضوية: للآن، ماذا تكره بسارة!
قال باستنكار: أكره! بسارة!
قالت بشقاوة وهي ترفع حاجبيها: الأمر طبيعي جدا على فكرة، لو سألتني لأخبرتك بالكثير..
فضحك وقال: هكذا إذن..
امم حسنا سأجيب، أكره بسارة ذاك الجانب من قوتها الذي يؤذيها، ويجعلها تقسو على نفسها، كأن ترفضني وتطلب مني الذهاب وهي تريدني أن أبقى معها..
أكره بسارة أنها تشعرني دوما بأني قد أتخلى عنها، وأنها قوية بنفسها لا تحتاج لي بشيء..
أكره صمتك المخيف وتغير مزاجك السريع أحيانا..
وإسقاطاتك من المجتمع علي، بأن الرجال كذا وكذا وكذا، وأنا لا شأن لي بهم كما لا شأن لك ببقية جنسك..

بدأ المطر بالهطول مجددا لكنه مجرد رذاذ بسيط ، فقال: لكني أحبك فيما أكره أكثر مما أحب قيس معشوقته والله
قالت سارة وهي تفتح يديها للمطر: اممم ، دورك..
قال: ذات السؤال..
قالت: أكره التقليد ، عليك أن تفكر بسؤال آخر..
قال: حسنا ، اممم ، ماذا غير وجودي بحياتك ؟
ضحكت سارة ونظرت للأرض أسفل قدمها ، ثم تنهدت
فأتبع: لطالما أخبرتك عما أحدثه حضورك ، وأحب أن أعرف إن أحدث حضوري فرقا أم لا..
سارت سارة بعكس محمد أمامه تقريبا لكن وجهها نحوه ، وقالت:
اممم سؤالك صعب ، لكني سأجيبك بصدق قدر ما أستطيع..
الآن بالنسبة للفرق ، فبالطبع قد أحدثت فرقا هائلا بحياتي ، فرق بكل شيء ، تفكيري وقلبي وتعاملي مع الأشياء.. لكن..
عادت تسير بجواره وأتبعت :
أكثر جانب التمست فيه الفرق ، في مشاعري..
رفعت أكتافها وصمتت قليلا ثم قالت: لم أكن أتخيل أبدا أن قلبي عقيم النبض هذا سينبض لأحد ، سأشتاق وأبكي إن غاب وأطير فرحا إن حضر ، أو أخجل وأرتبك حين يقف أمامي ويقول شيئا..
زادت غزارة المطر فأعطته معطفه وقالت والشعور يملؤها:
لقد أفضت قلبي بالمشاعر..وعشقتها بكل غرابتها وتناقضها..
حتى الشوق لك والخوف عليك والبكاء لأجلك كان أمرا رائعا..
وكأنك ثلجة سماوية رست فوق قلبي وملأته مسكا..
تنهدت وقالت وهي تنظر له: أحب شعور الاطمئنان والسلام الذي يملؤني حين أكون برفقتك.
صمتت قليلا ثم ضربت كفيها ببعضهما ، وقالت وهي تمد ذراعيها لأقصى حد:
و.. نظرت إليه وضحكت بخجل ثم قالت: يكفيك..
قال: أكملي ، أكملي..
لا أصدق أن سارة تقول لي هذا ، ثمة معجزة تحدث..
غيرت سارة الموضوع وقالت: هل تجيد القفز كالحجلة هكذا سريعا
وأخذت تقفز مرة على قدم واحدة وأخرى على اثنتين سريعا بلا توقف..

قال محمد وهو يرفع أحد حاجبيه: تغيرين المواضيع سريعا حين ترغبين بذلك..
ضحكت سارة وقالت له: ها أنت تعرفني جيدا..
ثم توقفت عن القفز ورفعت وجهها للأعلى ، فغطاها المطر وهي تسير ببطء
قال لها محمد: لقد وصلت ، ابقي بجوار أشيائنا حتى أعود ، دقيقة وأرجع..
نفضت المطر عن وجهها وقالت: بسرعة..
انطلق محمد وأخذت سارة تدور ببطء تحت المطر وتغني..
عاد محمد سريعا وأحضر القهوة معه ، لكنه لم يجد الشوكولا التي طلبتها..
قال: دعينا نشرب القهوة أسفل المظلة ونسير معا ، لنعود بعدها للبيت
قالت: بلا مظلة!
قال: نشربها ، ثم نلعب أسفل المطر..
فقالت: اتفقنا..
أخرجت المظلة وأمسكتها ثم تناولت كوب القهوة الكرتوني من يده..
مشت خطوتين ، ثم سحب محمد المظلة منها وأمسكها هو ، قالت له: لم أنت!
قال: ستؤذين عيني ، أنت تظللين كتفي فقط
فقالت بعناد: لا سأمسكها أنا
فقال: أمسكيها!
أمسكتها فأمسك يدها ورفعها على طوله ، نظرت له وقد احمر وجهها ، قال وهو يرفع كتفيه بقلة حيلة: علي أن أكبر عقلي..
ضحكت وسحبت يدها عنها ثم وضعتها على كتفها ، لم ينطقا لوقت لا بأس به ، وكأنهما الاثنين يريدان قول شيء ما ، ولا يمكنهما فعل ذلك..
قالت محمد : سارة..
فنظرت إليه وكأنه قاطع صفنتها ، وقالت: ها!
قال: ما بك ؟
قالت : اممم لا شيء
فقط أشعر بسعادة لا مثيل لها..
هذا اليوم تاريخي بحق..
نظرت له وقالت: أحب المطر جدااا
قال بعقله: وأنا أحبك..
رغم أنها لم تسمعه لكنها ابتسمت بخجل له ، وكأنه قالها..
قالت وقد تغيرت نبرتها: احم لقد أنهيت قهوتي..

واقتربت من كوبه بمرح لتنظر له فقالت: ما زلت لم تنهه!
حسنا أنت ابق أسفل المظلة، وأنا سأدور أسفل المطر، لنعود حين تنهيه للبيت..
توجه محمد ليجلس على الكرسي الخشبي المجاور، ووقفت سارة تحت المطر بهدوء تام، وكأن روحها تتسامى للسماء..
ناداها محمد: سارة..
فتحت عينيها واقتربت منه ثم قالت: نعم
قال لها: غني وأنت تدورين..
ابتسمت سارة له وقالت : سأفعل..
عادت للوراء وبدأت تغني بصوت منخفض أخذ يعلو شيئًا فشيئًا كلما زادت سرعة دورانها:

أعطني الناي وغنِّ.. فالغنا سرّ الخلود
وأنين الناي يبقى.. بعد أن يفنى الوجود
هل تَخَذت الغاب مثلي.. منزلاً دون القصور
فتتبّعت السواقي.. وتسلّقت الصخور
هل تحمّمت بعطر.. وتنشّفت بنور
وشربت الفجر خمراً.. في كؤوس من أثير
أعطني الناي وغنِّ.. فالغنا خير الصلاة
وأنين الناي يبقى.. بعد أن تفنى الحياة
هل جلست العصر مثلي.. بين جفنات العنب
والعناقيد تدلّت.. كثريّات الذهب
هل فرشت العشب ليلاً.. وتلحّفت الفضا
زاهداً في ما سيأتي.. ناسياً ما قد مضى
أعطني الناي وغنِّ.. فالغنا عدل القلوب
وأنين الناي يبقى.. بعد أن تفنى الذنوب
أعطني الناي وغنِّ.. وانْسَ داءً ودواء
إنّما الناس سطور..كُتبت لكن بمااااء

أنهت الأغنية وظلت تدور بصمت وببطء، تفتح ذراعيها وترفع رأسها للمطر، شعر محمد باضطراب بشأنها، فوضع الكوب ووقف بالقرب منها ثم ناداها..

توقفت لكنها شعرت بالدوار ، فأمسكت بذراع محمد وقالت وهي تضع يدها على رأسها:
أعتذر شعرت بدوار.. دعنا نعود للبيت..
كانت تقول ذلك وهي تنظر للأرض ، وبصوتها نبرة بكاء. لم ينطق محمد ، فقط ظل يتأمل ملامحها بصمت ... قالت له: هيا بنا..
قال: عزيزتي ، ما بك!
قالت : لا شيء..
فقال : انظري لي
رفعت نظرها له فهاج البحر داخلها وسقطت دموعها ثم غطت وجهها بكلتا يديها وبدأت بالبكاء..
شعر محمد بانقباضة في صدره ، وخشي أن يضمها فيكون بذلك يناقض ما وعدها به قبل أن يغادرا البيت ، فظل يهدئها ويسألها عن سبب بكائها ، فأفلتت الكلمات من فمه وهو يكبتها:
دعيني.. أأضمك!
مسحت سارة دموعها بيدها وضحكت دون أن تنظر إليه وقالت: بلا سبب أبكي والله أنا بخير
عزيزي ، ربما قد ارتفع معدل شحني ، ضحكت..
ثم عاودت البكاء مجددا بقوة أكثر..
وبلا أن تفكر قامت بدفن رأسها بصدر محمد..
تشتتت أضلع محمد وذاب قلبه حتى سقطت دمعة من عينه أسدل بعدها ستار جفونه بقوة ، ووضع يديه ببطء على ظهرها ، ثم ضمها بشدة حتى هدأت تماما..
رفعت رأسها ونظرت إليه وهي تتنهد وقالت: أريد العودة للبيت..
هكذا لقد وصلت لذروة سعادتي ، لقد راقصت دموع السحاب ، حتى أمطرت مثلها..
أخذت نفسا عميقا فقال محمد: الآن يمكنني الاعتراف ، أنا ممتن جدا للمطر..
ابتسمت سارة وأخفضت ناظرها ، ثم وكأن كل ما كان لم يكن ، قالت بمرح مفتعل وهي ترتدي حذاءها ومعطفها: دعنا نفر منه ، الوضع لا يحتمل..
فقال هيا بنا : أنا ارتديته حين اشتريت القهوة..
أغلق محمد المظلة وسار معها وهو ممسك بيدها حتى ركبا السيارة وعادا للبيت..
***

-26-

وحس باللي بحس بيه
دانا من زمان مستني اعيش وياك اللحظة دي
يا حبيبي قول بحبك وانا اقولها معاك
كانت سارة تتأمل وجه محمد وهو يقود ، وتقول بسرها: ما أحبك لقلبي يا محمد..
غفت سارة بينما محمد كان الصخب يملؤه ، دموع سارة ، وضمها له ، كلامها ووجودها بجواره وقد أصبحت زوجته أمام الله وملائكته ، إنسه وجنه ، ومن ثم أمام المطر!
لقد شهد المطر اليوم على أول ضمة حقيقية بينهما ، إنه الشاهد الأول برحلتهما على كل شيء حصل اليوم..
وهكذا أعلن محمد أنه قد سمح للمطر أن يتغلغل فيه ، وأنه قد فهم كيف يعشق المطر..
وصل محمد البيت وأوقف سيارته أمام باب البناية ، كانت سارة نائمة بعمق شديد ، وهو يعلم كما أخبرته الخالة أنها إن خلدت للنوم لا تستفيق مهما حاولت معها إلى أن تأخذ كفايتها..
كان محمد ينوي إيقاظها حين تذكر كلام الخالة فابتسم ونظر لها ، لم يكن واعيا تماما لما يفعله ، هو فقط وجدها فرصة لتأملها بقدر ما يشاء ، دون شعوره بالارتباك..
كان ينظر لملامحها الأحب على قلبه ، حتى امتلأت شرايينه بعبق روحها الطيبة..
أخرج هاتفه ، وابتسم لفكرته المجنونة بالتقاط صورة لها يخفيها بهاتفه ، ولا يريها إياها إلا بذكرى زواجهما القادم..
أمسك يدها وقبلها ببطء علها تستفيق من نومها ، لكنها لم تفعل ، كان اليوم متعبا لها ، وجسدها نحيل لا يحتمل..
نزل وفتح الباب من جهتها ، قال بهدوء: سارة ، سارة..
عزيزتي..
ظلت نائمة ، فأغلق الباب عليها وفتح باب العمارة ، ثم باب الشقة ، وعاد إليها سريعا ، حملها وأغلق باب السيارة بقدمه ، ثم صعد بها للشقة..
وضعها على سريرها بغرفتها المنفصلة ، وعاد للأبواب ليغلقها ويحضر كيس وصايا العم ، ولما عاد ووجدها لا تزال نائمة ، أزال حجابها عن رأسها ، وخلع حذاءها ، ثم أحضر بطانية دافئة وغطاها بها ، قبل رأسها ، ثم أطفأ النور وأغلق عليها باب

الغرفة ، ثم ذهب لغرفتهما ، بدل ملابسه وارتدى بيجامة دافئة ، ثم رمى بنفسه على السرير ، وأخذ ينظر لسقف الغرفة بهدوء تام ، ويحدث الله الذي يسكنه ويتساءل:
رباه ، لقد أغدقت علي بنعم ، مهما حاولت لن أحصيها ، منذ خلقت حتى الآن..
ثم وهبتني شعورا عميقا ، فأحببت هذه الفتاة فيك ، وحاولت قدر استطاعتي أن أصونها ، فكنت بجواري دوما تبعدني عن الحرام وترضيني بحلالك..
واليوم ، سارة كانت بين يدي وقد أصبحت زوجتي على سنتك وسنة نبيك..
بفضلك يسرت لي الدروب كلها حتى وصلت ، وأنا لست سوى عبد فقير لك يناجيك وكله إيمان بك ، أن لا تفرق بيننا ذات يوم ، وأن لا تنزعني من قلبها مهما أخطأت ، مهما أذنبت ، دعها لي سندا وظهرا ، فكل ما دونها يحتمل..
ثم أغمض عينيه وامتلأ صدره بهواء بارد يطمئن قلبه ، وقال قلبه وهو يرتجف داخل قفصه الصدري: أحبهاا يا الله ، أحبها جدا..
ظل مستلقيا على ظهره لبعض الوقت ، فاجتاحته رغبة ملحة للكتابة ، نهض من فراشه وأشعل نورا خافتا ، ثم بدأ يقلب قنوات المذياع حتى سمع صوت عبد الحليم وهو يقول:
آه لو تعرف إلي أنا فيه..
والشوق الي غلبت أداريه
كان قلبك ، حس بلياليه مع قلبي ويقولو
آآه يا حبيبي
بحبك..
أبقى المذياع مفتوحا ، وتوجه للمطبخ ، حضر فنحان قهوة مرة ، وأخرج رزنامة ورقه التي يكتب عليها دائما من أدراج خزانته ، وقلم حبره السائل الأسود ، ثم عاد لفراشه ، تربع فيه وأخذ يكتب على النور الخافت:
وجودها دوما يدفعني للتساؤل
من أنا ؟
ولم حين أكون معها ، أشعر دوما برغبة عجيبة للمزيد
للمزيد من الجنون ، الحماقات ، الطيش..
والمزيد من الحب..
لم حين تقترب مني ، تبتعد الحياة بكل تأثيراتها عني
ولا أرى سواها

لا صوت ، ولا بشر ، ولا مرض ، ولا خوف
بلحظة واحدة
يتلاشى كل شيء ، وتتشكل هي وحدها
أتساءل
كيف يمكن لشخص ما أن يعبث بك كاملا
فيلغي ما يشاء ويضيف ما يشاء لك
وأنت تقف بكل رضى ، ولا تعترض!
كيف يمكن لشخص ما أن يكون قادرا على قتلك ، وخلقك من جديد..
خطفك من الوعي للا وعي ، وإجبارك على البقاء حتى في اللا وعي ضمن الحدود..
هذه هي
إنها مسألة التشتت والالتقاء
فحين أكون معها أتشتت تماما فأغوص باللاوعي
وتلتقي كل أطياف وعيي الوهمية ببؤرة عينيها
فأتزن جسدا ، وأختل عقلا وروحا..
سمع محمد صوت باب غرفة سارة قد فتح ، فأخفى الورق بالدرج بجواره..
طرقت سارة الباب ، فقال لها: تفضلي..
كانت سارة مرتبكة جدا ، لم تدخل ، فقط كانت تنظر له ويديها تعانق إحداهما الأخرى..
توجس محمد وعقد حاجبيه وقال لها: تعالي..
نظرت له سارة ، والدموع قد تجمعت بعينيها ثم قالت: لا أريد
وذهبت سريعا من غرفته نحو غرفتها..
نهض محمد من فراشه مسرعا نحوها ، فتح باب الغرفة وقال لها: ما بك!
سارة هل حدث شيء!
قالت سارة وصوتها يهتز: لا فقط خفت حين أفقت ووجدتني بغرفة مظلمة وحدي..
قال محمد وقد ضرب بيده على رأسه: اووه آسف عزيزتي ، والله نسيت أنك تخافين من العتمة حين تكونين وحدك ، سامحيني..
لقد..
فقاطعته: لا لابأس ، اطمأن قلبي حين وجدتك..
اقترب منها وقال: أنت بخير الآن!
قالت: نعم..

ربت على كتفها وقال: ناديني إن احتجت أي شيء ، سأعود لغرفتي ربثما تبدلين ملابسك..
بدلت سارة ملابسها وارتدت إحدى بيجاماتها الوردية طويلة الأكمام وسرحت شعرها لتضعه على كتفها ، ثم أخرجت ملابسها المبللة ووضعتهم بسلة الغسيل ثم ذهبت لغرفة محمد مجددا..
كان محمد يقف بجوار الباب لما طرقته ، ففتح لها سريعا
ضحكت سارة وقالت: ماذا تفعل عند الباب
قال بشقاوة: أنتظرك..
قالت: طيب أدخلني..
اتكأ بظهره على الباب وقال: ممنوع الدخول
فاتكأت على الحائط المقابل وكتفت أيديها قائلة: إذن ستظل واقفا هنا..
قال بعناد: لا أتعب
قالت وهي ترفع كتفيها: سنرى..
نظرت لداخل الغرفة وقالت: تشرب القهوة وتسمع عبد الحليم إذن..
نظر للداخل وقال: لا أشعر بالنعاس..
قالت له: تعبت ، دعني أدخل..
ضحك وقال: ممنووع
هربت منه للداخل وجلست مكانه
اقترب منها وقال: ومكاني أيضا!
قالت: وسأشرب قهوتك ، إن لم تصنع لي آخرا..
قال: نشربه سويا ، أنت مرة وأنا مرة
قالت: اممم هذه المرة فقط ، في المرات القادمة لن أدعك تتذوقه إن نسيتني..
ضحك محمد وهز رأسه بنفاذ صبر وقال: مجنونة..
قالت سارة: مارأيك أن نقرأ وصايا والدي بما أننا لن ننام الليلة
قال: حسنا ابتعدي لأخرجهم
تنحت عن مكانه آخذة معها فنجان القهوة وجلست على الطرف الآخر ، فجلس محمد وأخرج الوصايا من درجه ، وتربع مجددا داخل السرير وغطى نفسه..
قال لها: سنقرأهما سويا أم كل واحد يقرأ الوصية الموجهة له وحده ؟..
قالت سارة: كل واحد يقرأ وصيته وحده ، ثم إن أراد أن يشارك الآخر بها فالأمر يعود له..

قال محمد: اتفقنا..

قفزت سارة من السرير نحو غرفتها ، أحضرت وسيم ، وأطفأت الأنوار وعادت بسرعة ، ثم أقفلت الباب عليهما

قال محمد: لما أحضرته إلى هنا!

قالت: لأني سأنام هنا الليلة ، السرير مبتل من ملابسي تلك..

ضحك بشقاوة وقال بصوت منخفض: سأبللها كل يوم إذن..

قالت: كيف!

حك رأسه وقال بمرح: أقول يا أهلا بك..

جلست سارة عل طرف السرير وغطت قدميها بالبطانية ، ووسيم بحضنها ثم مدت يدها له..

قال محمد: ماذا!

قالت: الوصية..

فمد يده فارغة وقال: وسيم أولا..

قالت وهي تضمه أكثر: لا ، لا يمكنني النوم دونه..

فاشتعلت غيرة محمد وحاول ضبط أنفاسه ، فقال بعد أن زفر الهواء بطريقة مزعجة: حسنا ، هذه وصية والدك ، أنا سأغادر ، اقرئيها مع وسيمك..

لما أوشك على الخروج قالت: لا سأعطيك إياه لا تغضب لأجله..

فقال محمد منفعلا: تضمينه بشدة أمامي ، وتذهبين جريا لإحضاره ، وأنا تهربين مني لطرف السرير..

أو تقتلينني بالغيرة يا سارة..

استغفر ربه وعاد ، لأنه لن يتركها وقد أرادت أن تكون معه ، لكنه مازال مختنقا منها..

قال وقد عاد وغطى نفسه: لا بأس أبقيه معك ، أنا لا شأن لي بذلك..

وضعته سارة على الطاولة التي تجاور سريرها ونظرت إليه وقد اقتربت منه: أيمكنني!

نظر إليها وقال: ماذا!

سحبت يده ووضعتها على كتفها وقالت وهي مستلقية بجواره: أصلا أريد أن أقرأها وأنا معك..

ابتسم محمد وربت على كتفها ثم قبل رأسها

فنظرت إليه وقالت: لا تغضب مني ، والله لم أقصد

قبل خدها وقال لها: لا عليك حبيبتي ، أنا لا أغضب منك مهما فعلت..
خجلت سارة وفرت منه بفتح الوصايا كانت الوصية الأولى لمحمد فأعطته إياها ، ومن ثم فتحت الأخرى وبدأت تقرأ:
"حبيبتي سارة..
نور العين ومهجة القلب وقمر والدها..
إليك أكتب الآن بنيتي ، وقد اختلط الفرح بالحزن في قلبي ، والدمعة بالضحكة على وجهي ، إذ تخرجين اليوم لعالم آخر مع رجل آخر سيكون لك في حياتك كل شيء..
اليوم أرخي قبضة يديك وتفلت أصابعك من بين أصابعي ، لتتشابك في يدي زوجك ، وأنا كلي رضى عليكما ، وأمل بكما لتقرا عيننا بطفل أو طفلة جديدة ، تتشابك أصابعها في أصابعي وأبدأ معها حكاية أخرى وتجربة أخرى تعطيني أملا وفارقا أسد فيه ثغرات الحياة داخلي وتزهر روحي بها من جديد..
لم أكتب لك اليوم لأخبرك كم أحبك ، فأنا متأكد أنك تعرفين ذلك أكثر مما أعرفه أنا نفسي ، ولم أكتب لأخبرك بمدى شوقي لك وأنت لاتزالين بالبيت لمجرد فكرة ذهابك وأنا أعلم أنك خير ابنة وأنك لن تبتعدي عنا على كل حال..
إنما كتبت لأوصيك برجل اختارك ، وأرادك بالحلال ، ثم رفضناه لما ليس عيبا فيه ، فأبدى إصرارا أكبر ، ثم عمل ليلا مع نهار ليتمكن من إسعادك وتلبية مطالبنا لك ، وبعد كل هذا تحمل ما لم يتحمله رجل منا لحبه فيك ، وبكل اختباراته أبدى تفوقا ، فكان رجلا كريما ، سمحا ، شهما ، عزيز النفس ، مخلصا ، وصبورا..
باختصار أردت أن أوصيك بهذا الرجل المحمدي..
لقد بت منذ هذه الليلة على ذمة رجل محمدي ، تقفين على ثغرة نبضه ومشاعره فلا تدعي الوجع يأتينه من ثغرة استأمنك عليها ، فقد أرسى قلبه بين يديك ، وسعى فوق استطاعته لبلوغك ، لذلك اسمعيني جيدا ، وكوني كما عهدتك فطنة ذكية خلوقة ، تسمعين كلام والدك ولا تعصين له أمرا.
إن أهم ما تبنى عليه العلاقة الزوجية يا بنيتي الثقة ، فالعلاقة التي يدخلها الشك لا يمكن أن تظل قائمة مهما طال وقتها ، فلا تدعي الشك يتسرب لقلبه ، فإن رأيته يستفسر عن أمر ما ، لا تتهربي وأجيبيه بكل صراحة حتى تتأكدي أن الشك قد نزع من داخله ، فإن ذلك لا ينقصك مقدارا ولا شأنا ، إنما يزيد موقفك ثباتا ، ويزيده احتراما لك فيخجل من شكه مهما كان صغيرا ، فرسول الله عليه الصلاة والسلام وهو نبي الله والمعروف بنبل خلقه وسمو أخلاقه كان إن رآه أحد يقف مع أحد

ونظر وبعينه ريبة يناديه ويخبره أنه يقف مع فلان أو فلانة وأوصانا بذلك بقوله "اتقوا الشبهات"

بعد ذلك يأتي الاحترام ، فلا يمكن لشخص سوي أن يحب من لا يحترمه ، فتعلمي أن تكوني زوجة ذات خلق رفيع ، هادئة لا ترفع صوتها فوق صوت زوجها ، ولا تحاول إظهار ضعفه وتعريته لتثبت أنها على صواب وأنه على خطأ ، فالرجل حين يتزوج تتوجه الملائكة ليكون رجلا وسندا ، أخا وأبا وربا لزوجته أولا ثم لعياله ، ولا يمكن لامرأة عظيمة أن تقبل بالاستناد على من هو أقل منها عظمة ، لذلك أشعريه برجولتك وتمتعي بأنوثتك فالصوت المرتفع ينقص من المرأة ويجعلها بنظرنا نحن الرجال رجلا ، ولا حاجة للرجل برجل ، كما لا حاجة للأنثى برجل ضعيف كالإناث.. لقد خلقنا الله بهذا الاختلاف لأننا بأمس الحاجة له ، فالرجل مهما ترينه عظيما وقويا وصعب الطباع بنهاية المطاف يميل لأكثر الأشياء رقة وأنوثة ، فعيشي ما خلقت لأجله لتتمتعي بطبيعتك ، فإن تخلت الماء عن أحد خواصها ستكون موجودة لكن دون أن تكون ماء ، فقد تصبح بخارا أو جليدا وبالحالتين لم تفلح بالبقاء..

اعتني بنفسك جيدا ، وانتبهي أني قلت جيدا وليس كثيرا ، لأجلك أولا ثم له ثانيا ، وما أقصده بالاعتناء هو البقاء على ما أنت عليه ، من شكل لطيف ورائحة زكية وروح مفعمة وعقلية متزنة ، فإن فقدت شيئا قلت ثقتك بنفسك وبالتالي ستهتز صورتك بعينه ، وأسوأ ما قد تشعر به الزوجة أنها لم تعد جميلة كما السابق ، وأن حضورها لم يعد يعني للرجل شيئا..

كوني قوية قدر ما استطعت فكثرة الدلال يدفعك للميل للضعف ، والمرأة الضعيفة لا شيء جميل فيها ، المرأة كثيرة الحزن والنكد والتذمر والبكاء والصراخ.. فمهما كان صبره طويلا سينفذ ، ومهما كان عظيما سيتعب ويمل إذ يثقل الحمل على كاهله ، لذلك دوما ترين الرجال يحبون التزوج ممن هن أصغر منهم عمرا ، فالرجل يحب المرأة البشوشة التي تقوده للجنون والضحك الهستيري بلا سبب ، للمرأة القوية التي يكون استنادها عليه يزيده قوة وفخرا ، كاذب من قال أن الرجل يحب المرأة الضعيفة ، إنه يحب الرقيقة اللينة ، وشتان بينهما فمهما حاولت الشجرة إبقاء غصنها المبتور معلقا بها ، مهما تشبثت به ، بالنهاية ستدعه يسقط وتنبت مكانه غصنا جديدا ، إن المرء دوما يميل لما يملؤه بالحياة ، فكوني له حياة ، فالحياة بدون حب وشغف ورغبة تحول موتا وقبرا..

وإياك

إياك بنيتي مهما حدث بينكما أن تخبري أحدا بما يحدث بينكما ، فالبيوت أسرار ، وأكثر البيوت كتمانا هي تلك التي تكون العلاقات فيها أكثر عمقا وصدقا..

إياك

أن تقللي من شأن عائلته ، وتحديدا أمه ، فإن قللت من شأنها عاجلا أم آجلا ستكونين الخاسرة ، فالفرع دوما يميل لأصله ، والجذع لا يحيا بلا جذور ، بل قدري عائلته وأكرميها ، ومهما حدث لا تقحمي نفسك بحديث يخص عائلته إلا وتكونين فيه طرف خير ، فأكثر ما أحبه بوالدتك أنها لم تقف يوما لصفي مهما فعلت ، وتحثني دوما لإبقاء العلاقة والوصل ، كوني كأمك عظيمة وطيبة أينما كنت تزهرين..

وإياك ثم إياك

أن تلغي المسافة فيما بينكما ، فمهما بلغت عظمة المرء بالنهاية مصيره أن يزل ، لذلك إياك مهما حدث أن تذكري لزوجك عيوب عائلتك ، أن تسبي أحدهم مهما بلغ الخلاف بينك وبينهم ، أو تذكريهم بسوء ، فبالنهاية هم ظهرك ، واحترامه لهم من احترامه لك ، فإن كسرت ظهرك أصبحت أمامه قطعة رخيصة ، قليلة الشأن ، سهلة الكسر..

عائلتك فوق كل شيء ، فأخوك الذي قد ضربك ذات يوم سيقتله لو مسّك ويأخذ لك حقك منه لو آذاك ، ووالدك الذي قد شتمك أو وبخك ، أو منعك ذات يوم عن شيء هو من سيصرخ بوجهه ويرفع من شأنك لو جار عليك ، وأختك مهما تكن فهي الرفيقة التي لا يمكنه منعك عنها مهما حدث..

فأعزي نفسك بأهلك واعلمي أن الرجال يمجدون النساء الأحرار اللواتي خلقن في بيوت كريمة وعزيزة ، ربما خوفا وربما احتراما ، لكن الزوج يحسب حسابا للأهل كثيرا ، فلا تبخسي من نفسك بلا سبب وتفضحي أسرار عائلتك لزوجك ، فإن كان قريبا اليوم ، من يدري ما تؤول له الأمور غدا!

وآخر ما أود قوله وأنا أعلم أنك تعقلينه جيدا وتفقهينه ، إنما أقوله من باب التذكير..

لا تنهي نفسك من أجل الزواج ، بل اجعليه بداية لحياتك ، ابقي كما أنت مملوءة بالشغف ، عظيمة العقل ، فطنة وطموحة..

فالرجال تحب المرأة التي تظل بتوهجها ولا تنطفئ..

واتقي الله بزوجك فلا تقسي عليه بطباعك ، ولا تكثري من طلباتك ، ولا تشعريه بالمنة لأنه تزوجك ، بل دعيه يحمد الله ليلا ونهارا لأن الله قد حباه بزوجة صالحة تسره إذا أبصرها وتبره وتحسن إليه مهما أساء..

وبالختام ، دعي الطلاق خيارا مستثنى في حياتك ، فالنجاح الحقيقي ليس بالهروب من المشكلة إنما بحلها ، وزني ما يحسنه زوجك لك وما يمنحك إياه من حب واهتمام وعطاء ، فأسوأ النساء تلك التي تهون عليها عشرة رجل أحبها بصدق إن أخطأ بحقها مرة..

وبالنهاية أدعو الله لكما بأن يبارك لكما وعليكما ويرزقكما كل خير ويفيض عليكما بنعمه ويكرمكما بالصحة والعافية وراحة البال ، وأن يديم الحب عامرا بين قلبيكما ينير لكما الدروب ويصلح ما تفسده الحياة بعينيكما

أبيك"

أنهت سارة قراءة الرسالة ، فابتسمت ، ثم نظرت لمحمد ووجدته مازال غارقا بالقراءة ، لم تشأ أن تقاطعه فالتزمت الصمت ، وأخذت تفكر بكلمات والدها حتى غفت وذراع محمد لاتزال تعانق كتفها..

أما محمد ، فقد كانت حروف العم بمثابة أبواب تفتح له مداركه وتنبهه على الكثير مما سيراه في حياته ، وتساءل بداخله كيف يمكن لشاب أصغر منه عمرا أن يقدم على أمر كالزواج ، وإن لم يصادف بحياته رجلا حكيما كعمه كيف يمكن له أن يحسن التصرف ، ونحن لم نجد مثالا حقيقيا يحتذى به بالعلاقات ، لا نعرف ما الصواب وما الخطأ ، وأكبر أحلامنا من هذا الزواج امرأة حسناء وابن يحمل اسمنا..

كيف يمكن لمن عاش بكنف أشباه زوجين أن يعرف ما معنى الأبوة ، أو ما معنى الأمومة ؟

كيف يمكن لمن لا يفهم بحياته سوى الجسد وغرائزه أن يقدم على بناء أسرة!

كيف يمكن للواحد من ذوي العقول المضطربة الذي لا يمكنه الجلوس مع صديقه لساعة إلا ويحدث مشكلة ومصيبة أن يجالس فتاة وزوجة ويحتذي بقول رسولنا الكريم إذ يقول: رفقا بالقوارير..

الأسئلة كثيرة والأجوبة محصورة ، فالفشل الفادح الذي نراه في العلاقات الزوجية الحالية ، سببه قلة المرشدين من ذوي الحكمة ، إذ يلجأ من بعمري لسؤال من هم بعمره أو أقل منه عمرا من ذوي العقول الفارغة ، إننا جميعا مملؤون بالحشو ، والكلام الفارغ والنصائح التي ما عدنا قادرين على تمييز الصواب منها عن الخطأ ، فنجد أن الشدة التي يوصونا بها لا تتفق مع الدين وتنافي الإنسانية ، وبذات الوقت

بداخلنا صوت رجولي لا يقبل أن تقودنا امرأة أو تحكمنا فنكون كما الماء بين يديها..
السؤال هذا غاية في الخطورة ، ويحتاج تعمقا بالغا وعقلية واعية متفهمة ومتمكنة لتتمكن من التوازن ، فنظل رجالا بحق أمام أنفسنا ، ورجالا بحق بعين تلك التي قمنا باختيارها لتكون زوجة وشريكة لحياتنا..
هذا كله وأكثر دفع محمد لقراءة رسالة عمه والتدقيق بها ألف مرة ، وقرر أنه سيعمل بها حرفيا ، فهو يؤمن جدا بحكمة عمه ، كما أنه رآه منصفا له ولرجولته ، لا يميل عليه لينصف ابنته ، إنما كان معتدلا في كل شيء ، لقد وجد محمد بهذه الوصية الإجابة الحقيقية لأسئلته ، والكبسولة المهدئة لكل مخاوفه المستقبلية:
"السلام على زوج ابنتي
الذي يشاركها اليوم حاضرها ، ومستقبلها غدا..
ويشاركها فينا مكانتها ، فإن كانت تحتل هذه الفتاة التي بين يديك نصف قلب والدها ، وزوجك إياها فهذا يعني أنه قد منحك نصف قلبه لتشارك ابنته به..
عزيزي محمد ، أعلم أني لربما كنت شديدا عليك ، وبالغت بالحذر لكي أبقي تلك المسافة بينكما ، رغم علمي ويقيني بك وبأنك رجل يخاف الله تقي وذو خلق عظيم ، إنما كان ذاك الحرص آخر ما أملكه للحفاظ على ابنتي وكل ما يمكنني فعله لأنبذ الشيطان بعيدا عنكما ، ليحميكما الله ويبارك لكما خطواتكما ويزيدكما من فضله..
كنت أرغب أن تتأكدا من توافقكما فكريا ، فالجسد والعين بالغالب يفسدان الأمر ، ويجعلان من الشخص أكثر قابلية للقبول والاقتناع بمن يقابلك ، إنما حين نقصيهما ، تظهر حقيقة المشاعر ونتأكد ما إن كنا قادرين على البقاء مع هذا الشخص طوال الحياة أم لا ، فحكاية الأجساد والجمال تنتهي إن أخذت مجدها بعد العام الأول ، ويبدأ الواحد منا بإبصار من أمامه بحق ، إذ يدرك أن الجسد وما فيه من رغبات ، ليس غاية الزواج إنما وسيلة لتتمة الحياة واستكمالها على النهج الأفضل..
واليوم
بعد أن أوصلتكما لآخر الطريق ، أردت أن أكمل واجبي معكما بهذه الوصايا ، فمهما بلغ الرجل من الفطنة والحكمة والذكاء لن يكون جاهزا ليشارك امرأة حياتها بعدل ، دون أن يميل عليها أو تميل عليه ، فخذ مني ما تراه صوابا ، ودعك مما ترى فيه زلة ، وأشهد الله أني لا أقول قولي هذا محبة بابنتي فقط ، إنما لمحبتي فيك

ورغبتي أن أهبك أسرارا تجعل من حياتك الزوجية روضة من رياض الجنة ، لا زنزانة لك ولسعادتك..

أي بني

إنما خلق الله الزواج لنا نعمة وفرحة لا فرحة بعدها ، ولذلك تزف الملائكة الرجل الصالح في ليلة زواجه وليس البشر فقط ، ولكن النعم مهما بلغت عظمتها قد تحول لنقمة لو لم نتمكن من أداء حق الله بها ، فلذلك فرض الله الصدقة والزكاة وغيرها من أوجه الإنفاق على المقتدرين ماديا ، والعمل على المقتدرين جسديا ، والتفكير والتأمل على المقتدرين عقليا ، وبقدر ما تزداد عظمة النعم يزداد واجبنا تجاهها وإلا فحالت كلها إلى نقم على صاحبها..

وأول وأجمل نعمة قد حباك الله فيها اليوم ، هي تلك الزوجة التي اخترتها ، فاحمد الله عليها جيدا ، اعتن بها جيدا فأكثر ما يشعر المرأة بحب زوجها لها اهتمامه بها وبتفاصيلها التي قد نراها تافهة ، شاركها بلون الفستان ، وقصة الشعر ، وأبدي اهتماما بصحة وجهها وتحسن مزاجها ، طول شعرها وذوقها ، فهذه الأمور التي نراها نحن الرجال تفاهة وقلة عقل ، هي ما يجعل زوجتك تظل تهتم بنفسها وتفكر بنفسها ، فيشغلها ذلك عن تقصيرك المادي ، أو انشغالك عنها في العمل وما إلى ذلك

وإياك ثم إياك أن تنتهي عن مغازلتها وتدليلها ، فإن أردتها أنثى بحق عليك أن تداري على أنوثتها بكلامك وتحتضنها بقلبك كي لا ينطفئ فتيل أنوثتها ، فتحول حياتك خالية من كل شيء لطيف وجميل ، وكأنك تعيش مع أحد أصدقائك..

رافقها ، وكن معها رجلا مجنونا وجريئا لا تهاب شيئا ، دعها تنتظرك بشغف وتترقب حضورك طوال الوقت ، اكسر حاجز الملل ولا تكن فظا غليظا قليل الكلام ، كسولا عن الحركة ، الأمر لا يعني أبدا أن تكلف نفسك فوق طاقتك ، إنما يعني أن ترغب بمشاركتها أمرا جديدا ، كأن تأخذها من يدها وتذهب معها للسوق ، أو تشاركها في السير لأحد المولات العامة لتحضر غرضا ما ، أن تعود مرة وبيدك شيء تشتهيه كنوع من الحلوى أو الفاكهة ، أو زجاجة عطر ، أو ساعة ، أو كتاب..

أن تكتب لها شيئا ، تجلسها بجوارك لتشاركها أغنية ما وتهديها إياها ، أن تصارحها في لحظة بمشاعرك التي لا يتيح لك الوقت لتقولها دوما..

رافقها ، وكن بجوارها حتى تنجح ، حفزها لتعلم شيء جديد ، كأن تتعلم أحكام التجويد وتحفظ القرآن ، أو تتعلم الطبخ في أحد الأماكن المجاورة ، أن تتعلم بالجامعة وتكمل تعليمها ، أن تقرأ روايات أو كتب مختلفة ، فأنت قبل أن تهديها

النجاح تهديه لنفسك ولأولادك وعائلتك ، كما أن ذلك سيجعلها تنشغل عنك قليلا ، مما يخفف مزاجيتها وتذمرها عنك..
وإياك أن تتفوه بتلك الكلمات الغبية التي يتداولها الرجال في بلادنا ، بأنك لا تفعلين شيئا سوى ترتيب البيت وجلي الصحون ، وكأنك تستخف بما تفعله ، فهذه الجملة هي ما قادت النساء للتفكير بالتحرر والخروج وبدء العمل وإهمالها جانب زوجها وبيتها وعائلتها ، بالرغم من أن ذلك يتعبها ويجعلها تهمل نفسها كثيرا ولا تشعر باللذة التي كانت ، لكن المرأة تبحث دوما عن التقدير والاعتراف بها ، فإن أشعرتها بالنقص ستبحث عن الكمال الذي يستهويها ، وإن أشعرتها بأنها ذات قيمة وشأن صيرت لك هذا البيت جنة..
وتعلم يا بني أن تستمع لها ، وتشاورها ، لكن إياك أن تقحمها بينك وبين أفراد عائلتك ، إياك أن تدع كلامها يباعد بينك وبين أحد ممن زفوك بيديهم لها ، وشاركوك بكل لحظة حتى أصبحت رجلا وعرفتها ، وهذا بالطبع لا يعني أن تفضلهم عليها مطلقا ، لكن عليك الفصل والعدل ، فإن كنت معهم وأخطأت بحقهم ، افصل فيما بينهم واشرح وجهة نظرها لهم حتى تطيب خاطرهم ، ثم عاتبها فيما بينكم ، وأفضل ما تفعله أن تظل علاقتها بعائلتك رسمية ، زيارات رسمية لا تطول كثيرا ولا تتكرر كثيرا إلا من باب الوصل وعدم قطع الرحم ، وتعرف أن خدمة والدتك فرض عليك وفضل منها ، تماما كما خدمتك لأهلها فضل منك ، فإياك أن تلزمها بخدمتهم ، إلا إن جاء ذلك بطيب خاطر منها ، ولا داعي لأن تشرح لها سبب الرسمية بينها وبين عائلتك ، إنما تحجج بصعوبة الذهاب أو أي شيء ، كي تظل هي على طبيعتها ، ويظل الود بينهم قائما ، فلا مكان تجتمع فيه النساء إلا ويفسدون أمر رجالهم بعد مدة..
خذ رأيها بعين العقل ، ودع قراراتك تصدر بحكمة وبعد تفكير طويل ، عودها أنك لا ترفض سريعا ، كي لا تشعر أنك تتحكم بها ، وأنك لا تقبل كل شيء ، كي لا تقلب حياتك لجحيم إن رفضت ، ولكن لا بأس ببعض التجاوزات أحيانا إن شعرت أن ذلك الأمر سيسعدها ، لكن لا تدع الأمر يسير وحده ، عليك أن تشعرها أنك قبلت لأنك تريد أن تراها سعيدة ، فكن وسطا بين لا ونعم ، وراع شعورها فإن وجدت بقلبها حزنا إثر قرار اتخذته ، فالهزيمة أمام من نحب نصر لنا ، ناقشها بالأمر وإن وجدت أنك قد أخطأت بقرارك لا بأس بأن تعيد النظر به من أجلها والرجوع عما قلت..

وإن أخطأت ذات مرة ، فلا تعاتبها كثيرا ، ولا ترفع صوتك طوال الوقت ، لتشعر بالفرق بين الذنب الصغير والكبير ، وتميز بين غضبك وبين عتبك لتظل هيبتك ومكانتك محفوظة..

وأهم شيء أن تحترمها مهما كان الذي بينكما ، ولا تشتكيها لأحد ، فالنساء يا بني لا تنسى ما نقوله بلحظة غضبنا بل وتراه أكثر الكلام صدقا ، وبذلك ستخلق بينك وبينها حاجزا وتظل تكرر الكلمة على مسامعك دهرا ، كلما أردت قربها ، لذلك كن حذرا وفطنا ، ودعها تراك كاظما للغيظ متحكما بنفسك عند الغضب ، لتزداد مكانة وعظمة في قلبها وعينها..

وآخر ما سأوصيك به ، والوصايا لا تنتهي إنما أتركها لعقلك وللأيام ، فإياك أن تعقد مقارنة بين زوجتك وغيرها من النساء مهما كانت ، فالمقارنات لا تزيد الطين إلا بلة ، فحتى وإن رأيت بها ما يزعجك ، تخير الكلام لتنصحها به ، فبدلا من أن تقول لها أنك أصبحت سمينة ، قل لها الآن عليك البدء برجيم لتستعيدي رشاقتك ، فالأولى تعني أن مظهرها بات يزعجك ، والأخرى تعني أنك تريدها أن تكون أجمل ، والنتائج المترتبة ستكون بحسب إيجابية التعليق ، فاسع دوما لترى روح من تزوجت وعقلها بعيدا عن الجسد ، تماما كما كنتما في بداية الطريق ، لأن العلاقة الزوجية أسمى بكثير من أن تتأثر بشكل أحدكما وتغيراته ، يجب أن يتجلى في قلبك رضى عميق وحب عظيم بها ، وحين تهتز ثقتها بنفسها تجبرها لها ، فكلما زادت ثقتها بنفسها قل وسواسها الذي يشعرها بأنها ناقصة ، والذي ستدفع أنت ثمنه كثيرا ، من مزاجية سيئة ، وطلبات كثيرة ، وبكاء بلا سبب وغير ذلك..

الحياة ليست سهلة ، وليست وردية ، لكنك ستتذوق السعادة في كل اختبار زوجي تنجح به لذلك ركز بحياتك أنت واخضع كل مشكلة تحدث بينكما للعقل وانظر بها جيدا ، حتى تجد حلا حكيما..

وأخيرا ، أوصيك بتقوى الله بها وبمشاعرها ، فقد أعتقني الله من مسؤوليتها اليوم ومنحتك الوسام لتكون أنت من بين جميع رجال الأرض زوجها وولي روحها قبل أمرها ، فلا تؤذها بقلبها وقد أحبك ، ولا بعقلها وقد اختارك ، ولا بروحها التي اقترنت بك ، وكن لها خير رجل وزوج وأب وراع..

كل المودة لك

عمك"

أنهى محمد رسالته وهو عاقد الحاجبين ، شعر بأن الأمر معقد جدا ، وأنه الآن بات بحق مسؤولا عن هذه الطفلة النائمة على ذراعه ، وأنه لم يصبح زوجا لسارة وحسب بل أبا أيضا..

التفت لسارة فوجدها نائمة بهدوء تام على ذراعه ، تمسك بيدها وصية والدها ، ابتسم بحب وقال بصوت أشبه بالهمس: وأجمل طفلة والله..

سحب الوصية من يدها ووضعها بجواره على الطاولة ، شعر بفضول حيال ما كتب العم لها ، لكنه قرر أنه لن يفعل إلا إن قبلت سارة ، فهو بدوره لا يرغب بأن تقرأ سارة ما كتبه العم له..

أرخى ذراعه بهدوء وأنزل رأسه على الوسادة وأرسى رأس سارة على صدره ، ثم وضع يده على رأسها وأخذ يمسح على شعرها ببطء ، وظل مبحلقا بسقف غرفته حتى مسح الله على قلبه وأغدق عليه بطمأنينة وسكينة جعلته ينام وقلبه يعانق نجوم السماء رغم ضبابية السحاب وكل الفوضى التي كانت تموج بداخله..

***

يسرنا استقبال تعليقاتكم ونصحكم على الإيميل التالي:

al3an8a2.rajaa@gmail.com

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع